آر أوستن فريمان

مغامرات الدكتور ثورندايك

العظمة المُغنِّية

مغامرات الدكتور ثورندايك

العظمة المُغنِّية

تأليف
آر أوستن فريمان

ترجمة
نبيل العدلي

مراجعة
شيماء طه الريدي



مغامرات الدكتور ثورندايك

آر أوستن فريمان

The Adventures of Dr. Thorndyke

R. Austin Freeman

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

٣ هاي ستريت، وندسور، SL4 1LD، المملكة المتحدة
تليفون: ٨٣٢٥٢٢ ١٧٥٣ (٠) ٤٤ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

إنَّ مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: يوسف غازي.

الترقيم الدولي: ٩٧٨ ١ ٥٢٧٣ ٢٢٢٥ ٧

صدر الكتاب الأصلي باللغة الإنجليزية عام ١٩١٢
صدرت هذه الترجمة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢١

المحتويات

تمهيد

من المحتمل أن يُثير البناء الغريب للقصص الأربع الأولى في هذه المجموعة استغرابَ القارئ والناقد على حدٍّ سواء، بل ربما استدعى بعض التوضيح الذي سأشرع في تقديمه.

في «القصص البوليسية» التقليدية، ينصبُّ الاهتمام على السؤال الدائم: «من الفاعل؟» وتظل هوية المجرم سرًّا مصونًا لا ينكشف إلا في السطور الأخيرة من الكتاب، ليمثِّلَ الكشفُ عن السر الذروةَ النهائية للأحداث.

لطالما رأيتُ هذا النسق خاطئًا نوعًا ما. ففي الواقع الفعلي، تُعدُّ هويةُ المجرم مسألةً ذات أهمية قصوى لأسباب عملية، أما في الخيال، حيث تنعدم تلك الأسبابُ العملية، أرى أن اهتمام القارئ ينصبُّ بالأساس على عرض ما يترتب على الأفعال البسيطة من عواقب غير متوقعة، وعلى الروابط السببية التي لا تخطر ببال، وتطور سلسلة منظمة من الأدلة المستندة إلى عدد من الحقائق تبدو ظاهريًّا بلا ترابط أو صلة من أيِّ نوع. إن سؤال «من الفاعل؟» لا يُثير فضول القارئ بقدر ما يُثيره سؤال «كيف اكتُشفت الحقيقة؟» بمعنًى آخر، يهتم القارئ الحصيف بالأفعال الوسيطة أكثر من اهتمامه بالنتيجة النهائية.

عرَض مؤلف معروف لإحدى «القصص البوليسية» جائزة للقارئ الذي سيتمكن من تحديد هوية المجرم في قصته، مخالفًا بهذا العرض الرأيَ الذي استقر في ذهني، فأثار ذلك لديَّ سؤالًا مثيرًا:

هل من الممكن كتابة قصة بوليسية يعهد فيها المؤلف بسرِّه للقارئ منذ البداية، فيكون القارئ شاهدًا فعليًّا على الجريمة، ويكون في متناوله كلُّ الحقائق التي يمكن الاستعانة بها في اكتشافها؟ هل سيترك ذلك للقاصِّ قصةً ليرويَها لقارئ في متناوله كلُّ الحقائق؟ أعتقد أن الإجابة هي نعم؛ وعلى سبيل التجربة، بهدف اختبار صحة اعتقادي، كتبت قصة

«قضية أوسكار برودسكي»، وفيها تنعكس الظروفُ المعتادة؛ فالقارئ يعرف كلَّ شيء، والمحقق لا يعرف أيَّ شيء، وينصب التركيز على الدلالة غير المتوقعة لملابسات عادية تمامًا.

بعد اطلاع محكَّمين بارزين من أمريكا وأوروبا على القصة — ومنهم محرر مجلة بيرسونز — لاقت القصةُ من الاستحسان ما جعل البعضَ يدعونني لكتابة قصص أخرى على النسق نفسه.

كتبتُ ثلاث قصص أخرى، أضعها بين دفتي هذا الكتاب، بالإضافة إلى قصة كُتبت بالنسق المعتاد، ليتسنَّى للقارئ المقارنةُ بين مميزات أسلوبَي السرد والحكم عليهما.

سيلاحظ القارئ ذو الدراية بشئون الملاحة البحرية أنني قد افترضتُ وجود منارة من النوع الذي تُدق أعمدته الحاملة في قاع النهر في جيردلر ساند بدلًا من السفينة المضيئة التي تُستخدم كمنارة (وهذا لأسباب واضحة متعلقة بقانون التشهير). وقد حرصتُ على التنويه بذلك درءًا للانتقادات ولأوفِّر على القارئ عناء الكتابة إليَّ لتنبيهي لهذه الملاحظة باعتبارها خطأً.

آر إي إف

قضية أوسكار برودسكي

الجزء الأول

آلية الجريمة

جرى على الألسنة كمٌّ مذهل من الهراء واللغو عن الضمير. فاستقر في رأي البعض أن سعادة المرء أو تعاستَه تتحدَّد إما بما يعتمل في وجدانه من تأنيب الضمير (أو «وخز الضمير» حسب التسمية التي يفضلها فريقٌ من العلماء الشديدي التمسك بالتعاليم التيوتونية)، أو بما ينعم به من «راحة الضمير» على الجانب الآخر.

لا شك أن لفكرة «راحة الضمير» قدرًا من الصحة، ولكنها تدعو للتساؤل حول مسألة الضمير برُمتها. فالضمير الفاسد المتحجر قد ينعم بالراحة التامة حتى في أقسى الظروف، أي في الظروف التي قد ينخر فيها الوخزُ الضميرَ الأكثر هشاشة. ومن ثَم يتراءى لنا أن المحظوظين هم فئة منعدمة الضمير تمامًا، وأن انعدام الضمير يُعدُّ بالنسبة إليهم منحةً سلبية ترتقي بهم فوق التقلبات الذهنية التي يمرُّ بها باقي البشر العاديين.

كان سيلاس هيكلر خيرَ مثال على ما أسلفنا. ما كان لأحد أن يتخيَّل أن مجرمًا يختبئ خلف هذا الوجه البشوش المستدير الريان النابض بالخير والمزدان بابتسامة لا تفارقه. وكان آخرُ مَن يظن به السوء مدبرةَ منزله ومحلَّ ثقته المتدينة التي لطالما كانت شاهدةً على رقَّته ودماثته الدائمتين، واستمعت لغنائه المرح في أرجاء المنزل، واستشعرت استمتاعه الممزوج بالتقدير لها أثناء الوجبات.

غير أن سيلاس كان في واقع الأمر يجني دخلَه الذي يوفر له متسعًا من العيش — رغم تواضعه — من السرقة. عمل محفوف بالمخاطر ولكن يمكن الحدُّ منها إذا توخى الحكمة والاعتدال. وكان سيلاس رجلًا حكيمًا بلا شك، اعتاد العمل بمفرده واكتفى بعقله له مرشدًا؛ فليس له شريكٌ يشي به إذا ما وقع في قبضة الشرطة ليُصبح شاهدَ ملك، ولا يعرف أحدًا قد تنتابه موجةُ غضب تؤدي به إلى الثرثرة مع أحد في سكوتلاند يارد. ولم

يكن جشعًا ومسرفًا كغالبية المجرمين. فكانت عملياتُه قليلة ومتباعدة، يخطط لها بعناية، وينفذها في سرية، ويستثمر عوائدها في تأجير العقارات بالأسبوع.

كان سيلاس في بداية حياته يعمل في مجال الألماس، ولم يزل يتاجر فيه من وقت لآخر على نطاق محدود وغير مشروع. ودارت حوله شبهاتُ إبرام الصفقات مع الوسطاء، وكان واحد أو اثنان من التجار قد بلغ بهما الخُرْق إلى ذكر «بيع السلع المسروقة» صراحةً. كان سيلاس يرد على ذلك بأن يرسم ابتسامة على وجهه ثم ينصرف؛ فقد كان يعرف الكثير، ويعرف أن الفضول ليس من طبع عملائه في أمستردام.

هذا هو سيلاس هيكلر. بينما كان يتجول في حديقته في غروب أحد أيام شهر أكتوبر، بدا عليه من رغد العيش ما يناسب انتماءَه للطبقة المتوسطة. كان يرتدي بذلة السفر التي اعتاد ارتداءَها في رحلاته المحدودة خارج إنجلترا، وكانت حقيبتُه قد حُزمت وقبعته تنتظره على أريكة غرفة الجلوس. كان في الجيب الداخلي لسترته كيسٌ من الألماس (اشتراه من ساوث هامبتون بدون حِيَل أو تلاعب، وإن كان الأمر لم يخلُ من التساؤلات المتطفلة)، وكان في تجويف كعب زوج حذائه الأيمن كيسٌ ثمين. كان أمامه ساعة ونصف لينطلق لاستقلال القطار المتجه إلى الميناء ليصعد بعده على متن السفينة؛ وفي هذه الأثناء لم يجد ما يفعله سوى التجول عبر الحديقة الآخذة في الذبول والتفكير في الاستثمار الأمثل لعائدات الصفقة الوشيكة. كانت مدبرة المنزل قد رحلت إلى ويلهام لشراء احتياجات المنزل الأسبوعية، ولم يكن واردًا أن تعود قبل الحادية عشرة. كان وحده في المكان دون صحبة إلا الرتابة والملل.

كان على وشك العودة إلى البيت عندما سمع صوت خُطًى تطأ الطريق غير الممهد الذي يحدُّ الحديقة، فتوقَّف وأصاخ السمع. لم يكن له جار قريب ولم يكن الطريق يؤدي إلى وجهة معروفة سوى الأرض الخربة التي تتاخم المنزل. ربما كان زائرًا؟ غير محتمل! فزوَّارُ منزل سيلاس هيكلر قليلون. في تلك الأثناء اقترب صوتُ الخُطى وأخذ يتزايد ويرتفع على الطريق الحجري الصلب.

توجَّه سيلاس إلى البوابة واتكأ عليها وراحت عيناه تنظران عبرها بقدر من الفضول. بعد قليل أتاح له وهجٌ من الضوء رؤيةَ وجهِ رجل يُشعل غليونه على ما يبدو، ثم رأى جسدًا بلا ملامح واضحة يكسر الظلمة المحيطة ويتجه إليه ثم يتوقف أمام الحديقة. أخرج الغريبُ سيجارة من فمه ونفخ سحابةً من الدخان ثم سأله: «هلَّا أخبرتني ما إذا كان هذا الطريق يؤدي إلى محطة بادشام؟»

أجاب هيكلر: «كلَّا، ولكن يوجد ممرٌّ مشاة على مسافة من هنا يؤدي إلى المحطة.»

قال الغريب متذمرًا: «ممرٌّ مشاة! سئمتُ ممرات المشاة. لقد جئتُ من البلدة قاصدًا كاتلي، وكنت أنتوي العبور إلى المحطة. انطلقتُ عبر الطريق ثم وجَّهني أحدُ الحمقى إلى طريق مختصر، وها أنا أتخبط في الظلمات منذ نصف ساعة. لا أتمتع بنظر ثاقب.»

سأله هيكلر: «أي قطار تود أن تستقل؟»

أجاب: «قطار السابعة وثمانٍ وخمسين دقيقة.»

قال سيلاس: «سأستقل القطار نفسه، ولكني لن أتحرك من هنا قبل ساعة من الآن؛ فالمحطة لا تبعد عن هنا سوى ثلاثة أرباع الميل. يمكنك الدخولُ للراحة ثم يمكننا بعد ذلك أن نتجه معًا إلى المحطة سيرًا، وهكذا ستضمن أنك لن تضلَّ طريقك.»

نظر الغريب بنظارته إلى المنزل المظلم وردَّ قائلًا: «هذا كرم كبير منك، ولكن أعتقد ...»

قاطعه سيلاس بأسلوبه الودود: «يمكنك الانتظارُ هنا بدلًا عن الانتظار في المحطة.» وفتح البوابة، فدخل الغريب بعد تردُّدٍ لحظي، وألقى بسيجارته، وتبعه إلى باب المنزل.

كانت غرفة الجلوس مظلمةً إلا من الوميض الخافت للَّهب الآخذ في الانطفاء؛ فأشعل سيلاس الذي كان يتقدم ضيفَه عودَ ثقاب وأسرج به قنديلًا تدلَّى من السقف. وبينما ارتفع لهبُ القنديل باعثًا نورَه في أرجاء الغرفة الصغيرة، تفحص كلَا الرجلين الآخر بفضول متبادل.

قال هيكلر في نفسه وهو ينظر إلى ضيفه: «برودسكي، يا إلهي! من الواضح أنه لا يعرفني ... بالتأكيد لن يعرفني، بعد كل هذه السنوات، بالإضافة إلى ضعف بصره.» ثم أضاف بصوت عالٍ مخاطبًا إياه: «تفضَّل بالجلوس يا سيدي. هلا شربت معي شيئًا بينما يمرُّ الوقت؟»

تمتم برودسكي مبديًا موافقة غير واضحة، وفيما استدار مضيفه ليفتح خزانة، خلع قبعته (التي كانت مصنوعة من لباد رمادي قاسٍ) ووضعها على كرسي في إحدى زوايا الغرفة، ووضع حقيبته على حافة الطاولة، مسندًا مظلَّته عليها، وجلس على كرسي صغير ذي ذراعين.

خاطبه هيكلر مجددًا: «أترغب في بعض البسكويت؟» بينما وضع على الطاولة زجاجةً من الويسكي وكأسَي شراب ذاتَي نقوش نجمية ومسكبة.

ردَّ برودسكي: «شكرًا، لا بأس بالبسكويت. أمامي رحلة بالقطار، وأنهكني هذا التسكع العشوائي، تعلم!»

ردَّ سيلاس موافقًا: «نعم، من غير المعقول أن نبدأ الرحلة بمعدة فارغة. أتمنى ألا تمانعَ في تناول بسكويت الشوفان؛ فهو الوحيد المتاح لديَّ.»

أسرع برودسكي مؤكدًا أن بسكويت الشوفان هو المفضل لديه، وانكبَّ على البسكويت، بعد أن أعدَّ لنفسه شرابًا قويًّا، بشهية واضحة لزيادة التأكيد. كان برودسكي أكولًا، وبدا في تلك اللحظة في شدة الجوع.

ولما كان صوت قضمه الموزون للبسكويت غيرَ ملائم لإقامة حوار، فقد وقع أغلب الحديث على عاتق سيلاس، وللحظة وجد المجرم الدمث المهمة محرجة. كان من الطبيعي في هذا الموقف أن تدور المناقشةُ حول الوجهة التي يقصدها الضيف وربما الغرض من رحلته، ولكن هذا بالتحديد ما حاول هيكلر تجنُّبَ الحديث عنه؛ فقد كان على علمٍ بكلا الأمرين بالفعل، بيد أن شيئًا بداخله دفعه إلى الاحتفاظ بمعلوماته لنفسه.

كان برودسكي تاجرَ ألماس ذائع الصيت وذا تجارة واسعة؛ فقد اعتاد شراء الأحجار الكريمة في صورتها الخام، وكان بارعًا في تمييز الأحجار الأصلية والحكم عليها. وكان ولعًا بالأحجار الكريمة المخالفة للمألوف في الحجم والقيمة، وعُرِف عنه أن من عادته الانتظار حتى يُصبح في حوزته مخزونٌ كافٍ من الأحجار الكريمة ثم يحملها بنفسه إلى أمستردام ليُشرف على تقطيعها في صورتها الخام. كان هيكلر على علمٍ بذلك، ولم يساوره شكٌّ في أن برودسكي الآن بصدد الانطلاق في واحدة من رحلاته الدورية تلك، وأن بين طيات ملابسه الرثة وطبقاتها صرَّةً ورقيةً ربما تساوي آلاف الجنيهات.

جلس برودسكي إلى الطاولة يقضم في إيقاع رتيب ويقتصد في الحديث، بينما جلس هيكلر قُبالته يتحدث بشيء من التوتر والعنف نوعًا ما في بعض الأحيان، ويتفحص ضيفه بانبهار متزايد؛ فالأحجار الكريمة، ولا سيما الألماس، هي اختصاصه. كان يتجنب الأحجار شبه الكريمة والفضيات تمامًا، ونادرًا ما كان يلمس الذهب إلا في صورة عملات ذهبية؛ أما الأحجار الكريمة — التي كان بمقدوره حملُ شحنة كاملة منها في كعب حذائه وتصريفها بأمان تام — فكانت أساسَ تجارته. وها هو ذا رجل يجلس أمامه يحمل في جيبه حزمةً تحمل ما يضاهي في قيمتها عَشرًا من أنجح عملياته أو يزيد؛ لعلها تساوي ... اقترب هيكلر منه وبدأ في الحديث بنبرة متسارعة، وإن كان حديثًا بلا ترابط؛ فحتى وهو يتحدث، بدتْ كلماتٌ أخرى — تكوَّنت في عقله الباطن — وكأنها تقحم نفسَها بين ثنايا عباراته، وتحمل تسلسُلَ أفكار موازيًا.

قال هيكلر: «تشتد البرودة ليلًا هذه الأيام، أليس كذلك؟»

ردَّ برودسكي موافقًا إياه: «نعم.» ثم استأنف قضم البسكويت ببطء، فيما كان يتنفس من أنفه بصوت مسموع. داهمته أفكارُه الباطنية مرة أخرى: «خمسة آلاف على الأقل، وربما ستة أو سبعة، أو حتى عشرة آلاف.» أخذ سيلاس يتململ في كرسيه محاولًا تركيزَ أفكاره على موضوع يُثير الاهتمام. كان في حالة ذهنية جديدة وغير مألوفة له، وكان يُدرك ذلك على نحوٍ متزايد وغير مستساغ.

سأله قائلًا: «هل لك أيُّ اهتمام بالبستنة؟» كان سيلاس مهتمًّا بأزهار الفوشية بجانب الألماس وتأجير العقارات بالأسبوع.

ضحك برودسكي ضحكة فظة قائلًا: «هاتون جاردن هي أقرب ...» ثم صمت فجأة وأضاف: «أنا من لندن، كما تعلم.»

لم يفُت سيلاس ملاحظةُ قطع برودسكي المفاجئ لجملته في منتصفها، ولم يكن من الصعب عليه تفسير ذلك. فمن يحمل ثروة لا حصر لها بين طيات ملابسه عليه أن يتوخى الحذر فيما يقول.

ردَّ سيلاس في شرود: «نعم، ليست البستنة من هوايات أهل لندن.» وبعقل نصف واعٍ بدأ يُجري عملية حسابية سريعة. لنَقل إن قيمة ما يحمل خمسة آلاف جنيه، كم يكافئ هذا المبلغ في مجال تأجير العقارات بالأسبوع؟ كانت آخر مجموعة اشتراها من المنازل قد كلَّفته مائتين وخمسين جنيهًا للمنزل، وأجَّرها بقيمة عشرة شلنات وستة بنسات في الأسبوع. بهذا المعدل، كانت الخمسة آلاف جنيه تكافئ تأجير عشرين منزلًا بقيمة إيجارية عشرة شلنات وستة بنسات في الأسبوع — لنَقُل عشرة جنيهات في الأسبوع — أو جنيهًا وثمانية شلنات في اليوم، أو خمسمائة وعشرين جنيهًا في العام، مدى الحياة. كانت فرصة. وعند إضافة ذلك إلى ما كان يمتلكه بالفعل، صارت ثروة. وبهذا الدخل كان يمكنه أن يُلقيَ بأدوات عمله في النهر وأن يعيش ما تبقَّى من حياته هانئًا بالراحة والأمان.

اختلس نظرة متفحصة سريعة إلى ضيفه الجالس على الجانب الآخر من الطاولة، ثم أشاح بنظره سريعًا حين شعر بدافع يعتمل بداخله؛ دافع ذي طابع لم يكن من الممكن أن يُخطئَه. يجب أن يجتثَّ من عقله هذه الفكرة. فلطالما اعتبر الجرائم التي تستهدف الإنسان محض جنون. صحيح أنه قد سبق أن فعل ما فعل لذلك الشرطي في وايبريدج، ولكن لم يكن من الممكن توقُّعُ ما حدث ولا تجنُّبُه، وكان الذنبُ ذنبَ ذلك الشرطي على أي حال. ومدبرة المنزل العجوز في إيبسوم كذلك، ولكن بالطبع لو كانت تلك الحمقاء العجوز قد صرخت على هذا النحو الجنوني ... حسنًا، لقد كان حادثًا، حادثًا مؤسفًا للغاية، وأسفَ له

أشدَّ الأسف بكل تأكيد، ولا يمكن أن يكون هناك من هو أشدُّ أسفًا منه لتلك الواقعة. أما القتل العمد! السطو على شخص! معتوه مَن يأتي بفعلة كهذه.

بالطبع إذا شاءت الأقدار أن يكون هو هذا المعتوه، فها هي فرصته الذهبية قد سنحت. الغنيمة هائلة، والمنزل خالٍ، والحيُّ منعزل وبعيدٌ عن الطريق السريع وعن التجمعات السكنية الأخرى، والتوقيت مناسب، والظلام أسدل ستائرَه؛ لكن، بالطبع كان لا بد أن يفكر فيما سيفعل بالجثة؛ لطالما كانت العقبة الكبرى. ماذا يفعل بالجثة؟ عندئذٍ تناهى إلى سمعه صوتُ القطار السريع المتجه إلى العاصمة ينعطف في المنحنى الذي يفصل بين المنزل والأرض الخربة المتاخمة لجهته الخلفية. أطلق صوتُ القطار سلسلةً جديدة من الأفكار، وبينما كان يتتبع مسارها وتختمر في عقله، تركَّزت عيناه على برودسكي الذي كان قد خفتَ وعيُه وامتنع عن الكلام وجلس متأملًا يرتشف الويسكي. وبعد فترة، حاول خلالها جاهدًا تفادي النظر إليه، انتفض من كرسيه فجأة والتفت يتفقد الساعة التي تعلو المدفأة، ومدَّ يدَيه يُدفئهما بحرارة اللهب المحتضر. جاش بداخله فيضٌ من أحاسيس غريبة حثَّته على مغادرة المنزل. سرتْ به رعدةٌ طفيفة رغم شعوره بالسخونة، والتفت برأسه ونظر إلى الباب. قال وقد سرتْ به رعدةٌ طفيفة أخرى: «يبدو أن ثمة تيارَ هواء شديدًا. تُرى هل أغلقتَ الباب بإحكام؟» ذرع الغرفة سريعًا، وفتح الباب على مصراعيه، ونظر إلى الحديقة المظلمة. تملَّكتْه رغبةٌ مفاجئة وملحَّة في أن يخرج إلى الهواء الطلق وأن يبدأ الرحلة ويدعه من هذا الجنون الذي كان يطرق أبواب عقله.

قال: «أتساءل إن كان الوقت قد حان للانطلاق.» بينما أطلق نظرةَ تطلُّعٍ ولهفة إلى السماء الحالكة التي خلت من النجوم.

استفاق برودسكي من ثمالته ونظر حوله وسأله: «هل ساعتك مضبوطة؟»

ردَّ سيلاس بإيجاب مشوب بالتردد.

تساءل برودسكي: «كم من الوقت سوف يستغرق المشي من هنا إلى المحطة؟»

أجابه سيلاس مبالغًا في تقدير المسافة بلا سبب: «حوالي خمس وعشرين دقيقة إلى نصف ساعة.»

قال برودسكي: «حسنًا، لدينا أكثر من ساعة، والمكوث هنا أكثر راحةً من التسكع في المحطة، لا داعي للتحرك مبكرًا.»

ردَّ سيلاس موافقًا إياه: «لا داعي بالتأكيد.» وداهمت عقلَه موجةٌ أخرى من شعور غريب بين الندم والانتصار. وظل واقفًا على عتبة الباب للحظات يتأمل سواد الليل حالمًا. ثم أغلق الباب بلطف، وأدار المفتاح في ثقب الباب بلا صوتٍ وبحركة بدتْ لا إرادية.

عاد إلى كرسيه، وحاول أن يتجاذب أطرافَ الحديث مع برودسكي القليل الكلام، ولكن خرجت كلماتُه مبعثرةً وغير مترابطة. أحسَّ بحرارة متوهجة تجتاح وجهه، وأحسَّ عقله مزدحمًا ومتوترًا، وأحسَّ برنين حاد وخافت في أذنيه. لم يزل يراقب ضيفه باهتمام متجدد يشوبه بعضُ الخوف، ثم أشاح بنظره عنه بعدُ بمحض إرادته، لتُعاود عيناه بعد لحظات التركيزَ لا إراديًّا — بحدة أكبر هذه المرة — على ضيفه الغافل. وسرتْ في عقله الأفكارُ كموكب جنائزي مهيب، فساءل نفسه عما كان هذا الرجل الآخر — الذي أَلِف الدم والعنف — سيفعل لو كان مكانه. قطعة تلو الأخرى كوَّن عقلُه فسيفساء الجريمة، ورتب القِطَع معًا في أماكنها الصحيحة حتى تشكِّل تسلسلًا كاملًا من الأحداث، منطقيًّا ومترابطًا ومتماسكًا.

نهض من كرسيه متثاقلًا وعيناه لا تزالان مركِّزتَين على ضيفه. لم يتحمل البقاء جالسًا أمام هذا الرجل وهو يعلم أنه يحمل هذا الكنز المخبوء من الجواهر الثمينة. ولحظة بعد أخرى ضعفت قدرتُه على كبح الدافع الكامن بداخله الذي أدركه بخوف وتعجُّب؛ فإذا مكث مكانه، فسيغلبه هذا الدافع لا محالة وعندها سوف … ارتعد من الخوف من الفكرة المرعبة، لكن أصابعه تحرقت شوقًا للمس الألماس؛ فقد كان سيلاس، في النهاية، مجرمًا بطبعه وعادته. كان وحشًا كاسرًا. لم يكسب عيشَه بعرق الجبين قط، بل انتزعه انتزاعًا إما بالحيلة أو بالقوة إذا لزم الأمر. وقَرتْ غريزةُ الافتراس في تكوينه، وكان في قرب هذه النفائس السهلة المنال منه إشارة له بأن يستخلصها لنفسه بالحيلة أو الغيلة، كنتيجة منطقية. وسرعان ما تحوَّل حرصُه على ألا يُفلتَ هذا الألماس من يديه إلى رغبة كاسحة.

لكنه أراد أن يبذل محاولة أخرى للهرب. فقرر الابتعاد عن برودسكي حتى لحظة الانطلاق إلى المحطة.

قال له: «أستميحك عذرًا، سأستبدل بحذائي حذاءً آخر أثقل، فبعد كل هذه الفترة من الطقس الجاف قد يتغير الحال ويسقط المطر، وإذا ابتلَّ الحذاء أثناء السفر فلن يكون مريحًا تمامًا.»

وافقه برودسكي: «نعم، وخطيرًا كذلك.»

دلف سيلاس إلى المطبخ المجاور للغرفة، ورأى على ضوء المصباح الصغير المشتعل هناك حذاءه الطويل الرقبة نظيفًا وجاهزًا، فجلس على كرسي لتبديل الحذاء. قطعًا لم تكن نيتُه تبديلَ الحذاء؛ فقد كان يُخبئ ما لديه من ألماس في حذائه الذي كان ينتعله أصلًا. لكنه أراد تبديل الحذاء ثم انتعال الأول مجددًا، فقط للمساعدة في تمرير الوقت. أخذ نفَسًا عميقًا؛ فقد كان في خروجه من تلك الغرفة راحة له، على أي حال، ربما يتبدد الإغراء إذا

ظل بعيدًا. حينها سيمضي برودسكي في طريقه — تمنى ألا يكون هناك من سيرافقه — وينتهي الخطر على الأقل، وحينها أيضًا تفلت الفرصة من بين يديه؛ أي الألماس.

نظر إلى أعلى فيما كان يفك رباط حذائه ببطء. ومن موضعه رأى برودسكي جالسًا إلى الطاولة مديرًا ظهرَه لباب المطبخ. كان قد فرغ من الأكل وكان يقوم بلف سيجارة بتأنٍّ. تنفَّس سيلاس بعمق، وخلع فردة من حذائه، ثم جلس ساكنًا لبرهة محملقًا في ظهر الرجل الآخر. ثم حلَّ رباط الفردة الأخرى، ولم يزل يحملق في ضيفه الغافل، وخلعها من قدمه ثم وضعها بهدوء على الأرض.

فرغ برودسكي في هدوء من لف سيجارته، ثم لعق طرفها، ونحَّى حقيبته جانبًا، وبعد أن نفض بقايا التبغ عن ركبتيه، شرع يتحسَّس جيوبه بحثًا عن ثقاب. فجأة، هب سيلاس واقفًا، مستسلمًا لرغبةٍ عجز عن كبحها، وبدأ يتسلل خلسة عبر الممر المؤدي إلى غرفة الجلوس. لم يَصدر عن قدميه المكسوتين بالجوربين أيُّ صوت. وفي صمت تام تسلَّل نحو برودسكي كقطٍّ حذر بينما كان يتنفس بهدوء من بين شفتَيه المفتوحتين قليلًا، حتى وصل إلى عتبة الغرفة. امتقع وجهه، وجحظت عيناه اللتان التمعتَا في ضوء المصباح، وأخذ الدم المتسارع في رأسه يطنُّ في أذنيه.

قدح برودسكي عود ثقاب — لاحظ سيلاس أنه من النوع الخشبي القصير — وأشعل سيجارته، ثم أطفأ عود الثقاب بنفخة من فمه وألقاه في المدفأة. ثم أعاد علبة الثقاب إلى جيبه وأخذ يدخن.

ببطء وسكون، تسلَّل سيلاس إلى داخل الغرفة كالقطط خطوة بخطوة، حتى أصبح واقفًا وراء كرسي برودسكي، وصار قريبًا منه بشدة حتى إنه اضطُرَّ لإدارة رأسه بعيدًا حتى لا يبعثرَ زفيرُه شعرَ رأس برودسكي. وقف بلا حَراك لنصف دقيقة، كتمثال يرمز إلى القتل، وحملق بعينين مرعبتين لامعتين في تاجر الألماس الغافل، فيما تسارعت أنفاسُه الساكنة من فمه المفتوح، وتراقصت أصابعُه ببطء كلوامس حيوان مائي ضخم. وفي هذه اللحظة، تراجع إلى الباب بلا أدنى صوت واستدار وعاد إلى المطبخ مسرعًا.

أخذ نفَسًا عميقًا. لقد كان الأمر وشيكًا. كادت حياة برودسكي أن تنتهيَ. بدا الأمر سهلًا. لو أنه فقط كان يحمل سلاحًا عندما كان يقف خلف كرسيه؛ ربما مطرقة، أو حتى حجر …

أجال بصرَه سريعًا في المطبخ، فوقعت عيناه على قضيب معدني تركه العمال الذين أقاموا الصوبة الزراعية الجديدة. كانت قطعةً معدنية غريبة الشكل مقطوعة من قائمٍ مربع

الشكل من الحديد المطاوع، وكان طولُه نحو قدم، وعرضُه ثلاثة أرباع البوصة تقريبًا. لو كان هذا القضيب بيده منذ دقيقة فقط.

التقط القضيب المعدني وأخذ يَزِنُه في يده ويُديره حول رأسه. سلاح متين ولا يُصدر ضوضاء أيضًا. ويناسب الخطةَ التي رسمها في عقله. بئس الأمر! يستحسن أن يضع هذا الشيء جانبًا.

لكنه لم يفعل. توجَّه إلى الباب ونظر مرة أخرى إلى برودسكي الجالس في مكانه يتأمل كما هو يدخن، مديرًا ظهرَه إلى المطبخ.

فجأة تغيرت ملامحُ سيلاس. فتورَّد وجهه، وانتفخت عروق رقبته، وارتسم على وجهه عبوسٌ قميءٌ. أخرج ساعته وألقى نظرةً سريعة عليها، ثم أعادها مكانها. ثم تحرك بخطوات واسعة بسرعة وسكون عبر الممر ودلف إلى غرفة الجلوس.

على بُعد خطوة من كرسي ضحيته توقَّف وصوَّب. رُفع القضيب عاليًا فأصدر صوتًا خافتًا، استدار برودسكي سريعًا عندما أصدر اختراقُ القضيب المعدني للهواء صفيرًا. شتتت الالتفاتةُ تصويبَ القاتل، فانحرف القضيبُ واحتكَّ برأس الضحية فحسب، فجرحه جرحًا طفيفًا. انتفض برودسكي مرتجفًا وأطلق صيحة مرتعشة ثاغية، وأمسك بذراع مهاجمه بشراسة المذعور من الموت.

واندلع عراكٌ شرس بين الرجلين، وتلاحمَا بعنف وتمايلَا يمنةً ويسرةً وتعثَّرَا إلى الأمام والخلف. سقط الكرسيُّ أرضًا، وانقلبت كأسٌ فارغة من فوق الطاولة، وتهشمت نظارة برودسكي تحت أقدامهما. وللمرة الثالثة قطعت الصرخةُ المخيفة البائسة الثاغية سكونَ الليل، فارتعب سيلاس — برغم نوبة الهياج القاتل التي انتابته — خشيةَ أن تتناهى الصرخات إلى سمْع أحد المارة. استجمع سيلاس كلَّ قواه في محاولة أخيرة للتخلص منه، ودفع ضحيته إلى الخلف على سطح الطاولة، ثم سحب طرف مفرش الطاولة، فغطَّى به وجه برودسكي وأقحمه في فمه الذي كان مفتوحًا لإطلاق صرخة أخرى. بقيَا على هذا الوضع لدقيقتين كاملتين بلا حَراك تقريبًا في مشهد مأساوي. وعندما خمدت ارتجافات الموت الخافتة الأخيرة، أفلت سيلاس قبضته وترك برودسكي ينزلق من الطاولة إلى الأرض، جثةً هامدة.

انتهى الأمر. لصالح الخير أو الشر، انتهى. وقف سيلاس يتنفس بصعوبة ويمسح عرقه، ثم تفقد الساعة. السابعة إلا دقيقة واحدة. لم يستغرق الأمر كلُّه سوى ثلاث دقائق أو أكثر قليلًا. كان لديه ما يقرب من ساعة لاستكمال المهمة. مرَّ قطار الشحن، مقتحمًا

مخططه، في الساعة السادسة وعشرين دقيقة، ولم تكن المسافة إلى خط السكة الحديدية تتجاوز ثلاثمائة ياردة. ولكن كان عليه ألا يُضيعَ الوقت. كان الآن متمالكًا نفسَه تمامًا، ولم يُزعجه إلا احتمال أن تكون صرخات برودسكي قد تناهت إلى سمْع أحدِ المارة. إذا لم يكن أحدٌ قد سمعها، فكلُّ شيء على ما يرام.

انحنى سيلاس وسحب مفرش الطاولة برفق من بين أسنان جثةِ برودسكي، وطفق يفتش جيوبه بعناية. لم يمرَّ وقتٌ طويل قبل أن يجد ضالته. عندما قبضت يدُه على الحزمة الورقية وشعر بالأحجار الصلبة الصغيرة يحتك بعضُها ببعض بالداخل، خبَا ندمُه الباهت على ما جرى للتوِّ، وأخذ يُهنِّئ نفسه.

بدأ سيلاس الآن في مهمته بحيوية جادة، وعينين لا تغفلان عن متابعة الساعة. تلطخ مفرش الطاولة ببضع قطرات كبيرة من الدماء، وتلطخت سجادة الغرفة ببقعة صغيرة من الدم الذي انسال من رأس برودسكي. جلب سيلاس من المطبخ بعضَ الماء وفرشاة وقطعة قماش جافة، فمسح البقع عن مفرش الطاولة، وسطح الطاولة نفسه، وأزال بقعة الدم عن السجادة، وفرك الأماكن المبتلة وجففها، ثم وضع ورقة تحت رأس الجثة لمنع اتساع مساحة الاتساخ. ثم أعاد مفرش الطاولة إلى مكانه على سطحها، وعدل الكرسي الذي كان العراك قد أطاح به أرضًا، ووضع النظارة المهشمة على الطاولة والتقط السيجارة التي داستها أقدامهما وألقى بها تحت شبكة المدفأة. ثم كنس ما تخلَّف عن الكأس والنظارة المهشمتين من بقايا زجاج ووضعها على جاروف، ثم صبَّ محتويات الجاروف على ورقة وتفحَّصها بعناية، ثم التقط الأجزاءَ الكبيرة الحجم التي يمكن تمييزُها من زجاج النظارة ونحَّاها جانبًا على ورقة أخرى بما عَلِق بتلك الأجزاء الكبيرة من شذرات زجاجية دقيقة. وأعاد ما تبقَّى من الزجاج إلى الجاروف، وبعد أن انتعل حذاءَه على عجل، حمل الجاروف بما عليه إلى كومة القمامة القابعة خلف منزله.

حان وقت الانطلاق. قطع سيلاس قطعة من الخيط من علبة الخيوط الخاصة به على عجل — إذ كان رجلًا منظمًا يستاء لرؤية بقايا الخيوط التي يلجأ إليها الكثير من الناس لتدبُّر أمرهم بها — وربطها بحقيبة برودسكي ومظلته وعلقهما على كتفه. ثم طوى الورقة التي تحتوي قطع الزجاج المهشم ووضعها هي وإطار النظارة المحطمة في جيبه، ثم حمل الجثة على كتفه. كان برودسكي صغيرَ الحجم ونحيلًا، لا يتعدَّى وزنُه سبعة وخمسين كيلوجرامًا؛ فلم يكن حملُه صعبًا على رجل ضخم ورياضي مثل سيلاس.

كان الظلام حالكًا، وعندما نظر سيلاس من البوابة الخلفية إلى الأرض الخربة التي امتدت من منزله إلى خط السكك الحديدية، لم يمتدَّ بصرُه لأكثر من عشرين ياردة. وبعد

أن أصاخ السمع ولم يتناهَ إلى مسامعه أيُّ صوت، خرج وأقفل البوابة وراءه بهدوء وانطلق يحث الخُطَى على الأرض الوعرة بدون أن يتخلَّى عن الحذر. لم يكن سيرُه هادئًا مثلما تمنَّى؛ فعلى الرغم من أن تجمعات العشب المتناثرة على الأرض الحصوية كانت كثيفة بما يكفي لامتصاص صوت خطواته، أصدرت الحقيبة والمظلة المتأرجحتان ضوضاء مزعجة، بل أعاقتَا سيره أكثر من الحِمل الأثقل الملقى على كتفه.

كانت المسافة إلى شريط السكك الحديدية نحو ثلاثمائة ياردة. في الظروف الطبيعة كان سيقطعها سيرًا في ثلاث دقائق أو أربع، أما الآن، وهو يسير بحذر بهذا الثقل ويتوقف بين الفينة والأخرى ليرهف السمع، فقد استغرق ستَّ دقائق للوصول إلى السياج المكون من ثلاثة قضبان متوازية الذي كان يفصل الأرض الخربة عن السكك الحديدية. وحين وصل توقَّف للحظة ليرهف السمع مجددًا محملقًا في الظلام المخيم على جميع الأرجاء من حوله. لم يرَ أو يسمعْ في هذه البقعة النائية صوتًا لكائنٍ حي أيًّا كان، لكن جاءه من بعيدٍ صوتٌ خافت لصفير محرك يحثُّه على الإسراع.

تسلَّق السياج حاملًا الجثة بيسر، وحملها لبضع ياردات أخرى حتى وصل إلى نقطةٍ انعطف فيها قضيبُ القطار انعطافًا حادًّا. وعند هذه النقطة أسجى الجثة على وجهها، ووضع الرقبة على القضيب القريب. ثم سحب سكينه من جيبه، وقطع عقدة الخيط التي كانت تُثبت المظلة والحقيبة أيضًا بالخيط، وبعد أن ألقى المظلة والحقيبة على قضيب القطار بجانب الجثة، أعاد الخيط إلى جيبه بحرص، عدا الأنشوطة الصغيرة التي سقطت على الأرض وهو يقطع العقدة.

اقترب هديرُ قطار بضائع صاخب مقبل عليه حتى أصبح مسموعًا. فأسرع سيلاس يُخرج إطار النظارة المحطمة من جيبه ورماه بالقرب من رأس برودسكي، وأخذ حزمة الزجاج المهشم فأفرغها في يده ثم نثرها حول النظارة.

لم يكن لديه متسعٌ من الوقت، فصوتُ محرك القطار القادم بدا قريبًا. كان أول ما خطر بباله أن ينتظر ويراقب ما سيحدث، ليشهد بنفسه الكارثة الأخيرة التي ستحوِّل جريمةَ القتل إلى حادث أو انتحار. لكن ذلك لم يكن آمنًا، فمن الأفضل ألا يكون قريبًا من المكان خشية ألا يستطيع الفرار بفعلته. فتسلق السياج عائدًا على عجل وحث الخُطَى عبر الحقول الوعرة، بينما اقترب القطار من المنعطف مزمجرًا.

لم يكد يصل إلى البوابة الخلفية حتى جاءه صوتٌ من خط السكك الحديدية استوقفه فجأةً؛ كان صوتَ صفيرٍ طويل مصحوبًا بصوت احتكاك المكابح وصليل اصطكاك العربات المرتفع. توقفتْ زمجرةُ المحرك وحلَّ محلَّها فحيحُ البخار المندفع الحاد.

توقف القطار!

للحظة خاطفة وقف سيلاس متحجرًا وانقطعت أنفاسُه وفتح فمه في ذهول، ثم أسرع إلى البوابة بخُطًى واسعة ودخل وأغلق المزلاج بهدوء. داهمه قلقٌ شديد لا يخفى. ما الذي حدث على شريط السكة الحديد؟ لا شك أن أحدهم رأى الجثة؛ لكن ترى ماذا يجري الآن؟ هل سيأتون إلى المنزل؟ دلف إلى المطبخ، وبعد أن توقَّف مجددًا ليستمع — لربما يطرق أحدٌ الباب في أي لحظة — أخذ يتمشى في غرفة الجلوس وينظر حوله. بدا كلُّ شيء مرتبًا في الغرفة. لكن القضيب المعدني كان في المكان الذي سقط فيه خلال العراك. التقطه وتفحَّصه على ضوء المصباح. لا دماءَ عليه، فقط شعرة أو اثنتان. مسحه بغطاء الطاولة بذهن شارد إلى حدٍّ ما، ثم خرج عبر المطبخ في طريقه إلى الحديقة الخلفية، فألقى به من فوق السور داخل حوضٍ لنباتات القراص. لم يكن القضيب في حدِّ ذاته دليلَ إدانة، ولكن نظرًا لأنه استخدمه كسلاح، فقد أصبح في عينيه الآن نذيرَ شؤم.

رأى أن من المناسب الآن أن ينطلق إلى المحطة على الفور. لم يَحِن الوقتُ بعدُ؛ إذ كانت الساعة السابعة وخمسًا وعشرين دقيقة، ولكنه لم يشأ أن يُوجَد بالمنزل حال مجيء أحدٍ. كانت قبعته الخفيفة على الأريكة بجوار حقيبته، التي كانت مظلته مربوطةً بها. اعتمر قبعته، وأخذ الحقيبة واتجه نحو الباب، ثم عاد أدراجه ليُطفئَ المصباح. وفي هذه اللحظة، وبينما كان يهمُّ برفع يده نحو شعلة المصباح ليُطفئَها، إذ بعينيه — اللتين كانتَا تجولان دون قصدٍ عبر ركن الغرفة الخافت الإضاءة — تقعان على قبعة برودسكي الرمادية المصنوعة من اللباد، قابعةً على الكرسي حيث تركها عندما دخل المنزل.

وقف سيلاس متحجرًا من الرعب لبضع لحظات، بينما طفرت من جبهته قطراتٌ من عرق بارد من فرط الخوف. فقد كاد يُطفئ المصباح ويمضي في طريقه؛ وحينئذٍ أسرع نحو الكرسي، ونتش القبعة وتفقَّدها من الداخل. نعم، ها هو الاسم، «أوسكار برودسكي»، مكتوب على البطانة بوضوح. لو ذهب تاركًا إياها تُكتشف، لانتهى أمرُه بالتأكيد؛ وحتى في هذه اللحظة، لو داهمت المنزل فرقةُ تفتيش، لوجدت ما يكفي لإرساله إلى المشنقة.

ارتعدتْ أطرافه من الذعر لمجرد تخيُّل الفكرة، بيدَ أن هلعه لم يُفقده ثباتَه ورباطة جأشه. فانطلق إلى المطبخ وجلب حفنةً من الحطب الجاف الذي كان يحتفظ به لإشعال النار، وأخذه إلى المدفأة ورماه على بقايا الجمرات التي كادت تنطفئ ولكنها كانت لا تزال ساخنة، وبعد أن غضَّنَ الورقة التي كان قد وضعها تحت رأس برودسكي — والتي لاحظ لأول مرة أنها ملطخةٌ ببقعة صغيرة من الدم — دسَّها تحت الحطب، وقدَح عود ثقاب

وأشعله فيه. وبينما اشتعل الحطب، أعمل سكينَه في القبعة فقطَّعها إلى قِطَع مهترئة ثم رمى القِطَع المحززة بين ألسنة اللهب.

طوال هذا الوقت كان قلبُه يخفق بعنف ويداه ترتعشان خوفًا من افتضاح أمره. لم تكن شرائح اللباد قابلةً للاحتراق على النحو المتوقع، بل تحوَّلت إلى كُتَل مشتعلة ينبعث منها الدخان وتنبض بالنار بدلًا من أن تتحول إلى رماد. والأسوأ أنها أصدرت رائحةً صمغية كريهة وقوية مختلطة برائحة احتراق شعر آدمي. فزاد هلعُه، واضطُرَّ إلى فتح نافذة المطبخ؛ (إذ لم يجرؤ على فتح الباب الأمامي) لطرد الرائحة. ومع ذلك، استمر في رمي شرائح اللباد المهترئة في النار، بينما أرهف السمع بقوة لعله يتجاوز قرقعة الحطب المشتعل ويسمع الخُطَى المرعبة أو طرْق الباب قادمين بالمصير المحتوم.

كان الوقت أيضًا يمضي متسارعًا. فكانت عقاربُ الساعة تُشير إلى الثامنة إلا إحدى وعشرين دقيقة! يجب أن ينطلق في غضون دقائق قليلة وإلا فاته القطار. ألقى بحافة القبعة البالية وسط الحطب الملتهب وركض إلى الطابق العلوي لفتح نافذة بديلة عن نافذة المطبخ التي لا يمكنه تركُها مفتوحة عند مغادرته. وعندما عاد إلى الأسفل كانت النار قد أحالت حافة القبعة كتلةً سوداء محترقة تفور وتُصدر صوتَ هسيس، مع تصاعد ألسنة من الدخان الكثيف الخانق الرائحة ببطء إلى المدخنة.

الثامنة إلا تسع عشرة دقيقة! حان وقت الانطلاق. أمسك قضيب المدفأة وطرق به بعناية على البقايا المحترقة لتفتيتها إلى قطع أصغر، مقلبًا إياها بين جمرات الحطب والفحم المتقدة. بدا شكل شبكة المدفأة طبيعيًّا. فلطالما اعتاد التخلص من الخطابات وغيرها من المهملات بحرقها في مدفأة غرفة الجلوس؛ ولن تلاحظ مدبرة المنزل شيئًا خارجًا عن المألوف. بل ربما تتحول القطع المحترقة إلى رماد قبل عودتها، وقد حرص على البحث عن أي قطع معدنية من أي نوع ربما كانت في القبعة وأفلتت من الاحتراق.

أخذ حقيبته مجددًا، وألقى نظرة أخيرة على المكان من حوله، وأطفأ المصباح، وفتح الباب، وتركه مفتوحًا للحظات، ثم خرج، وأغلقه وراءه، وأودع في جيبه المفتاح (الذي كان لدى مدبرة المنزل نسخةٌ منه)، وانطلق يَحُثُّ الخُطَى إلى المحطة.

وصل المحطة في الوقت المناسب رغم كلِّ ذلك، وبعد أن قطع تذكرته، أخذ يتمشى على رصيف المحطة، لم يُعلَن عن وصول قطاره بعدُ، ولكن بدا أن ثمة جلبةً غير معتادة في المكان. كان الركَّاب محتشدين في أحد طرفي الرصيف، وكانوا جميعًا ينظرون في اتجاه واحد من خط السكة الحديد، وبينما كان يسير نحوهم بفضول مشوبٍ بالرهبة إلى حدِّ الغثيان،

برز رجلان من الظلام وصعدَا على رصيف المحطة يحملان نقالة مغطاة بقطعة من المشمع. تفرَّق الركاب لإفساح المجال لمرور حاملَي النقالة، بينما أرسلوا نظراتِهم المندهشة تستشفُّ ملامح الشكل الذي كان ظاهرًا بالكاد من الغطاء الخشن، وعندما حُمِلت الجثة إلى غرفة الإشارة، ركَّز الركابُ انتباهَهم على حمَّالٍ تَبِع حاملَي النقالة حاملًا حقيبةَ يدٍ ومظلة.

فجأةً اندفع أحدُ الركاب إلى الأمام صائحًا.

تساءل قائلًا: «أهذه مظلته؟»

توقَّف الحمَّال وثبَّتَها ليتفحصها السائل ثم أجابه: «نعم يا سيدي.»

صاح الراكب: «يا إلهي!» ثم استدار بحدَّة نحو رجل طويل القامة على مقربة منه قائلًا بانفعال: «هذه مظلة برودسكي. أُقسم على ذلك. أتتذكر برودسكي؟» أومأ الرجل الطويل موافقًا، والتفت الرجل مرة أخرى إلى الحمَّال مخاطبًا إياه: «أعرف هذه المظلة. صاحبُها رجلٌ يُدعى برودسكي. وإذا نظرت في قبعته فستجد اسمه مكتوبًا عليها. إنه يكتب اسمه على قبعته دائمًا.»

ردَّ الحمَّال: «لم نجد قبعته بعدُ، لكن ها هو ناظر المحطة قادم نحونا.» والتفت إلى رئيسه وأخبره قائلًا: «سيدي، لقد تعرَّف هذا السيد على المظلة.»

قال ناظر المحطة: «أتعرف هذه المظلة حقًّا يا سيدي؟ إذن، ربما يمكنك الدخولُ إلى غرفة الإشارة للتعرف على الجثة.»

تساءل الراكب مضطربًا: «هل ... هل الإصابات بالغة؟»

فجاءَه الردُّ: «في الحقيقة، نعم. لقد دهسته القاطرة ثم ستٌّ من العربات قبل أن يتمكنوا من إيقاف القطار. لقد انفصل رأسُه تمامًا في الحقيقة.»

لهث الراكب قائلًا: «يا لها من صدمة! يا لها من صدمة! أعتقد أنني أُفضِّل ... إذا لم تُمانع ... أُفضِّل ألا أراه هكذا.» ثم خاطب الرجل الطويل: «أظنك لا ترى ذلك ضروريًّا يا دكتور، أليس كذلك؟»

أجابه الرجل الطويل: «لا، هذا أمر ضروري. فالتعرف على الجثة مبكرًا قد يكون أولوية قصوى.»

فقال الراكب: «إذن! لا مفر.»

على مضضٍ شديد، صحب الراكبُ ناظرَ المحطة إلى غرفة الإشارة، بينما قُرع الجرس للإعلان عن القطار المقترب. تبِع سيلاس هيكلر الحشدَ المترقب واتخذ موضعه أمام الباب المغلق. وفي غضون لحظات معدودة، خرج الراكب مسرعًا وقد ارتسم الشحوبُ والهلع

على ملامحه، وهُرع إلى صديقه الطويل وصاح بأنفاس متقطعة: «إنه هو! هو برودسكي، برودسكي المسكين! شيء فظيع! فظيع! كان من المفترض أن يُقابلَني هنا لنذهب معًا إلى أمستردام.»

سأله الرجل الطويل: «هل كان معه أي ... أيُّ بضاعة؟» فأصغى سيلاس ليسمع الردَّ.

ردَّ الراكب: «كان معه بعضُ الأحجار، لا شك، لكن لا أعلم من أيِّ نوع. مساعدُه يعلم بالتأكيد. بالمناسبة يا دكتور، هلَّا فحصت الجثة؟ فقط لنتأكد أنه كان حادثًا وليس ... شيئًا آخر. لقد كنا صديقين قديمين، ومن مدينة واحدة كذلك؛ كلانا وُلد في وارسو. أودُّ منك أن تُلقيَ نظرة على الجثة.»

ردَّ الطبيب: «حسنًا. سأُلقي نظرة، وسأفترض أن ما يُخبرني به الشكل الظاهري هو الحقيقة، ثم أعطيك تقريري. أيكفي ذلك؟»

«شكرًا جزيلًا، هذا كرمٌ بالغ منك يا دكتور. آه! ها هو القطار آتٍ. أتمنَّى ألا يُزعجَك المكوثُ هنا والاهتمام بهذا الأمر.»

أجاب الطبيب: «إطلاقًا، موعدُنا في وورمينجتون بعد ظهر الغد، وأتوقع أن نتمكَّن من معرفة كلِّ التفاصيل الضرورية قبل ذلك الحين.»

أطال سيلاس النظرَ بفضول بالغ إلى الرجل الطويل ذي الطلة المهيبة، الذي كان، فيما يبدو، على وشك أن يتخذ مقعد الخصم أمامه فيما هو أشبه بمباراة في الشطرنج، ثمنُ الخسارة فيها حياتُه. بدا الرجل خصمًا عنيدًا ذا وجه حادِّ الملامح متأمل، تنطق هيئتُه بأمارات الإصرار والهدوء. عندما استقل سيلاس عربةَ القطار، شرد ذهنه إلى قبعة برودسكي فاعتراه قلقٌ بالغ، وتمنَّى ألا يكون قد أغفل شيئًا آخر غير تلك القبعة.

الجزء الثاني

آلية كشف الجريمة

يرويها د. كريستوفر جيرفيز

أبرزت الملابساتُ الاستثنائية المحيطة بوفاة السيد أوسكار برودسكي، تاجر الألماس الشهير في هاتون جاردن، بقوة، أهميةَ عاملٍ أو عاملين في الطب الشرعي لطالما أصرَّ ثورندايك على أنهما لا يلقيان تقديرًا كافيًا. وسأترك لصديقي ومعلمي مهمةَ توضيحِ هاتين النقطتين في الموضع المناسب؛ ونظرًا لأن هذه القضية ذات طابع إرشادي في المقام الأول، فسأسجل الوقائع بترتيب حدوثها.

كانت شمسُ أحد أيام شهر أكتوبر موشكةً على المغيب عندما كنت أنا وثورندايك وحدنا في المقصورة المخصصة للتدخين على متن القطار، ووجدنا القطار يقترب من محطة لودهام الصغيرة، ومع تباطؤ سرعته نظرنا من النافذة إلى حشدِ الريفيين المنتظرين على رصيف المحطة. صاح ثورندايك متفاجئًا: «عجبًا، إنه بوسكوفيتش بلا شك!» وفي اللحظة نفسها تقريبًا، اندفع من باب مقصورتنا رجلٌ رشيق الحركة ضئيل الجسد فتعثَّر وسقط أرضًا من فرط الحماس.

صافحهما الرجل في ودٍّ ووضع حقيبته بعنفٍ مدوٍّ داخل الرف ثم قال: «أتمنى ألا تعتبراني متطفلًا على خلوتكما، لكني رأيتُ وجهيكما من النافذة واندفعتُ تلقائيًّا لاغتنام الفرصة للانضمام إلى هذه الصحبة الكريمة.»

ردَّ ثورندايك: «هذا لطفٌ بالغ منك، حتى إنك لم تترك لنا شيئًا نقوله. ولكن ماذا تفعل في ... ما اسم البلدة؟ لودهام؟»

قال السيد بوسكوفيتش موضحًا: «إن أخي يمتلك بيتًا صغيرًا على بُعد ميل تقريبًا من هنا، وقد أمضيت معه بضعة أيام. سأغيِّر الخط في محطة بادشام وأستقل القطار المؤدي إلى المركب المتوجه إلى أمستردام. ولكن إلى أين تتجهان؟ أرى حقيبتك الخضراء الصغيرة الغامضة على رفِّ القبعات، هل يعني ذلك أنك ذاهب في إحدى مغامراتك الرومانسية؟ في طريقك لكشف غموض جريمة معقدة؟»

أجابه ثورندايك: «نحن متجهان إلى وورمينجتون في مهمة عادية تمامًا. أنا مكلَّف بمتابعة إجراءات تحقيق هناك بالغد ممثِّلًا عن مكتب جريفين للتأمين على الحياة، ونحن مسافران الليلة لأنها رحلة بين الضواحي.»

سأل بوسكوفيتش وهو ينظر إلى أعلى نحو رفِّ القبعات: «ولكن لماذا اصطحبت حقيبتك السحرية؟»

أجاب ثورندايك: «لا أغادر البلدة أبدًا بدونها. فربما يطرأ شيء ما؛ ووجود ما قد يلزمني من محتوياتها معي حالَ حدوث أيِّ طارئ يمنحني شعورًا بالراحة يعوضني عن عبء حملِها.»

واصل بوسكوفيتش التحديقَ في الحقيبة الخضراء المربعة الصغيرة المغطاة بطبقة قماشية مقاومة للماء. وبعد قليل أشار قائلًا: «لطالما تساءلتُ عما تحمله فيها عندما كنتَ في تشيلمزفورد للتحقيق في جريمة القتل التي وقعت في المصرف؛ كانت قضيةً مدهشة بالمناسبة، وكم أثارت طرقُكَ في التحري دهشة الشرطة حينها!» وبينما لم يزل نظرُه معلقًا بالحقيبة، أنزلها ثورندايك بتلقائية وفتح قفلها. كان فخورًا «بمختبره المتنقل»، وفي حقيقة الأمر كانت نموذجًا ناجحًا للتكثيف؛ فبقدر صغر حجمها — إذ كان عمقها لا يتجاوز قدمًا مربعة في أربع بوصات فحسب — فقد احتوت كلَّ ما يتطلبه إجراءُ تحقيق مبدئي من أدوات.

فتح ثورندايك الحقيبة أمام بوسكوفيتش، كاشفًا عمَّا بها من صفوف من زجاجات الكواشف الصغيرة، وأنابيب اختبار صغيرة للغاية، ومصباح كحولي صغير للغاية، ومجهر صغير أيضًا، وتشكيلة من الأدوات الأخرى بالحجم الصغير نفسه، فقال بوسكوفيتش متعجبًا: «رائع! إنها أشبه بمنزل للدُّمَى، كلُّ شيء يبدو كما لو كان يُرى من الطرف الخطأ لمجهر. ولكن هل هذه الأشياء الصغيرة فعالة حقًّا؟ هذا المجهر مثلًا …»

قاطعه ثورندايك: «فعَّال تمامًا عند الحاجة إلى التكبير بدرجة منخفضة أو متوسطة. يبدو كدُمْية، لكنه ليس كذلك؛ فعدساتُه من أفضل ما يمكن. لا شك أن جهازًا بالحجم

الطبيعي سيكون أكثرَ ملاءمة بكثير، لكن لا ينبغي أن أحمله معي على الدوام، وعليَّ أن أتدبر أمري بعدسة جيب. وهكذا الحال بالنسبة إلى بقية هذه الأدوات الصغيرة؛ فهي أفضل من ألا تُتاحَ لي أيُّ أدوات على الإطلاق.»

تفحص بوسكوفيتش الحقيبة ومحتوياتها بعناية، وأخذ يلمس الأدوات بأصابعه بحذرٍ، ويطرح أسئلةً لا حصر لها عن استخداماتها، ولم يكن فضوله قد أُشبع بعدُ عندما بدأ القطار يبطئ تدريجيًّا بعد نصف ساعة.

صاح بوسكوفيتش متعجبًا وقد هبَّ واقفًا وأمسك حقيبته: «يا إلهي! لقد وصلنا إلى المحطة بالفعل. ستُغيران الخط هنا أيضًا، أليس كذلك؟»

ردَّ ثورندايك: «نعم، سنستقل القطار الفرعي المتجه إلى وورمينجتون.»

عندما ترجلنا من القطار، أدركنا أن شيئًا غريبًا يحدث أو حدث بالفعل. فقد كان كلُّ الركاب ومعظم الحمَّالين والمتفرجين الآخرين مجتمعين في أحد أطراف المحطة، وكان الجميع ينظر باهتمام نحو الظلام عبر شريط السكك الحديدية.

تساءل السيد بوسكوفيتش مخاطبًا مفتش المحطة: «هل من مشكلة؟»

ردَّ المفتش: «نعم يا سيدي، دهس قطارُ نقل البضائع رجلًا على بُعد ميل على القضبان. وقد ذهب ناظر المحطة لإحضاره على نقالة، وأعتقد أن المصباح الذي ترى ضوءه مقبلًا نحونا هناك هو مصباحه.»

وبينما وقفنا نشاهد الضوء المتراقص يزداد سطوعًا من لحظة لأخرى ويُرسل انعكاسات متقطعة من القضبان المصقولة البراقة، خرج رجل من مكتب حجز التذاكر وانضم لحشد المتابعين. جذب الرجل انتباهي لسببين تذكرتُهما في وقت لاحق: الأول هو وجهه المستدير البشوش الذي بدا شاحبًا للغاية وارتسم عليه تعبيرٌ متوتر وعنيف، والثاني أنه لم يطرح أيَّ أسئلة رغم أنه كان يحملق في الظلام بفضول شديد.

استمر اقترابُ المصباح المتراقص، وفجأة برز للعيان رجلان يحملان نقالة مغطاة بمشمع أمكن من خلاله تمييز شكل جسم إنسان وإن كان بصعوبة ودون ملامح واضحة. صعد الرجلان إلى الرصيف وتابعَا المسير حاملين النقالة إلى غرفة الإشارة، بينما تحولت نظراتُ الركاب الفضولية إلى حمَّال كان يتبعهما حاملًا حقيبةَ يدٍ ومظلة، وإلى ناظر المحطة الذي كان سائرًا في المؤخرة يحمل مصباحه.

وبينما مرَّ الحمَّال، اندفع السيد بوسكوفيتش إلى الأمام بانفعال مفاجئ.

تساءل: «أهذه مظلته؟»

توقف الحمَّال وثبَّتها ليتفحصها السائل ثم أجابه: «نعم يا سيدي.»

صاح بوسكوفيتش: «يا إلهي!» ثم استدار بحدة نحو ثورندايك وصاح بانفعال: «هذه مظلة برودسكي. أُقسم على ذلك. أتتذكر برودسكي؟»

أومأ ثورندايك موافقًا، فالتفت بوسكوفيتش مرة أخرى إلى الحمَّال قائلًا: «أعرف هذه المظلة. صاحبها رجلٌ يُدعى برودسكي، وإذا نظرتَ في قبعته فستجد اسمه مكتوبًا عليها. إنه يكتب اسمه على قبعته دائمًا.»

رد الحمَّال: «لم نجد قبعته بعدُ، لكن ها هو ناظر المحطة قادم نحونا.» والتفت إلى رئيسه وأخبره قائلًا: «سيدي، لقد تعرَّف هذا السيد على المظلة.»

قال ناظر المحطة: «أتعرف هذه المظلة حقًّا يا سيدي؟ إذن، ربما يمكنك الدخولُ إلى غرفة الإشارة للتعرف على الجثة.»

تراجع بوسكوفيتش وقال مضطربًا: «هل الجثة … هل هو … هل إصابته بالغة؟»

فجاءه الردُّ: «في الحقيقة، نعم. فقد دهسته القاطرة ثم ستٌّ من العربات قبل أن نتمكن من إيقاف القطار. لقد انفصل رأسُه تمامًا في الواقع.»

لهث بوسكوفيتش: «يا لها من صدمة! يا لها من صدمة! أعتقد أنني أفضِّل … إذا لم تمانع … أفضِّل ألا أراه هكذا.» ثم خاطب ثورندايك قائلًا: «أظنك لا ترى ذلك ضروريًّا يا دكتور، أليس كذلك؟»

أجابه ثورندايك: «هذا أمر ضروري بالفعل، فالتعرف على الجثة مبكرًا قد يكون بالغَ الأهمية.»

فقال بوسكوفيتش: «إذن! لا مفر.» وعلى مضضٍ شديد، تبِع بوسكوفيتش ناظرَ المحطة إلى غرفة الإشارة، بينما دوى الجرس عاليًا للإعلان عن قرب وصول القطار المؤدي إلى الميناء. لا بد أن فحْصَه للجثة كان سريعًا جدًّا؛ فقد خرج مندفعًا بعد لحظات معدودة شاحبًا وواجمًا وهرع إلى ثورندايك.

صاح بأنفاس متقطعة: «إنه هو! هو برودسكي، برودسكي المسكين! شيء فظيع! فظيع! كان من المفترض أن يقابلَني هنا لنذهب معًا إلى أمستردام.»

سأله ثورندايك: «هل كان معه أي … أيُّ بضاعة؟» وبينما كان يتحدث، اقترب الغريبُ الذي لاحظته من قبل أكثر كمَن يريد أن يسمع الرد.

أجاب بوسكوفيتش: «كان معه بعضُ الأحجار، لا شك في ذلك، لكن لا أعلم من أيِّ نوع. مساعدُه يعلم بالتأكيد. بالمناسبة يا دكتور، هلَّا تفحصت الجثة؟ فقط لنتأكد أنه كان حادثًا وليس … شيئًا آخر. كنَّا صديقين قديمين، ومن مدينة واحدة كذلك، كلانا وُلد في وارسو. أودُّ منك أن تُلقيَ نظرة على الجثة.»

أجاب الطبيب: «حسنًا. وسأفترض أن ما يُخبرني به الشكلُ الظاهري هو الحقيقة، ثم أعطيك تقريري. أيكفي ذلك؟»

أجابه بوسكوفيتش: «شكرًا جزيلًا. هذا كرمٌ بالغ منك يا دكتور. آه، ها هو القطار آتٍ، أتمنى ألا يُزعجك المكوث هنا والاهتمام بهذا الأمر.»

ردَّ ثورندايك: «إطلاقًا. موعدنا في وورمينجتون بعد ظهر الغد، وأتوقع أن نتمكن من معرفة كلِّ التفاصيل الضرورية قبل ذلك الحين وألا يفوتَنا الموعد.»

بينما كان ثورندايك يتحدث، رمق الغريب، الذي ظل قريبًا منَّا وكان من الواضح أنه يحاول أن يسمع ما يقال، ثورندايك بنظرة متفحصة فضولية، وانتظر مكانه حتى توقف القطار تمامًا على رصيف المحطة ثم انطلق إليه ليجدَ لنفسه عربة.

ما إن غادر القطار المحطةَ حتى بحث ثورندايك عن ناظر المحطة وأخبره بالتعليمات التي تلقَّاها من بوسكوفيتش، وأضاف مختتمًا حديثه: «بالطبع يجب ألا نفعل شيئًا بهذا الشأن حتى وصول الشرطة. أعتقد أنكم أبلغتموهم، صحيح؟»

أجاب ناظر المحطة: «نعم. لقد أرسلتُ رسالة على الفور إلى رئيس الشرطة، وأتوقع مجيئه هو أو أحد مفتشي الشرطة في أي لحظة. في الحقيقة، أعتقد أنني سأتسلَّل إلى الممر وأرى إن كان قادمًا.» كان واضحًا أنه يريد أن يتحدث إلى ضابط الشرطة على انفراد قبل أن يُدليَ بأيِّ أقوال.

عندما غادر ناظر المحطة، بدأت أنا وثورندايك في التجول على رصيف المحطة الذي كان قد خلَا من الركاب، وأخذ صديقي يستعرض ملامح القضية متأملًا، كدأبِه دائمًا عند الدخول في تحقيق جديد.

قال ثورندايك: «في قضيةٍ كهذه، علينا أن نستقرَّ على توصيفٍ واحد من ثلاثة توصيفات محتملة: حادث أو انتحار أو جريمة قتل، وسيتحدد قرارُنا على أساس ما سنستنتجه من ثلاث مجموعات من الحقائق: أولها الوقائع العامة للقضية، وثانيها البيانات الخاصة التي يكشف عنها فحصُ الجثة، وثالثها البيانات التي نتوصل إليها بفحص المكان الذي وُجدت فيه الجثة. الوقائع العامة الوحيدة التي نعرفها في اللحظة الراهنة هي أن الراحل كان تاجرَ ألماس خرج في رحلة لهدف محدد، ومن المرجح أنه كان يحمل مقتنيات مما قلَّ حجمُه وغلا ثمنُه. هذه الوقائع من شأنها أن تستبعدَ فرضية الانتحار إلى حدٍّ ما وتُرجح فرضية القتل إلى حدٍّ ما. أما الوقائع التي تُشير إلى فرضية الحادث، فتتمثل في وجود أو عدم وجود مزلقان، أو طريق أو مسلك يؤدي إلى خط السكة

الحديد، أو سياج له بوابة أو بدون بوابة، وأي حقائق أخرى تجعل الوجود العرضي للمُتوفى في مكان العثور على الجثة مرجحًا أو غير مرجح. ونظرًا لأننا لا نحوز أيًّا من هذه الحقائق، فالمطلوب الآن أن نوسع نطاق معلوماتنا.»

اقترحتُ قائلًا: «لمَ لا نطرح على الحمَّال الذي أحضر الحقيبة والمظلة بعضَ الأسئلة بشيء من التحفظ؟ إنه الآن يتحاور حوارًا جديًّا مع الكمساري ولا شك أنه سيسعد إذا زاد مستمعوه واحدًا.»

أجاب ثورندايك: «اقتراح ممتاز يا جيرفيز. لنستمع لما لديه.» توجهنا إلى الحمَّال ووجدناه — كما توقعت — يُفضي بالقصة المأساوية ليتحرر من عبئها.

قال الحمَّال ردًّا على سؤال طرحه ثورندايك: «إليك ما جرى سيدي. ثمة انعطافٌ حادٌّ في الطريق في هذا المكان بالضبط، وكان قطارُ نقل البضائع ينعطف معها عندما وقع نظرُ السائق فجأة على شيء ملقًى على القضبان. وبينما كان القطار ينعطف، وقع ضوءُ المصابيح الأمامية على ما كان على قضيب القطار فأدرك السائقُ أنه جسد رجل. فأسرع بإيقاف البخار على الفور، وأطلق صافرته، وضغط المكابح بقوة، ولكن كما تعرف سيدي ليس من السهل إيقافُ قطار نقل بضائع؛ لذا دهست القاطرة وستُّ عربات أخرى المتسول المسكين قبل أن يتمكنوا من إيقاف القطار.»

سأله ثورندايك: «هل رأى السائق الوضعية التي كان عليها الرجل؟»

«نعم، رآه بوضوح تام؛ لأن المصابيح الأمامية كانت مسلطةً عليه بالكامل. كان يرقد على وجهه وكانت رقبته على قضيب القطار القريب من الناحية السفلية. وكان رأسه في المسافة الفاصلة بين قضيبَي القطار، أما جسدُه فكان بجانب شريط القطار. بدا كما لو كان مستلقيًا بهذا الوضع عن عمد.»

«هل يوجد مزلقان بالقرب من هذا المكان؟»

قال الحمَّال: «كلَّا يا سيدي؛ لا يوجد مزلقان ولا طريقٌ ولا مسلك ولا أيُّ شيء. لا بد أنه جاء من الحقول المحيطة وتسلَّق السياج للوصول إلى خط السكة الحديد. يبدو أنه انتحار متعمد.»

تساءل ثورندايك: «كيف عرفتَ هذا كلَّه؟»

«بعد أن فرغ السائق من رفع الجثة عن القضبان بعونٍ من زميله، توجَّه إلى كشك الإشارات التالي وأبلغ بما حدث عن طريق البرق. وأخبرني ناظرُ المحطة بكل ما جرى بينما كنا نسير على شريط السكك الحديدية.»

شكر ثورندايك الرجل على المعلومات التي أفاد بها، وعندما عدْنا أدراجنا إلى غرفة الإشارة، تناقشنا في جدوى هذه الحقائق الجديدة وتأثيرها.

قال ثورندايك: «لا شك أن صديقنا أصاب في جزء من كلامه؛ فهذا لم يكن حادثًا. من الممكن أن يكون الرجل قد تسلق السياج وصدمه القطار، وهذا إذا ما كان الرجلُ قصيرَ النظر أو أصمَّ أو غبيًّا. غير أن الوضعية التي وُجد عليها — مسجًّى على القضبان — لا يمكن تفسيرُها إلا بإحدى فرضيتين: إما أن ما حدث كان انتحارًا متعمدًا كما قال الحمَّال، أو أن الرجل كان قد فارق الحياة بالفعل أو فاقدًا للوعي. علينا ألا نذهبَ بافتراضاتنا لما هو أبعد من ذلك حتى نرى الجثة، إذا أذنت لنا الشرطة بذلك. ها هو ناظر المحطة مقبلٌ علينا ومعه ضابط شرطة. لنستمع لما لديهما.»

كان واضحًا أن ناظر المحطة وضابط الشرطة قد قررَا رفْضَ أيِّ مساعدة خارجية؛ فيقوم الطبيب الشرعي بالفحص اللازم، ويتم الحصول على المعلومات من القنوات المعتادة. غير أن إبراز ثورندايك لبطاقته المهنية غيَّر الموقف نوعًا ما. فقد تردَّد مفتش الشرطة في قراره بينما كان يُمسك ببطاقة ثورندايك في يده، ولكنه سمح لنا في النهاية بمعاينة الجثة، ودلفنا إلى غرفة الإشارة معًا يتقدمنا ناظرُ المحطة ليضيءَ المصباح.

كانت النقالة ملقاةً على الأرض عند أحد جدران الغرفة، بينما غطَّى المشمع الجثة، ووُضعت الحقيبة والمظلة على صندوق كبير، وبجانبهما إطارُ النظارة المحطم الذي سقط زجاجُ عدستيها.

سأل ثورندايك: «هل عُثر على إطار النظارة هذا بالقرب من الجثة؟»

ردَّ ناظر المحطة: «نعم، كان بجوار رأس الجثة وكان الزجاج متناثرًا بين قضيبي القطار.»

دوَّن ثورندايك ملاحظة في دفتر ملاحظاته، وعندما أزال المفتش المشمع، ألقى نظرةً على الجثة الممددة على نحوٍ هزيل على النقالة، وكان مظهرها مقززًا للغاية وقد انفصل عنها الرأسُ وتشوهت أطرافها. ظلَّ لدقيقة كاملة منحنيًا فوق الجثة الغريبة الشكل يطالعها في صمتٍ، وكان المفتش في ذلك الحين يسلط عليها ضوءَ مصباح كبير، ثم وقف وقال لي بهدوء: «أعتقد أنه يمكننا استبعادُ اثنتين من الفرضيات الثلاث.»

نظر المفتش إليه بسرعة، وكان على وشك أن يطرح عليه سؤالًا، قبل أن تُشتتَ انتباهَه حقيبةُ سفر ثورندايك التي وضعها على أحدِ الأرفف وفتحها وأخرج منها ملقطين جراحيين.

خاطبه المفتش: «لا سلطة لدينا لتشريح الجثة، كما تعلم.»

ردَّ ثورندايك: «بكل تأكيد، سأنظر إلى فمه من الداخل فحسب.» وبواسطة أحد الملقطين رفع شفة الجثة وبعد فحص دقيق لسطحها الداخلي، عاين الأسنان بعناية.

ثم خاطبني: «هلَّا أعرتني عدستك يا جيرفيز؟» وبعدما أعطيتُه عدستي المزدوجة مفتوحةً وجاهزة للاستخدام، قرَّب المفتش المصباح من وجه الميت ومال إلى الأمام في لهفة. وبطريقته المنهجية المعتادة مرر ثورندايك العدسة ببطء على الأسنان الحادة غير المتساوية، ثم أعاد تركيزها على منتصفها وتفحص القواطع العلوية بدقة أكبر. وأخيرًا، وبتأنٍّ شديد، سحب شيئًا ما من بين السنَّين الأماميين العلويين ووضعه تحت بؤرة العدسة. ونظرًا لمعرفتي بخطوته التالية، أخذتُ شريحة مجهر عليها ملصق صغير من الحقيبة وناولتُه إياها مع إبرة تشريح. وبينما كان ينقل ما سحبه من بين السنَّين إلى الشريحة وأعمل فيه الإبرة لإظهار ماهيته، أعددتُ له المجهر الصغير على الرف.

خاطبني ثورندايك: «قطرة من محلول فارانت، وشريحة تغطية زجاجية من فضلك يا جيرفيز.»

ناولتُه الزجاجة، وبعدما وضع قطرة من المحلول الذي احتوته لتسقط برفق على الشيء ثم وضع شريحة التغطية، وضع الشريحة على منصة المجهر وفحصها بعناية.

وقع نظري على المفتش بالمصادفة فوجدتُ ابتسامةً خفيفة ترتسم على وجهه حاول أن يكبحَها بتأدُّبٍ عندما التقت أعيننا.

قال المفتش معتذرًا: «لا أعتقد يا سيدي أن معرفة ما تناوله الرجل على العشاء ستفيدنا بشيء. فالرجل لم يَمُت بسبب سوء التغذية.»

نظر إليه ثورندايك مبتسمًا وقال: «ليس منطقيًّا في قضية من هذا النوع، أيها المفتش، أن نفترض عدم جدوى أيِّ شيء. فكلُّ حقيقة لا بد أن يكون لها مغزًى ما.»

ردَّ المفتش بلهجة تحدٍّ: «لا أرى أيَّ مغزًى في معرفة العادات الغذائية لرجل قُطِع رأسه.»

قال ثورندايك: «حقًّا؟ ألا فائدة من معرفة مكونات الوجبة الأخيرة لرجل مات هذه الميتة العنيفة؟ ألا يُخبرنا هذا الفتات المتناثر على معطف الرجل مثلًا بشيء. ألا نستطيعُ معرفة شيء منها؟»

أجابه في إصرار: «لا أعلم ما الذي يمكن أن يُخبركَ به.»

التقط ثورندايك قِطَع الفتات بملقطه، واحدةً تلو الأخرى، ووضعها على شريحة وفحصها بالعدسة أولًا ثم بالمجهر.

ثم قال: «يُخبرني بأن الرجل قبل وفاته بوقت قصير تناول نوعًا من بسكويت الحبوب الكاملة، يتكون في جزء منه من الشوفان على ما يبدو.»

قال المفتش: «وما قيمة ذلك؟ لسنا هنا لنعرف نوعية المرطبات التي كان المُتوفى يشربها وإنما لنعرف سبب الوفاة: أهو انتحار؟ أم قُتل في حادث؟ أم كان ثمة جريمة قتل؟»

قال ثورندايك: «أستميحك عذرًا، لكن الأسئلة التي لا يزال علينا أن نحسمَها هي: مَن قتل المُتوفى وبأي دافع؟ أما الأسئلة الأخرى، فإجابتُها باتت واضحةً حسب تقديري.»

حدَّق فيه المفتش باندهاش بالغ لم يَخلُ من عدم التصديق.

ثم قال: «لم يستغرق منك التوصل إلى نتيجة الكثير من الوقت يا سيدي.»

قال ثورندايك: «لقد كانت جريمةَ قتل واضحة تمامًا. أما عن الدافع، فالراحل كان تاجر ألماس ولا بد أن أحدهم توقَّع أنه كان بحوزته كمية منه. أقترح أن تفتش الجثة.»

تنهد المفتش ممتعضًا وقال: «لقد كان ذلك مجرد تخمين من جانبك. المُتوفى كان تاجر ألماس وكان يحمل أحجارًا قيِّمة؛ ولذا قُتِل.» ثم انتصب المفتش في وقفته ونظر إلى ثورندايك شزرًا ثم أضاف: «عليك أن تفهم يا سيدي أن هذا تحقيق قضائي، وليست منافسة على جائزة في جريدة. أما عن تفتيش الجثة، فهذا ما جئت من أجله أصلًا.» ثم أدار ظهره لنا في خيلاء وشرع يُفرغ جيوب المتوفى على نحو ممنهج، ووضع ما وجد من أغراض على الصندوق بجانب حقيبة اليد والمظلة.

في هذه الأثناء، ألقى ثورندايك على الجثة نظرةً عامة، وركز انتباهه على نعلَي الحذاء على نحو خاص، وأخذ يفحصهما بالعدسة بعناية فيما تابعه المفتش في تندُّر غير خفي.

علق المفتش قائلًا: «كنت أظن أن قدميه كبيرتان بما يكفي لرؤيتهما بالعين المجردة ...» ثم نظر إلى ناظر المحطة نظرة ماكرة وأضاف: «لكن ربما كان نظرك قصيرًا.»

ضحك ثورندايك ضحكة مكتومة مرحة، وبينما واصل الضابط التفتيش، نظر إلى الأغراض الموضوعة على الصندوق، فترك المحفظة ودفتر الملاحظات للمفتش ليفتحهما بطبيعة الحال، فيما أخضع نظارة القراءة، وسكين الجيب وحافظة البطاقات والأغراض الأخرى الصغيرة التي كانت في الجيب لفحص دقيق من جانبه. تابعه المفتش من زاوية عينه بتندر مُسترَق؛ فرآه يرفع النظارة عاليًا في الضوء ليقدر مدى انكسار الضوء عليها، ويتأمل كيس التبغ، ويفتح دفتر ورق السجائر ويتفحص العلامة المائية على الورق، حتى إنه فتش محتويات عُلبة الثقاب الفضية.

تساءل الضابط وهو يضع مجموعة من المفاتيح كانت في جيب المتوفى: «ماذا كنت تتوقع أن تجد داخل كيس التبغ؟»

ردَّ ثورندايك في تبلد: «كنت أتوقع أن أجد تبغًا عاديًّا، ولكن لم أتوقع أن أجد تبغ لاتاكيا الفاخر. لا أتذكر أني رأيتُ تبغ لاتاكيا الخالص يُدخَّن في سجائر من قبل.»

قال المفتش وهو ينظر إلى ناظر المحطة المتبلد نظرة خاطفة جانبية: «أنت تهتم بالأشياء فعلًا يا سيدي.»

وافقه ثورندايك: «بالفعل، ولاحظتُ عدم وجود ألماس بين مقتنياته.»

«لا يوجد ألماس، ولا نعلم إذا ما كان يحمل أيَّ ألماس معه، لكن توجد ساعة وسلسلة ذهبيتان، ودبوس وشاح من الألماس، وحقيبة بها ...» فتحها وأفرغ محتوياتِها في يده ثم تابع: «اثنا عشر جنيهًا ذهبيًّا. لا يبدو أنها سرقة، أليس كذلك؟ ما قولك الآن في نظرية جريمة القتل التي افترضتَها؟»

قال ثورندايك: «رأيي لم يتغير، وأودُّ أن أفحص المكان الذي وُجدت فيه الجثة.» ثم أضاف مخاطبًا ناظرَ المحطة: «هل فُحِصت القاطرة؟»

أجاب ناظر المحطة: «لقد أرسلتُ برقية إلى برادفيلد لفحصها. ربما يكون التقرير قد وصل الآن. يستحسن أن أطالعه قبل أن ننطلق إلى شريط القطار.»

خرجنا من غرفة الإشارة، ووجدنا مفتش المحطة منتظرًا عند الباب ومعه برقية، فسلمها إلى ناظر المحطة الذي قرأها علينا بدوره.

«فحصتُ القاطرة بعناية. وقد وجدتُ بقعة دم صغيرة على العجلة الأمامية، وبقعة أخرى أصغر على العجلة التي تليها. لا علامات أخرى.» نظر إلى ثورندايك متسائلًا، فأومأ برأسه وقال: «سيكون من المثير أن نرى إذا ما كان ذلك يتطابق مع ما سنجده على القضبان.»

بدا ناظر المحطة متحيرًا وكان واضحًا أنه يوشك على طرح سؤال، بيد أن المفتش — بعد أن وضع مقتنيات المتوفى في جيبه — كان ينتظر الانطلاق بفارغ الصبر، وهكذا، وبعدما أعاد ثورندايك محتويات حقيبته الخضراء إلى مكانها، وجيء له بمصباح بناء على طلبه، انطلقنا نحو شريط القطار، وحمل ثورندايك المصباح، فيما حملتُ أنا الحقيبة الخضراء الأثيرة.

في طريقنا، بعد أن تركتُ أنا وثورندايك ناظرَ المحطة والمفتش يتقدمانَا بمسافة جعلتهما بعيدين عن مرمى السمع، قلت: «ثمة أمورٌ غامضة كثيرة بالنسبة إليَّ في هذه

الواقعة، فيما توصلتَ أنت إلى استنتاج بسرعة بالغة. فما الذي جعلك تجزم بفرضية القتل وتستبعد الانتحار بهذه السرعة؟»

أجاب ثورندايك: «شيءٌ صغير لكنه حاسم جدًّا. هل لاحظتَ وجود جرح صغير في فروة الرأس فوق الصدغ الأيسر؟ كان جرحًا سطحيًّا، وقد يُفترض للوهلة الأولى أن القاطرة هي ما أحدثته، ولكن الجرح ظل ينزف لوقت ليس بالقصير، كان الجرح ينزف من مكانين، وكان الدم متجلطًا بشدة وجافًّا جزئيًّا في كليهما. لكن الرأس انفصل عن الجسد، وإذا كانت القاطرة هي ما أحدث الجرح، فلا بد أنها أحدثته بعد انفصال الرأس عن الجسد؛ لأن الجرح كان على جانب الرأس الأبعد عن القاطرة أثناء تقدمها نحوه. والرأس إذا انفصل عن الجسد لا ينزف. إذن فهذا الجرح أصاب الرأس قبل انفصاله عن الجسد.

ولكن نزيف الجرح ليس كلَّ شيء؛ لقد انسال الدم في خطَّين متعامدين. وبحسب الترتيب الزمني الذي يكشف عنه مظهرُ خطَّي الدم، انسال خطُّ الدم الأول على جانب الوجه حتى وصل إلى ياقة القميص، وانسال خطُّ الدم الثاني من الجرح متوجهًا نحو مؤخرة الرأس. وتعلم يا جيرفيز أن قانون الجاذبية لا يعرف الاستثناءات. فإذا كان الدم قد انسال على الوجه وصولًا إلى الذقن، فهذا يعني أن الوجه كان في وضع منتصب عندما كان الجرح ينزف؛ أما إذا كان الدم قد انسال من مقدمة الرأس إلى مؤخرته، فمعنى ذلك أن الرأس كان في وضع أفقي والوجه متجهًا للأعلى. ولكن سائق القطار حين رأي الرجل وجده مُلقًى على وجهه. فالاستنتاج المنطقي الوحيد هو أن الرجل كان واقفًا أو جالسًا في وضع عمودي عندما حدث الجرح، ونتيجة لذلك، وبينما كان الرجل لا يزال على قيد الحياة، استلقى على ظهره لوقت طويل بما يكفي لانسيال الدم إلى مؤخرة رأسه.»

رددت عليه في أسف: «فهمتُ الآن. لا بد أن غبائي حال دون توصُّلي لهذا الاستنتاج بنفسي.»

ردَّ ثورندايك: «سرعة الملاحظة والاستنتاج يأتيان بالممارسة. ماذا لاحظتَ بشأن الوجه؟»

«أظن أن ثمة إيحاءً قويًّا بوجود أسفكسيا الخنق.»

قال ثورندايك: «بلا شك. فهذا الوجه وجه رجل تعرض للخنق. لا بد أنك لاحظت أيضًا التورم الملحوظ للسان، والانبعاجات العميقة التي أحدثتها الأسنان في الجزء الداخلي من الشفة العليا، إلى جانب جرح طفيف أو اثنين نتجَا بوضوح عن ضغط شديد على

الفم. والآن لاحظ كيف تتفق هذه الحقائق والاستنتاجات تمامًا مع ما كشف عنه جرحُ فروة الرأس. فإذا كنا قد عرفنا أن المتوفى تلقى ضربة على الرأس، وتعارك مع مهاجمه حتى تمكن في النهاية من الإطباق عليه وخنقه، فعلينا أن نبحث تحديدًا عن تلك الأدلة التي توصلنا إليها.»

سألته: «بالمناسبة، ما الذي وجدته محشورًا بين الأسنان؟ لم تسنح لي الفرصة لمشاهدته تحت المجهر.»

قال ثورندايك: «آه! ما وجدته يؤكد استنتاجنا، بل يقودنا إلى المرحلة التالية في التحقيق. لقد كان ما وجدته هو قطعة صغيرة من قماش منسوج، وعندما عاينتها تحت المجهر، وجدت أنها تتكون من العديد من الألياف المختلفة مصبوغة بألوان مختلفة. كان معظمها يتكون من ألياف صوفية مصبوغة باللون القرمزي، وكان بها أيضًا ألياف قطنية مصبوغة باللون الأزرق، وبعض ألياف أخرى بدت كالخيش مصبوغة باللون الأصفر. من الواضح أنه كان نسيجًا متعددَ الألوان وربما كان جزءًا من ثوب نسائي، وإن كان وجود الخيش يوحي أكثر بأنه من ستارة أو بساط غليظ رديء الجودة.»

«وما أهميته؟»

«أهميتُه أن النسيج إذا لم يكن مصدره أحد الملبوسات، فلا بد أن مصدره قطعة أثاث، والأثاث يعني مسكنًا.»

قلتُ معترضًا: «لا يبدو هذا حاسمًا.»

فرد: «أتفق معك، ولكنه توثيق قيِّم.»

سألته: «توثيق لأي شيء؟»

أجابني: «لما تبين لي من نعلَي حذاء المتوفى. لقد فحصتهما بدقة بالغة، فلم أجد أثرًا لرمال أو حصى أو تراب، على الرغم من أنه من المفترض أن يكون قد عبر حقولًا وأرضًا وعرة للوصول إلى حيث عُثر على جثته. أما ما وجدتُه على الحذاء فكان رماد تبغ فاخر، وبقعة متفحمة كما لو كانت نتجت عن دهس سيجارة أو سيجار، والكثير من فتات البسكويت، ونسيجًا ملونًا — عالقًا على مسمار بارز في النعل — يبدو أن مصدره سجادة. الاحتمال الأقرب للصواب هو أن الرجل قُتل في منزل مفروش بالسجاد ثم حُمل منه إلى خط السكة الحديد.»

التزمتُ الصمت للحظات. فقد عقدت المفاجأةُ لساني على الرغم من أني لم أكن حديثَ العهد بثورندايك، لكن إحساس المفاجأة هذا يتجدد لديَّ في كل مرة أصحبه في أحد تحقيقاته. كانت قدرتُه العجيبة على التنسيق بين حقائق تبدو بلا قيمة، ثم ترتيبها في

تسلسل منظَّم لتُشكل قصة متماسكة، ظاهرةً لم أعتدْها مهما تكررت أمامي، بل ظلت تفاجئني في كلِّ ظهور لها تمامًا مثل المرة الأولى.

قلت له: «إذا كانت استنتاجاتك صحيحة، تكون القضية قد حُلَّت تقريبًا. لا بد أن ثمة الكثيرَ من الآثار في هذا المنزل. السؤال الآن هو: أيُّ منزل؟»

ردَّ ثورندايك: «أنت محق، هذا هو السؤال، ويا له من سؤال في غاية الصعوبة! نظرةٌ واحدةٌ على المنزل من الداخل سوف تحلُّ اللغز بأكمله دون شك. ولكن كيف لنا بتلك النظرة؟ لا يمكننا أن ندخل المنازل عشوائيًّا لنرى إذا ما كنا سنجد فيها آثارًا لجريمة قتل. في الوقت الحالي، أدلتُنا كحبل نمسك بطرف منه ولا نعلم أين الطرف الآخر. طرف الحبل الآخر في منزل مجهول، وإذا لم نَصِل طرفَي الحبل بعضهما ببعض، فستظل قضيتُنا بلا حل. تذكَّرْ أن السؤال الأهم هو: من قتل أوسكار برودسكي؟»

سألته: «ماذا تقترح أن نفعل إذن؟»

أجابني: «في المرحلة التالية من التحقيق علينا أن نربط منزلًا بعينه بالجريمة. وفي سبيل ذلك، لا يسعني إلا أن أضع كلَّ الحقائق المتاحة نصبَ عيني، وأن أستعرضها في ضوء كلِّ احتمالاتها. إذا لم أتمكن من إقامة مثل هذه الصلة، فسيفشل التحقيق، وسيتعين علينا البدءُ من الصفر ... لنَقُل في أمستردام، إذا تبيَّن أن برودسكي كان يحمل ألماسًا بالفعل، وهو ما لا أشك في صحته ...» وهنا وصلْنا إلى المكان الذي عُثر على الجثة فيه فانقطع حديثُنا. توقَّف ناظر المحطة، وأخذ هو والمفتش يفحصان القضيب القريب على ضوء مصباحيهما.

قال ناظر المحطة: «الدماء قليلة جدًّا. لقد رأيتُ العديد من الحوادث المشابهة وكانت تترك الكثير من الدماء دائمًا، على القاطرة وعلى الطريق. أمر غريب جدًّا.»

ألقى ثورندايك نظرةً سريعة على قضيب القطار بقليل من الاهتمام؛ فالمسألة التي كانَا يناقشانِها خرجت من دائرة اهتمامه. ولكن ضوء مصباحه سقط على الأرض بجانب شريط القطار، فوجد تربةً مفتتة يخالطها بعضُ الحصى وقِطَعٌ صغيرة من الطبشور، ثم وقع ضوء المصباح على نعلَي حذاء المفتش اللذين تجليَا بينما كان المفتش جاثيًا إلى جانب شريط القطار.

قال ثورندايك بصوت خفيض: «أترى ذلك يا جيرفيز؟» فأومأتُ بالإيجاب. كان نعلَا حذاء المفتش مغطَّيَين بحصوات علِقت بهما وعلامات بارزة من أثر طبشور وطئه.

سأله ثورندايك وهو ينحني ليلتقط خيطًا صغيرًا كان على الأرض بجانب شريط القطار: «لم تعثروا على القبعة، أليس كذلك؟»

أجاب المفتش: «كلَّا، لم نجدها، ولكن لا يمكن أن تكون بعيدةً عن هنا.» ثم أضاف وهو ينظر إلى الخيط مبتسمًا: «يبدو أنك وجدت دليلًا آخر يا سيدي.»

قال ثورندايك: «مَن يعلم؟! قطعة قصيرة من دوبارة بيضاء بها خيط أخضر. ربما تُخبرنا بشيء فيما بعد. سنحتفظ بها على أي حال.» ثم أخرج من جيبه علبةً صغيرة من القصدير تحوي، من بين أشياء أخرى، عددًا من مغلفات البذور، فوضع الدوبارة في أحد المغلفات ودوَّن عليه ملاحظةً بالقلم الرصاص. تابع المفتش ما كان يفعله ثورندايك بابتسامة تسامح، ثم استأنف فحص شريط القطار، وانضم إليه ثورندايك هذه المرة.

أشار الشرطي إلى بقايا زجاج النظارة المهشم وقال: «أعتقد أن المسكين كان قصير النظر، وربما لهذا السبب انحرف إلى شريط القطار أثناء سيره.»

رد ثورندايك: «ربما.» وكان قد لاحظ شظايا الزجاج المنثورة على إحدى العوارض المعدنية وعلى حصى الرصيف الملاصق لها كذلك، فأخرج علبة «جمع الأدلة» مجددًا وأخرج مغلفًا آخر وقال: «هلا ناولتني ملقطًا يا جيرفيز، وربما لم تمانع في أخذ ملقط آخر لتساعدني في جمع شظايا الزجاج هذه.»

فعلتُ ما طُلب مني، بينما تابعَنا المفتش باستغراب.

ثم قال: «لا يوجد أدنى شك في أن هذه النظارة كانت نظارة المتوفى، أليس كذلك؟ لقد كان يرتدي نظارة بالتأكيد؛ إذ رأيتُ أثرها على أنفه.»

قال ثورندايك: «ومع ذلك فلا ضير من التأكد.» ثم خاطبني بصوت خفيض قائلًا: «التقط كلَّ قطعة تستطيع العثور عليها يا جيرفيز. قد يكون هذا مهمًّا للغاية.»

قلت له بينما كنت أفتش بين الحصى على ضوء المصباح محاولًا العثور على قطع الزجاج الدقيقة: «لا أفهم تمامًا لماذا.»

أجابني ثورندايك: «حقًّا لا تفهم لماذا؟ انظر إذن إلى هذه القطع، بعضُها حجمه كبير نسبيًّا، لكن الكثير مما سقط على العارضة المعدنية منها مجرد ذرات صغيرة. وفكِّر أيضًا في عددها. من الواضح أن حالة زجاج النظارة لا تتماشى مع الظروف التي وجدناها فيها. لدينا هنا عدستا نظارة سميكتان مقعرتان تحطمتا إلى عدد كبير من الشظايا الدقيقة. كيف انكسرتا؟ ليس بمجرد السقوط أرضًا على ما يبدو، فمثل هذه العدسات إذا سقطت أرضًا تتهشم إلى عدد قليل من القطع الكبيرة. ولم تنكسر أيضًا بسبب مرور عجلة القطار عليهما؛ إذ كانتا حينها ستتحولان إلى مسحوق ناعم، وكنا سنجد هذا المسحوق على قضيب القطار بوضوح، وهو ما لم يحدث. علاوة على ذلك، ربما تتذكر أن إطار النظارة قد أظهر

ذلك التناقض نفسه، فقد كان مهشمًا تمامًا ومحطمًا لدرجة لا تنتج عن مجرد السقوط، ولا تقارب حتى درجة التضرر التي كانت ستلحق به لو دهسته عجلة القطار.»

سألتُه: «ماذا تعتقد إذن؟»

«يبدو من مظهر زجاج النظارة أن أحدهم دهسها بقدمه. ولكن لو كانت الجثة قد حُملت إلى هنا، فالأرجح أن النظارة حملت إلى هنا هي الأخرى، وأنها كانت مكسورةً بالفعل؛ فالاحتمال الأرجح أنها تعرضت للدهس خلال العراك وليس أن القاتل دهسها بعد إحضارها إلى هنا. لذا طلبت منك ألا تترك أي قطعة.»

تساءلت بحُمق لا أُنكره: «لكن لماذا؟»

أجابني: «لأننا إذا جمعنا كلَّ القطع التي يمكننا العثور عليها، ووجدنا أن الجزء المفقود من العدستين أكبر مما نتوقع، فسيؤيد ذلك فرضيتنا، وربما نجد هذا الجزء المفقود في مكان آخر. أما إذا وجدنا أكبر عدد ممكن يمكننا أن نتوقع العثور عليه من القطع، فعلينا أن نستنتج أنهما كُسرتا في هذا المكان.»

بينما كنا نُجري بحثنا، كان مفتش الشرطة وناظر المحطة يتجولان بمصباحَيهما بحثًا عن القبعة المفقودة، وبعد أن التقطنا آخر قطعة زجاج، ولم نعثر على أيِّ قِطَع أخرى حتى بالبحث المتأني وباستخدام عدسة تكبير، شاهدنا مصباحيهما يتأرجحان كوهج طيفي على مسافة منا عبر شريط القطار.

قال ثورندايك وهو ينظر نحو المصباحين المتألقين: «لنرَ ما لدينا قبل أن يعود صاحبانا. ضع الحقيبة على الحشائش بجوار السور لنستخدمها كطاولة.»

فعلتُ ما طلب، ثم أخرج ثورندايك خطابًا من جيبه وفتحه ووضعه مستويًا على الحقيبة وثبته بحجرين ثقيلين على الرغم من أن الليل كان هادئًا بلا رياح. بعدها أفرغ محتويات مغلف البذور الصغير على الورقة، ووزع قطع الزجاج بحرص، وتأملها للحظات في صمت. وبينما كان يتأملها تسلَّل إلى وجهه تعبيرٌ غريب للغاية، وبحماس مفاجئ دبَّ فيه شرَع ينتقي الأجزاء الكبيرة ويضعها على بطاقتَي زيارة أخرجهما من حافظة بطاقاته. وبسرعة وببراعة مذهلة ركَّب الأجزاء معًا، وعندما بدأت العدستان تدريجيًّا تتخذان شكليهما على البطاقتين، نظرتُ إليه بحماس متزايد؛ فقد كان في طريقته شيءٌ ينبؤني بأننا موشكان على اكتشاف جديد.

استقرت العدستان كلٌّ على بطاقتها، مكتملتَين عدا فراغ صغير أو اثنين، وكانت كومة الزجاج المتبقية تتكوَّن من شظايا دقيقة للغاية لدرجةٍ يتعذر معها إعادةُ تشكيلها. مال ثورندايك إلى الخلف وضحك ضحكة خافتة.

ثم قال: «هذه نتيجة غير متوقعة بالتأكيد.»

فسألتُه: «ما الأمر؟»

أجابني: «ألا ترى يا رفيقي العزيز؟ الزجاج أكثر من المتوقع. لقد أعدنا تكوين العدستين المهشمتين بالكامل تقريبًا، والشظايا المتبقية أكثر بكثير مما يلزم لملء الفراغات.»

نظرتُ إلى كومة الشظايا الزجاجية الصغيرة المتبقية وأدركت صحة ما قال على الفور. هناك فائض من القطع الصغيرة.

قلتُ له: «هذا غريبٌ جدًّا. ما التفسير المحتمل لذلك في رأيك؟»

أجاب قائلًا: «ربما ستخبرنا الشظايا بالتفسير، إذا سألناها بذكاء.»

رفع الورقة والبطاقتين بحذرٍ ووضعهما على الأرض، ثم فتح الحقيبة وأخرج المجهر الصغير، وركَّب فيه العدسة الشيئية الصغرى والعدسة العينية لتُصبح قوة التكبير مجتمعة عشرة أمثال فقط. بعد ذلك نقل شظايا الزجاج الدقيقة إلى شريحة، واستخدم المصباح كمصدر إضاءة للمجهر، وبدأ فحصه.

وبعد قليل قال ثورندايك متعجبًا: «يا إلهي! إن اللغز يزداد تعقيدًا. هناك زجاج أكثر من المتوقع، ومع ذلك فهو أقل من الكافي؛ أعني أن شظية أو اثنتين فقط من شظايا الزجاج مصدرهما عدستَا النظارة لا يكفيان لإكمال تكوين العدسات. أما الباقي فيتألَّف من زجاج ناعم وغيرِ متساوٍ ومقولب، يسهل تمييزُه عن زجاج العدستين الشفاف الصلب. كلُّ قطع الزجاج الدخيلة هذه مقوسة، كما لو أنها كانت جزءًا من أسطوانة، أو بالأحرى كأس أو قدح للنبيذ.» وهنا حرَّك الشريحة مرةً أو مرتين، ثم واصل حديثه: «نحن محظوظون يا جيرفيز. ثمة قطعة زجاجية منقوش عليها خطان منفرجان، يبدو أنهما نقاطُ التفرع لنجمة ثُمانية، وها هي قطعة أخرى بها ثلاث نقاط. وهذا يمكِّنُنا من إعادة تشكيل الوعاء بالكامل. لقد كان كوبًا شفافًا رفيعًا، أو ربما كأسًا مزينة بنجوم متناثرة. أستطيع القول إنك تعرف هذا النقش. في بعض الأحيان يُنقش عليه شريط زخرفي بالإضافة إلى النجوم، ولكنه يزخرف بالنجوم فقط في الغالب. ألقِ نظرة على العينة.»

لم أكد أضع عيني على المجهر حتى جاء ناظر المحطة والمفتش. كان المشهد ونحن جالسان على الأرض والمجهر بيننا، أكبر من أن تصمدَ أمامه جديةُ المفتش، فضحك ضحكةً طويلة تشي بالابتهاج.

ثم قال معتذرًا: «معذرة أيها السادة، ولكن حقًّا، تعلمان! المنظر لرجل محنك مثلي، يبدو، حسنًا، تفهمانني. إن المجهر شيء مثير للغاية، ولكنه لا يفيدكما كثيرًا في قضية كهذه، أليس كذلك؟»

رد ثورندايك: «ربما. بالمناسبة، أين وجدتما القبعة في النهاية؟»

أجابه المفتش: «لم نجدها.»

قال ثورندايك: «إذن علينا أن نساعدكما في مواصلة البحث. إذا تكرمتما بانتظارنا لحظات فسنرافقكما.» ثم سكب بضعَ قطرات من بلسم كندا على البطاقتين لتثبيت العدستين المعاد تكوينُهما في مكانهما، ووضعهما مع المجهر في الحقيبة، ثم أعلن أنه جاهز للانطلاق.

سأل ثورندايك ناظرَ المحطة: «هل توجد أيٌّ قرية أو نجع بالقرب من هنا؟»

«كورفيلد هي أقرب قرية. إنها على بُعد نصف ميل تقريبًا من هنا.»

«وأين أقرب طريق؟»

«يوجد طريق غير مكتمل يمرُّ بمنزل يبعد عن هنا ثلاثمائة ياردة. والمنزل يقع على أرض بناء لم يُبنَ عليها غيره. ويوجد ممرٌّ مشاة يربط بينه وبين المحطة.»

«هل يوجد أيُّ منازل أخرى قريبة؟»

«كلَّا. هذا هو المنزل الوحيد على بُعد نصف ميل من المحطة في جميع الاتجاهات، وما من طريق آخر بالقرب من هنا.»

«إذن فمن المرجح أن يكون برودسكي اتجه إلى شريط القطار من هذا الاتجاه، لأنه وُجد على هذه الناحية من خط السكة الحديد.»

وافقه المفتش الرأيَ، وعلى ذلك توجهنا جميعًا إلى المنزل ببطء يقودنا ناظرُ المحطة، وكنا نفتش في الأرض في طريقنا. كانت الأرض الخربة التي مررنا عليها في طريقنا مغطاةً برُقَعٍ من نباتات القراص والحماض، وأخذ المفتش يركلها باحثًا بقدمه ومصباحه عن القبعة المفقودة. وبعد أن مشينا لثلاثمائة ياردة وصلنا إلى سياج قصير يطوق حديقة، ورأينا وراء هذه الحديقة منزلًا صغيرًا. وهنا توقفنا قليلًا بينما خاض المفتش وسط حوض كبير من نباتات القراص بجانب السياج وأخذ يركلها بقوة. فجأةً سمعنا صوتَ ارتطام حذائه بجسم معدني ممتزجًا بكلمات توبيخ، ثم قفز المفتش مبتعدًا وهو يُمسك بإحدى قدميه بينما انطلقت من فمه البذاءات.

صاح المفتش وهو يربتُ على قدمه المصابة: «أيُّ أحمق يضع شيئًا كهذا وسط حوض من نباتات القراص؟!» التقط ثورندايك الجسم المعدني وفحصه على ضوء المصباح،

فوجده قضيبًا من الحديد المدرفل عرضُه ثلاثة أرباع البوصة وطوله نحو قدم، ثم قال: «لا يبدو أنه كان في هذا المكان لفترة طويلة؛ فلا صدأ عليه تقريبًا.»

رد المفتش مزمجرًا: «كما لو كان ظلَّ هنا فقط ليصيب قدمي! كم أودُّ أن أضرب به رأس الأحمق الذي تركه هنا!»

واصل ثورندايك فحص القضيب في هدوء غير آبهٍ لتأوهات المفتش. وأخيرًا أسند مصباحه إلى السياج، وأخرج العدسة المكبرة من جيبه، واستأنف الفحص مستخدمًا إياها، وهو ما أشعل غضب المفتش المصاب، فأخذ يعرج نحو الباب الأمامي مزمجرًا يتبعه ناظرُ المحطة، وبعد قليل سمعناه يطرق على الباب الأمامي بعنف.

خاطبني ثورندايك: «أعطني شريحةً عليها قطرة من محلول فارانت يا جيرفيز. ثمة بقايا نسيج ما عالقة بهذا القضيب.»

أعددتُ له الشريحة، وناولته إياها مع شريحة تغطية وملقط وإبرة فحص، ثم أعددتُ المجهر على السياج.

قال ثورندايك بينما كان يفحص العينة تحت المجهر: «يؤسفني ما حدث لقدمِ المفتش، لكن هذه الركلة كانت ضربةَ حظٍّ لنا. انظر إلى العينة.»

نظرت إلى العينة، وحركت الشريحةَ حتى تمكنتُ من رؤية العينة بالكامل ثم أخبرتُه برأيي: «ألياف صوفية حمراء، وألياف قطنية زرقاء وألياف صفراء من مصدر نباتي تبدو كالخيش.»

ردَّ ثورندايك: «نعم، المجموعة نفسها من الألياف التي وجدناها بين أسنان المُتوفى، وغالبًا من المصدر نفسه. لا بد أن أحدهم مسح القضيب المعدني بالستارة أو البساط نفسه الذي استُخدم في خنق المسكين برودسكي. فلنترك القضيب على السياج لعلنا نحتاج إليه لاحقًا، أما الآن فعلينا أن ندخل هذا المنزل بأي طريقة. لا يمكننا تجاهلُ دليل واضح إلى هذه الدرجة.»

أعدْنا الأدوات إلى الحقيبة وأغلقناها على عجل، وأسرعنا إلى مقدمة المنزل، فرأينا المفتش والناظر ينظران إلى الطريق غير المكتمل بقدر من الغموض.

قال المفتش: «ثمة ضوء في المنزل، لكن لا أحد في الداخل. فقد طرقتُ الباب مرارًا ولم أجد ردًّا. ولا أعرف لِمَ نمكث هنا. أغلب الظن أن القبعة موجودة على مقربة من المكان الذي عُثر فيه على الجثة، وسنجدها في الصباح.»

لم يردَّ ثورندايك، بل دخل الحديقة وسلك الممر وطرق على الباب بخفة، ثم جثَا ووضع أذنه عند ثقب المفتاح مرهفًا السمع.

قال المفتش منفعلًا: «قلت لك إنه لا أحد في المنزل يا سيدي.» لكن ثورندايك واصل الإنصات، فابتعد المفتش متمتمًا بعبارات غاضبة. وحالما ابتعد، سلط ثورندايك مصباحه على الباب، والعتبة والممر وأحواض الزهور الصغيرة، ثم رأيتُه ينحني ليلتقط من بين الزهور شيئًا.

قال وهو يخرج متجهًا إلى البوابة حاملًا سيجارة لم يُدخَن منها سوى نصف بوصة: «هذا اكتشاف يخبرنا بالكثير يا جيرفيز.»

سألته: «يخبرنا بماذا؟ ما الذي عرفته منه؟»

قال: «أشياء كثيرة. لقد أشعلها أحدهم ثم رماها بدون أن يدخنها، وهو ما يشي بتغيير مفاجئ في الخطة. وقد أُلقي بها عند مدخل المنزل، وأغلب الظن أن من ألقاها كان على وشك الدخول إلى المنزل. هذا الشخص غريب على الأرجح، وإلا لكان دخل بها. لكنه لم يتوقع أنه سيدخل المنزل، وإلا ما كان أشعلها. ما سبق كان استنتاجات عامة، إليك الآن ما هو أدق: ورق التبغ من نوع يعرف باسم «زيج-زاج»، فالعلامة المائية واضحة ومن السهل جدًّا رؤيتها. ودفتر ورق اللف الذي وُجد مع برودسكي كان من نوع «زيج-زاج»، وهو يحمل هذا الاسم؛ نظرًا لأن حافته التي تظهر عند قطع ورقة منه تأخذ الشكل المتعرج. لكن دعْنا نفحص شكل التبغ.» ثم أخرج دبوسًا من معطفه، وأخرج به من الطرف غير المحترق القليل من التبغ البنيِّ الداكن، وأمسك به أمامي لأفحصه.

قلتُ بلا تردد: «إنه تبغ من نوع لاتاكيا الفاخر.»

ردَّ ثورندايك: «حسنًا، وها هي ذي سيجارة محشوة بتبغ غير شائع مشابه للذي وُجد في كيس التبغ الخاص ببرودسكي وملفوفة في ورق لف غير شائع مشابه لورق لف التبغ الذي وُجد في دفتر ورق اللف الخاص ببرودسكي أيضًا. ومع مراعاة القاعدة الرابعة من قواعد الاستدلال المنطقي، أخمن أن أوسكار برودسكي هو من لف هذه السيجارة. ومع ذلك فسنبحث عن تفصيلة من شأنها أن تؤيد ذلك.»

سألتُه: «وما هي تلك التفصيلة؟»

أجابني: «لعلك لاحظت أن علبة أعواد الثقاب الخاصة ببرودسكي كان بها أعواد ثقاب خشبية مستديرة، وهي أيضًا غير شائعة. ونظرًا لأنه — لا بد — أشعل السيجارة على بعد خطوات من البوابة، فمن المفترض أن نتمكن من العثور على عود الثقاب الذي أشعلها به. لنبحث عنه في الطريق من الاتجاه الذي يُرجح أن يكون قد جاء منه.»

مشينا في الطريق المحدد ببطء شديد، وأخذنا نفتش في الأرض بالمصباح، ولم نكد نخطو عشر خطوات حتى وقعت عيناي على عود ثقاب مُلقًى على الممر الوَعر، فالتقطته متلهفًا. كان عود ثقاب خشبيًّا مستديرًا.

فحصه ثورندايك باهتمام، ثم وضعه مع السيجارة في «علبة جمع الأدلة»، ثم عاد أدراجه وقال لي: «الآن يا جيرفيز لم يَعُد ثمة شكٌّ في أن برودسكي قُتل في هذا المنزل. لقد نجحنا في ربط ذلك المنزل بالجريمة، وعلينا الآن أن ندخله بالقوة وأن نتقفَّى الأدلة الأخرى.» وعُدْنا مسرعين إلى الناحية الخلفية من المبنى، فوجدنا المفتش يتحدث إلى ناظر المحطة في كآبة وتجهُّم.

قال المفتش: «أعتقد أن علينا العودة من حيث جئنا الآن، في الحقيقة لا أدري لماذا جئنا إلى هنا أصلًا؛ ولكن، انظر!» وبينما هما كذلك إذا بثورندايك يقفز بخفة ويُلقي بإحدى ساقيه الطويلتين على السياج متسلقًا إياه دون سابق إنذار، فقطع المفتش حديثَه مع ناظر المحطة وصاح في ثورندايك: «سيدي، يجب ألَّا تفعل ذلك!»

ثم واصل قائلًا: «لا يمكنني أن أسمح لك باقتحام ملكية خاصة يا سيدي.» ولكن ثورندايك أكمل تسلقه إلى الداخل في صمتٍ ثم استدار ليواجه المفتش من فوق السياج.

قال له: «استمع إليَّ أيها المفتش. لديَّ أسباب وجيهة تدفعني للاعتقاد أن المُتوفَى، برودسكي، كان في هذا المنزل، بل أنا على استعداد لأن أُقسم على ذلك. لكن الوقت ثمين، وعلينا أن نطرق الحديد وهو ساخن. وأنا لا أنتوي اقتحام المنزل؛ كل ما أريد هو أن أفحص الجاروف.»

رد المفتش متفاجئًا: «الجاروف؟! يا لك من رجل شديد الغرابة! ماذا تتوقع أن تجد في الجاروف؟»

أجابه: «أبحث عن كأس أو قدح نبيذ مكسور. إنه وعاء زجاجي رفيع مزيَّن بزخارف على شكل نجوم ثمانية صغيرة. ربما يكون في الجاروف أو ربما داخل المنزل.»

تردد المفتش، ولكن يبدو أن اللهجة الواثقة التي تحدث بها ثورندايك قد أقنعته.

فقال: «يمكننا أن نتفقد محتويات الجاروف، مع أني لا أفهم ما علاقة القدح المكسور بالقضية. ومع ذلك، فليكن ما شئت.» وتسلق السياج إلى الداخل، ثم تبعتهما أنا وناظر المحطة.

مكث ثورندايك بجانب البوابة لبضع لحظات يتفحص الأرض، بينما قطع ناظر المحطة والمفتش الممرَّ مسرعَين. لم يعثر ثورندايك على ما يُثير اهتمامه، فسار في اتجاه

المنزل مجيلًا نظرَه باهتمام في كل ما يحيطه، ولكن لم نكد نصل إلى منتصف الممر حتى سمعنا صوت المفتش ينادي متحمسًا.

صاح المفتش عاليًا: «من هنا يا سيدي.» فأسرعنا الخُطَى حتى وجدناه فجأةً هو وناظر المحطة يقفان بجانب كومة صغيرة من القمامة مشدوهين. أضاء مصباحهما كومةَ القمامة، فرأينا فيها قطعًا متناثرةً من قدح زجاجي رفيع مزخرف بنجوم.

قال المفتش بلهجة بدا فيها احترام متجدد: «لا يمكنني أن أتخيل كيف خمَّنتَ أنه هنا يا سيدي، ولا أعرف ما ستفعل به بعد أن وجدته.»

رد ثورندايك وهو يُخرج من حقيبته ملقطًا ومال على كومة القمامة قائلًا: «إنه مجرد حلقة أخرى في سلسلة الأدلة لا أكثر. ربما وجدنا شيئًا آخر.» والتقط عدة شظايا صغيرة من الزجاج وفحصها عن قرب ثم ألقاها مكانها. وفجأة وقعت عيناه على قطعة زجاج صغيرة في قاعدة الكومة، فالتقطها بالملقط، وأمسك بها بالقرب من عينيه على ضوء المصباح القوي، ثم أخرج عدسته وفحصها بدقة أكبر، ثم قال أخيرًا: «نعم، هذا ما كنت أبحث عنه، أعطني هاتين البطاقتين يا جيرفيز.»

أخرجتُ بطاقتَي الزيارة الملصق عليهما العدستان المُعاد تكوينهما، ووضعتهما على غطاء الحقيبة، وسلطتُ عليهما ضوء المصباح. نظر ثورندايك إليهما بتركيز لبعض الوقت، ثم نظر مرة أخرى إلى قطعة الزجاج الصغيرة التي في يده. بعد ذلك التفت إلى المفتش قائلًا: «لقد رأيتنَي ألتقط قطعة الزجاج هذه، أليس كذلك؟»

رد المفتش: «نعم يا سيدي.»

«ورأيتَ أين وجدنا زجاج النظارة هذا وتعلم من كان صاحبها؟»

«نعم يا سيدي. إنها نظارة الرجل الميت، وقد وجدتَها حيث وجدنا الجثة.»

قال ثورندايك: «رائع، والآن راقب هذا.» وبينما اشرأبَّ المفتش وناظر المحطة وهما مشدوهَان، وضع قطعة الزجاج الصغيرة داخل فراغ في إحدى العدستين ثم وكزها للأمام بلطف، فاستقرت في الفراغ بالضبط، والتصقت حوافُّها بحوافِّ القطع المجاورة لها فاكتمل بها هذا الجزء من العدسة تمامًا.

صاح المفتش: «يا إلهي! كيف عرفت؟»

رد ثورندايك: «سأشرح هذا لاحقًا بلا شك. أما الآن فمن الأفضل أن نُلقيَ نظرة على المنزل من الداخل. أتوقع أن نجد هناك سيجارة — أو سيجارًا — مدهوسة، وبعض البسكويت المصنوع من الحبوب الكاملة، وربما عود ثقاب خشبيًّا، وربما حتى نجد القبعة المفقودة.»

وعلى ذكر القبعة، أسرع المفتش في لهفة إلى الباب الخلفي لكنه وجده محكمَ الغلق، فحاول الدخول من النافذة، فوجدها أيضًا مغلقة بإحكام. وبناء على نصيحة ثورندايك ذهبنا إلى الباب الأمامي.

قال المفتش: «هذا الباب مغلق هو الآخر. أخشى أنه لم يتبقَّ لنا إلا الاقتحام. ولكنه حلٌّ مزعج.»

قال ثورندايك مقترحًا: «ألقِ نظرة على النافذة.»

نفَّذ المفتش الاقتراح، وحاول عبثًا فتْحَ مزلاج النافذة بواسطة سكين الجيب خاصته.

عاد المفتش إلى الباب الأمامي وقال: «لن يُفلح ذلك، سنُضطر إلى …» وهنا قطع جملته وحملق متفاجئًا؛ إذ وجد الباب مفتوحًا وثورندايك يُعيد إلى جيبه شيئًا ما.

خاطبني قائلًا ونحن نتبع ثورندايك إلى داخل المنزل: «صديقُك لا يُهدر الكثير من الوقت، حتى في فتح قفل.» ولكن سرعان ما أسفرتْ تأملاتُه وأفكاره عن مفاجأة أخرى. كان ثورندايك قد سبقَنا إلى غرفة جلوس صغيرة مضاءة بضوء خافت يبعثه مصباحٌ معلَّق خُفِض ضوءُه.

عندما دخلنا زاد ثورندايك إضاءة المصباح وأجال نظرَه عبر الغرفة. كان على الطاولة زجاجة ويسكي ومسكبة، وقدَحٌ وعلبة بسكويت. فأشار ثورندايك إلى العلبة وقال للمفتش: «افتح هذه العلبة وانظر ماذا فيها.»

رفع المفتش الغطاء ونظر إلى داخل العلبة، وتابع ناظر المحطة ما يفعل من فوق كتفه، ثم حدَّقَا معًا في ثورندايك.

صاح ناظر المحطة: «بالله عليك كيف عرفتَ أن في البيت بسكويتًا من الحبوب الكاملة يا سيدي؟»

ردَّ ثورندايك: «ستُحبَط إن أخبرتُك. لكن انظر إلى هذا.» وأشار إلى قاعدة المدفأة، حيث وجدوا سيجارة مبططة ومدخَّنة حتى نصفها وعودَ ثقاب خشبيًّا. حدَّق المفتش في السيجارة وعود الثقاب في دهشة صامتة، بينما استمر ناظر المحطة يحدق بثورندايك فيما لا يسعني وصفُه إلا بالإجلال والمهابة.

قال زميلي: «أظن أن لديك مقتنيات الرجل الميت، أليس كذلك؟»

رد المفتش: «نعم، أحتفظ بالأشياء في جيبي حرصًا على سلامتها.»

التقط ثورندايك السيجارة المبططة وقال: «إذن، فلنُلقِ نظرة على كيس التبغ.»

أخرج المفتش الكيس وفتحه، وصنع ثورندايك فتحةً في السيجارة بسكينه وسأل: «والآن، ما نوع التبغ الموجود في الكيس؟»

أخذ المفتش حفنة من التبغ من الكيس، فتأملها وشمَّها متقززًا، وقال: «إنه أحد تلك الأنواع المقيتة التي يصنعون منها أخلاطًا. لاتاكيا على ما أعتقد.»

أشار ثورندايك إلى السيجارة المفتوحة وسأل: «وما هذا؟»

رد المفتش: «التبغ نفسه، بلا شك.»

قال ثورندايك: «والآن لنرَ ورق اللف.»

أخرج المفتش من جيبه الدفتر الصغير — أو بالأحرى الرزمة الصغيرة؛ إذ كانت تتألف من أوراق منفصلة — ثم سحب ورقةً منه. ووضع ثورندايك ورقة اللف المحترق نصفها بجانبها، وفحص المفتش الورقتين، ثم رفعهما ليشاهدهما على ضوء المصباح.

قال المفتش: «علامة «زيج-زاج» المائية لا تُخطئها العين. المُتوفى هو مَن لفَّ هذه السيجارة، لا شك في ذلك.»

وضع ثورندايك عود الثقاب الخشبي المحترق على الطاولة وقال: «ثمة شيء آخر. ألديك علبة أعواد الثقاب؟»

أخرج المفتش العلبة الفضية الصغيرة، وفتحها وقارن أعواد الثقاب الموجودة داخلها بالعود المحترق، ثم أغلق العلبة بقوة.

قال المفتش: «لقد أثبتَّ رأيك تمامًا. ليتنا نعثر على القبعة، وحينها يُصبح لدينا قضية متكاملة الأركان.»

قال ثورندايك: «لستُ متأكدًا أننا لم نعثر عليها بعدُ. ألم تلاحظ أن شيئًا آخر بخلاف الفحم محترقٌ في المدفأة؟»

هرع المفتش إلى المدفأة متحمسًا وبدأ في جمع ما تركته النار من بقايا محترقة بيدين مضطربتين، وقال: «لم تزَل البقايا دافئة، ويوجد قطعٌ ليست كلها بقايا فحم محترق. لقد أُحرِق حطبٌ هنا بالإضافة إلى الفحم، أما هذه الكتل السوداء الصغيرة فليست فحمًا ولا حطبًا. ربما كانت بقايا قبعة محترقة، ولكن مَن له أن يعرف؟ يمكنك تركيبُ قِطَع عدستَي النظارة المحطمة، ولكن لا يمكنك أن تُعيد قبعة محترقة إلى سيرتها الأولى من بقاياها.» وأمسك بحفنة صغيرة من بقايا أسفنجية سوداء ونظر إلى ثورندايك متحسرًا، فأخذها منه ثورندايك ووضعها على ورقة.

وافقه ثورندايك الرأي قائلًا: «من المؤكد أنه لا يمكننا إعادة تكوين القبعة، ولكن قد يمكننا أن نكتشف أصل هذه البقايا قبل احتراقها. فقد لا تكون بقايا القبعة في نهاية المطاف.» وأشعل عود ثقاب شمعيًّا، ثم أخذ إحدى القِطَع المتفحمة وعرضها للنار.

فاشتعلت الكتلة المحترقة على الفور مصدرةً صوتَ قرقعة وغليان ودخانًا كثيفًا، وسرعان ما امتلأ الجو برائحة صمغية نفَّاذة مختلطة برائحة احتراق مادة من أصل حيواني.

قال ناظر المحطة: «تبدو كرائحة ورنيش.»

ردَّ ثورندايك: «نعم، من نوع شيلاك. ها قد جاءت نتيجةُ الاختبار الأول إيجابية. أما الاختبار الثاني فسيستغرق مزيدًا من الوقت.»

فتح الحقيبة الخضراء وأخرج منها قنينة صغيرة ملائمة لإجراء اختبار مارش للكشف عن الزرنيخ، ومزودة بقُمع أمان وأنبوب لتصريف البخار، وحاملًا ثلاثيًّا قابلًا للطي، ومصباحًا كحوليًّا، وقرصًا من الأسبستوس لاستخدامه كحمام رملي. ثم أسقط في القنينة عددًا من الكتل المحترقة التي اختارها بعد فحص متأنٍّ، ثم ملأ القنينة بالكحول ووضعها على القرص بعد أن وضعه على الحامل الثلاثي، ثم أشعل المصباح الكحولي تحت القرص وجلس ينتظر غليان الكحول.

بعد قليل، عندما بدأت الفقاقيع ترتفع في القنينة، قال ثورندايك: «ثمة شيء آخر يجدر بنا أن نحسمَه. أعطني شريحة عليها قطرة من محلول فارانت يا جيرفيز.»

أعددتُ الشريحة بينما التقط ثورندايك خُصلةً صغيرة للغاية من نسيج مفرش الطاولة بواسطة ملقط، قائلًا: «أعتقد أننا رأينا هذا النسيج من قبل.» ثم وضع الخُصلة الصغيرة في السائل الفوار ووضع الشريحة على منصة المجهر، وبينما كان ينظر في العدسة العينية أردف قائلًا: «نعم، ها هم أصدقاؤنا القدامى، الألياف الصوفية الحمراء، والقطنية الزرقاء، والخيش الأصفر. علينا أن نضع ملصقًا بمصدر هذه العينة عليها على الفور كي لا تختلطَ مع العينات الأخرى.»

سأل المفتش: «هل لديك أي فكرة عن كيفية وفاة الرجل؟»

رد ثورندايك: «نعم. أعتقد أن القاتل استدرجه إلى الغرفة وقدَّم له بعض المرطبات. جلس القاتل في الكرسي الذي تجلس أنت فيه الآن، وجلس برودسكي في هذا الكرسي الصغير ذي الذراعين. أتخيل أن القاتل هاجمه بعد ذلك بذلك القضيب الحديدي الذي وجدناه بين نباتات القراص، ولم يتمكن من قتله بالضربة الأولى، فتعاركا حتى كتم نفَسَه بمفرش الطاولة في نهاية الأمر. بالمناسبة، ثمة نقطة أخرى إضافية. هل تعرفت على هذا الخيط؟» وأخرج من علبة «جمع الأدلة»، الطرف الصغير من الدوبارة التي عثروا عليها عند خط السكة الحديد. أومأ المفتش بالموافقة، فقال ثورندايك: «انظر خلفك وستجد مصدره.»

التفت المفتش بحدَّة، فوقعت عيناه على صندوق خيوط على رف المدفأة. فأخذه، ثم سحب منه ثورندايك قطعةً من دوبارة بيضاء بها فتلة خضراء واحدة، وقارن بينها وبين القطعة التي كانت في يده، وقال: «الفتلة الخضراء تُمكننا من التعرف عليها بشيء من اليقين. لا بد أن الخيط استُخدم لربط المظلة والحقيبة، لا يمكن أن يكون قد حملهما في يده؛ إذ كانت الجثة تُثقل كاهله بالفعل. لكني أتوقع أن تكون عينتنا الأخرى جاهزةً الآن.» رفع القنينة من فوق الحامل الثلاثي، ورجَّها بقوة، وفحص المكونات بعدسته. كان لون الكحول قد استحال الآن إلى البنيِّ الداكن، وقوامه أكثر لزوجة وتماسكًا على نحوٍ ملحوظ.

قال ثورندايك: «أعتقد أن لدينا الآن ما يكفي لإجراء اختبار بدائي.» واختار ماصةً وشريحة من الحقيبة. غمس الماصة في القنينة وسحب بها قطراتٍ من الكحول من القاع، ثم أسقط بعضَ القطرات على الشريحة.

غطَّى قطرات الكحول بشريحة تغطية، ثم وضع الشريحة على منصة المجهر وفحصها بعناية، بينما تابعناه في صمتٍ وترقُّب.

بعد فترةٍ رفع عينه عن المجهر، وسأل المفتش: «هل تعرف مما تُصنع القبعات اللبادية؟»

رد المفتش: «لا علم لي بذلك يا سيدي.»

فقال: «الأصناف الأعلى جودة من القبعات اللبادية تُصنع من أصواف الأرانب الأليفة والبرية. أعني الفراء الذي يغطيها. إذ تُلصق طبقاتُه معًا بالشيلاك. وأغلب الظن أن هذه الكتل المحترقة تحتوي على الشيلاك، وقد وجدتُ تحت المجهر عددًا من شعيرات صغيرة لأرنب. لذا فأغلب ظني أن هذه الكتل المحترقة هي بقايا قبعة صلبة من اللباد، ونظرًا لأن الشعيرات لا تبدو مصبوغةً بأي لون، أعتقد أنها كانت قبعةً رمادية.»

في هذه اللحظة قطع اجتماعَنا صوتُ خُطًى مسرعة قادمة من ممر الحديقة، فالتفتنا جميعًا لنرى مَن القادم، فدخلت امرأة عجوز الغرفة فجأةً.

عقدت المفاجأة لسانها للحظات، ثم أجالت نظرَها فينا واحدًا تلو الآخر، وتساءلت: «من أنتم؟ وماذا تفعلون هنا؟»

هبَّ المفتش واقفًا وأجاب: «أنا ضابط شرطة يا سيدتي. لا يمكنني أن أعطيَكِ مزيدًا من المعلومات الآن، ولكن لو تسمحين لي بالسؤال، مَن تكونين؟»

ردَّت: «أنا مدبرة منزل السيد هيكلر.»

سألها: «وهل تتوقعين عودة السيد هيكلر إلى المنزل قريبًا؟»

ردَّت باقتضاب: «كلا، السيد هيكلر خارج البلاد الآن. لقد غادر على متن القطار المؤدي إلى السفينة هذا المساء.»

سأل ثورندايك: «إلى أمستردام؟»

أجابت مدبرة المنزل: «أعتقد ذلك، وإن كنتُ لا أعلم ما شأنك بذلك.»

ردَّ ثورندايك: «أظن أنه ربما يكون تاجرَ ألماس أو وسيطًا في تجارة الألماس، فالكثير منهم يسافرون على متن هذا القطار.»

ردت السيدة: «هو كذلك بالفعل، له علاقة بالألماس على الأقل.»

قال ثورندايك: «حسنًا، علينا الذهاب يا جيرفيز؛ فقد انتهى عملنا هنا، وعلينا أن نجد فندقًا أو نُزلًا. هل لي بكلمة معك سيدي المفتش؟»

تبعَنا المفتش إلى الحديقة، وقد غلب عليه التواضع والتوقير الآن، ليستمع إلى نصيحة ثورندايك قبل المغادرة.

قال له ثورندايك: «من الأفضل أن تفرضَ سيطرتك على المنزل على الفور، وتتخلص من مدبرة المنزل. يجب ألا يحركَ أحدٌ شيئًا من مكانه. احتفظْ بالبقايا المحترقة، واحمِ كومة القمامة من أيِّ عبث، والأهم ألا تسمحَ بكنس الغرفة. سيُرسَل إليك ضابطٌ ليُعفيَك من المسئولية.»

بعد تبادل كلمات الوداع، انطلقنا في طريقنا يقودنا ناظرُ المحطة، وانتهت صلتُنا بالقضية عند هذا الحد. أُلقيَ القبض على هيكلر (الذي تبيَّن أن اسمه الأول سيلاس)، بعد أن ترجل من الباخرة، ووُجدت معه حزمة من الألماس، تبيَّن أن صاحبها هو أوسكار برودسكي. لكن هيكلر لم يُحاكَم قط؛ إذ تمكَّن خلال رحلة العودة من الإفلات من حرَّاسِه للحظة خاطفة عندما أصبحت السفينة على مقربة من الساحل الإنجليزي. ومرَّ ثلاثة أيام لم تعرف فيها السلطات مصير سيلاس هيكلر، حتى عُثر على جثته مكبلة اليدين على الساحل المهجور بالقرب من منارة أورفوردنيس.

ترك ثورندايك الجريدة من يديه، وقال: «نهاية ملائمة ودرامية لقضية غريبة، ولو لم تخرج عن المألوف. أتمنى أن تكون قد أضافت إلى معارفك يا جرفيز، وأكسبتْك القدرة على التوصل إلى استنتاج مفيد أو أكثر فور رؤية مقدماته.»

أجبتُه بابتسامة عريضة ساخرًا: «أفضِّل أن أستمع إليك تصدحُ بالتفسيرات الطبية الجنائية.»

رد بجدية تهكمية: «أعرف ذلك، وآخذ عليك افتقادك للمبادرة الفكرية. على أي حال، لقد أوضحتْ هذه القضية عددًا من النقاط: أولها: خطر التأخير، أي الأهمية الحيوية

لاتخاذ إجراء فوري قبل أن يتسنَّى لذلك الشيء الهش السريع الزوال الذي نطلق عليه الدليل أن يتبخر. لو كنا تأخرنا بضع ساعات فقط لما عثرنا على معلومة واحدة. ثانيًا: أهمية تتبُّع أبسط الأدلة حتى النهاية، وزجاج عدستي النظارة خير مثال على ذلك. ثالثًا: الحاجة الماسة لوجود عالم مدرب في عون الشرطة؛ وأخيرًا …» وهنا ارتسمت على وجهه ابتسامة وأردف قائلًا: «تعلمنا ألا نغادر البلاد أبدًا بدون الحقيبة الخضراء الغالية.»

مع سبق الإصرار

الجزء الأول

التخلص من السيد برات

لو ورَّد تاجرُ نبيذٍ شحنةً من النبيذ الرخيص إلى عميل كان قد طلب نبيذًا أصليًّا ودفع ثمنه، لعرَّض التاجرُ نفسَه بفعلته هذه لانتقادات صريحة، بل لعقوبات قانونية محددة. ولكن سلوكَه هذا لا يختلف أخلاقيًّا عما تفعله شركة السكك الحديدية عندما تتقاضى من راكب ثمن تذكرة على الدرجة الأولى، ثم تبتليه بصُحبة في العربة كان قد دفع ثمن التذكرة أصلًا لتجنُّبِها. لكن الضمير الجمعي — كما أوضح هربرت سبنسر — هو نتاج فرعي للضمير الفردي.

كانت هذه هي الأفكار التي تدور في رأس السيد روفوس بيمبري عندما كان القطار موشكًا على مغادرة محطة ميدستون (ويست)، وكان رجلًا فظًّا وقويَّ البنية (كان واضحًا أنه من مرتادي الدرجة الثالثة)، قادَه الحارس إلى عربته. وكان قد دفع أجرة أعلى، لا من أجل المقاعد الموسدة الوثيرة، بل من أجل العزلة، أو الصُّحبة الراقية على الأقل. بيد أن دخول ذلك الرجل الآخر حرَمه من الاثنين، وعكَّر صفوه.

ولكن إذا كان في حضور هذا الغريب خرقٌ لما تعاقد عليه السيد روفوس بيمبري بشراء التذكرة، فقد كان في سلوكه تحقير حقيقي وإهانة؛ فلم تكد محركات القطار تدور حتى علَّق الرجل نظره بالسيد بيمبري، وحدَّق فيه بحدة تُناهز الوقاحة، وظل بعد ذلك يرمقه بنظرة ثابتة لا تتزحزح كصنم لا يطرف.

كانت النظرات مسيئةً إلى حدٍّ ما، ومربكةً للغاية أيضًا. راح السيد بيمبري يتململ في مقعده في انزعاج متزايد وانفعال متصاعد. نظر إلى دفتر ملاحظاته، وقرأ خطابًا أو اثنين، وأخذ يرتب مجموعة من بطاقات الزيارة. بل إنه فكَّر في فتح مظلته. وأخيرًا نفد صبرُه، وطفح به الكيل، فالتفت إلى الغريب وخاطبه بلهجة احتجاج بارد.

«أظن يا سيدي أنك لن تجد صعوبة في التعرُّف عليَّ إذا حدثَ أن تقابلنا مرةً أخرى، لا قدَّر الله.»

رد الرجل: «حينها سأميزك ولو من بين عشرة آلاف شخص.» صُعق السيد بيمبري للرد غير المتوقع، حتى إنه لم يجد شيئًا يقوله.

واصل الغريب بلهجة مستفزة: «أتعلم؟ لديَّ موهبة خاصة في تذكُّر الوجوه. لا أنسى وجهًا أبدًا.»

قال بيمبري: «لا بد أن في ذلك الكثير من التعويض والمواساة.»

قال الغريب: «إنها تفيدُني كثيرًا، أو على الأقل كانت تفيدُني عندما كنتُ سجَّانًا في بورتلاند. أظنك تتذكرُني؛ اسمي برات. كنتُ مساعدَ سجَّان خلال قضائك لفترة العقوبة هناك. إن بورتلاند بقعة مهملة نائية، وكم كنتُ أسعد عندما كانوا يُرسلونني إلى البلدة للتعرف على الأشخاص. كانت هولواي مقر الاحتجاز هناك، كما تتذكَّر؛ كان ذلك قبل الانتقال إلى بريكستون.»

توقف برات عن استرجاع ذكرياته، وشحب لون بيمبري وأخذ يلهث من هول المفاجأة، ولكنه حاول أن يتمالك نفسه.

ثم قال: «أعتقد أنك تخلط بيني وبين شخص آخر.»

ردَّ برات: «كلَّا، أنت فرانسيس دوبز، أنت هو. هربت من بورتلاند ذات مساء منذ نحو اثني عشر عامًا، وعُثر على ثيابك على شاطئ بيل في اليوم التالي، بدون أثرٍ للهارب. اختفاء لم أشهد لبراعته مثيلًا قط. لكن ثمة بعض الصور وبصمات الأصابع في سجل معتادي الإجرام، ربما أردتَ أن تأتيَ لرؤيتها، أليس كذلك؟»

رد بيمبري بفتور: «ولِمَ عليَّ أن أذهب إلى سجل معتادي الإجرام؟»

«بالضبط. لِمَ عليك ذلك إذا كنتَ رجلًا موسرًا وإنفاق بعض الأموال بحكمة من شأنه أن يجعل ذهابك إليه غير ضروري؟»

نظر بيمبري من النافذة وظل صامتًا متجهمًا تمامًا لدقيقة أو أكثر. وأخيرًا التفت فجأة إلى برات وسأله: «كم تريد؟»

ردَّ برات بهدوء: «أعتقد أن مائتي جنيه في العام مبلغ لن يضيرَك.»

فكَّر بيمبري لوهلة، ثم سأله: «وما الذي يجعلك تظن أنني موسر؟»

ابتسم برات ابتسامة مقيتة وأجابه: «باركك الرب يا سيد بيمبري. إنني أعرف عنك كلَّ شيء. فقد كنتُ أسكن على بُعد نصف ميل من منزلك على مدى الأشهر الستة الأخيرة.»

رد بيمبري: «يا لك من شيطان!»

قال برات: «نعم. عندما تقاعدتُ من الخدمة، عيَّنني الجنرال أوجورمان حارسًا أو مديرًا من نوع ما لمنزله الصغير في بيسفورد، ولم يَعْتَد المجيء إلى هناك إلا فيما ندر، ومنذ

اليوم الأول لوصولي إلى هناك، رأيتُك وعرفتُك، ولكن بطبيعة الحال لم أدعْك تراني. خطر ببالي أن أعرف إذا ما كان بوسعي الاستفادة منك بأي شكل قبل أن أشيَ بك، فتحسستُ أنباءك حتى عرفتُ أن بإمكانك أن تدفع لي المائتين.»

ساد صمتٌ مؤقت، ثم تابع حارس السجن السابق الحديث قائلًا: «هذه فائدة أن يكون لديك ذاكرة للوجوه. الآن لدينا على الجانب الآخر، جاك إيليس؛ لا بد أنك كنت أمام عينيه لبضع سنوات، ومع ذلك لم يعرفك قط، ولن يعرفك أبدًا.» ولم يكَدْ يُنهي جملته حتى ندم على ما دفعه غرورُه لأن يُفصح به.

سأل بيمبري بحدة: «ومن يكون جاك إيليس؟»

أجابه: «يمكنك القول إنه عمالة زائدة بمركز شرطة بيسفورد، ويتولى مهامَّ صغيرة متنوعة؛ فتارة يكون محققًا ريفيًّا، وتارة يساعد في المكتب وما إلى ذلك. كان في الحرس المدني في بورتلاند خلال فترتك هناك، ولكن قُطعت سبَّابتُه اليسرى فأُحيل للتقاعد؛ ونظرًا لأنه كان من رجال بيسفورد أعطوه هذا المنزل. لكنه لن يتعرف عليك أبدًا، لا تقلق بشأنه.»

قال بيمبري: «إلا إذا لفت نظره إليَّ.»

قال برات ضاحكًا: «لا تخَفْ من ذلك. يمكنك أن تثق بأنني سأُبقي سرَّك طيَّ الكتمان. وعلاوة على ذلك، فلستُ على وفاق معه. لقد جاء إلى المنزل يسعى وراء الخادمة، رغم أنه متزوج. ولكني سرعان ما طردتُه، أؤكد لك. إنني لا أروق إلى جاك إيليس الآن.»

قال بيمبري متفكرًا: «أفهم ذلك.» وتوقف لوهلة ثم سأله: «من الجنرال أوجورمان؟ يبدو الاسم معروفًا لي.»

قال برات: «توقعتُ ذلك. لقد كان حاكمَ دارتمور عندما كنتُ هناك — كانت مقرَّ عملي الأخير — ودعْني أخبرْك، لو كان في بورتلاند خلال فترة سجنك، لما تمكنتَ قط من الهرب.»

«كيف ذلك؟»

«إن الجنرال يهوى كلاب الصيد، وكان لديه قطيعٌ منها في دارتمور، وكان النزلاء الدائمون هؤلاء يعرفون هذا جيدًا. فلم يجرؤ أحدُهم على محاولة الهرب؛ إذ لم يكن لتسنحَ لهم أيُّ فرصة لذلك.»

سأل بيمبري: «ولا يزال محتفظًا بقطيع الكلاب هذا، أليس كذلك؟»

أجابه برات: «أجل. ويقضي الكثير من الوقت في تدريبها كذلك. لطالما تمنَّى أن يقع حادثُ سطو أو جريمة قتل في الحي ليجربها، ولكنه لم يحظَ بالفرصة بعد. ربما سمع

بها المجرمون. لكن دعْنا نَعُد إلى موضوعنا: ما قولك في المائتين؟ يمكنك أن تدفع لي دفعة منها كلَّ ثلاثة أشهر، إذا أردت.»

رد بيمبري: «لا يمكنني أن أحسم أمري على الفور. عليك أن تُمهلَني بعض الوقت لأفكر في الأمر.»

قال برات: «حسنًا، سأعود إلى بيسفورد مساء الغد، وبهذا سيكون أمامك يومٌ كامل للتفكير في الأمر. هل آتي إلى منزلك غدًا ليلًا؟»

رد بيمبري: «كلَّا، الأفضل ألا يراك أحد في منزلي، ولا يراني أحدٌ في منزلك. إذا التقيتُكَ في مكان هادئ لا يرانا فيه أحدٌ، فسنتمكن من تسوية أمورنا بدون أن يعرف أحدٌ بلقائنا. لن يستغرق اللقاء وقتًا طويلًا، ويجب ألا نخاطر.»

وافقه برات: «هذا صحيح. حسنًا، إليك ما سنفعل. ثمة جادة تؤدي إلى منزلي، أظنك تعرفها. لا توجد غرفةُ حارس هناك، والبوابات دائمًا تكون مفتوحة جزئيًّا عدا ليلًا. سأكون في بيسفورد في السادسة والنصف. المنزل على بُعد ساعة إلا ربع من المحطة. لنلتقِ في الجادة في الساعة السابعة إلا ربع.»

رد بيمبري: «سيناسبني ذلك، هذا إذا كنت متأكدًا أن كلاب الصيد لا تتجول في الجوار في هذا الوقت.»

قال برات ضاحكًا: «فليباركك الرب. هل تعتقد أن الجنرال يترك كلابَه الغالية تتجول في الجوار ليجدَها أيُّ لصٍّ عابر ويُطعمها النقانق المسمومة؟ كلَّا، إنها قابعة في أمان في بيوتها المغلقة عليها وراء المنزل. آه، المحطة القادمة هي سوانلي على ما أعتقد. سأنتقل إلى منطقة تدخين هنا وسأترك لك وقتًا لتقلب الأمر في عقلك. إلى اللقاء. موعدنا غدًا مساءً في الجادة الساعة السابعة إلا ربع. بالمناسبة يا سيد بيمبري، يمكنك أن تُحضرَ معك الدفعة الأولى من المبلغ؛ خمسين جنيهًا، في صورة أوراق نقدية من فئات صغيرة، أو ما يكافئ المبلغ ذهبًا.»

رد السيد بيمبري: «وهو كذلك.» كان يتظاهر بالبرود رغم احمرار وجنتَيه والتماع عينيه من فرط الغضب، وهو ما لاحظه السجان السابق على الأرجح؛ إذ إنه بعد أن خرج وأغلق الباب وراءه مدَّ رأسه من النافذة وقال مهددًا:

«كلمة أخيرة يا سيد بيمبري-دوبز: إياك والألاعيب. أنت تعرف أني لستُ ابنَ البارحة ولستُ غبيًّا كذلك. فلا تحاول خداعي بأي حال!» وسحب رأسه واختفى، تاركًا بيمبري لأفكاره.

لو نحَّى أحدُ العالمين بالتخاطر مهام البحث عن الباحات الخفية أو الأدوات المفقودة جانبًا، وركز انتباهه على الشئون العملية الأهم، فنقلَ الأفكار التي كانت تدور في ذهن السيد بيمبري إلى ذهن السيد برات، لتفاجأ هذا السجان السابق وربما ساوره القلقُ من طبيعة هذه الأفكار. فقد جعلته خبرتُه الطويلة بالمجرم، عندما كان سجينًا، يكوِّن في رأسه أفكارًا مضللةً نوعًا ما عن سلوكه الآن وهو حرٌّ طليق. لقد استهان السجَّان السابق بالسجين السابق كثيرًا في واقع الأمر.

كان روفوس بيمبري، وهو اسمه الحقيقي — إذ لم يكن دوبز سوى اسم مستعار — رجلًا قويَّ الشكيمة حادَّ الذكاء. ولذلك وبعد أن جرب حياة الإجرام ووجدها لا تستحق العناء، تركها بلا رجعة. وعندما رست به سفينة الماشية التي أقلته من بورتلاند بيل إلى ميناء أمريكي، استغل كلَّ قدراته وطاقته في مشروعات تجارية مشروعة، وأصاب فيها نجاحًا مكَّنه بعد عشر سنوات من العودة إلى إنجلترا بقدر من الوجاهة. واشترى بعد ذلك منزلًا متواضعًا بالقرب من بلدة بيسفورد الصغيرة، وعاش فيه منعزلًا على مدى السنتين الأخيرتين معتمدًا على مدخراته، معتزلًا المجتمع المحلي المحيط به بدون أن يجد في عزلته صعوبة تُذكر، وكان سيعيش هنا ما تبقى من العمر في سلام لولا الحظ العاثر الذي جعل برات هذا يأتي إلى الحي. لقد قوَّض قدومُ برات إلى الحي أُسسَ أمنِه وسلامه تمامًا.

ثمة شيء مزعج للغاية في التعامل مع المُبتز؛ فهو لا يلتزم باتفاق على الدوام، ولا يفي بتعهد قطعه على نفسه. فيظل ما يبيعه في حوزته ليبيعه مرة أخرى. يتقاضى أجر تحرير العبد ويُبقي على مفاتيح أصفاده. خلاصة القول أن المُبتز شخص يصعب التعامل معه.

هذا ما دار بخلد روفوس بيمبري، حتى قبل أن يفرغ برات من عروضه، التي لم يفكر ولو للحظة في قبولها. لم تكن نصيحةُ السجَّان السابق له بأن «يقلب الأمر في عقله» ضروريةً؛ إذ كان قد حزم أمره بالفعل. لقد اتخذ قراره منذ اللحظة التي كشف فيها برات عن هويته. كانت النتيجة بديهية. قبل ظهور برات كان يعيش في أمن وسلام. وحينما وُجد كانت حريته مهددةً طوال الوقت. فإذا اختفى برات، فسيستعيد أمنَه وسلامه. إذن لا بد من التخلص من برات.

كانت نتيجة منطقية.

لذا لم تكن للتأملات العميقة التي ظل بيمبري مستغرقًا فيها لما تبقَّى من الرحلة أيُّ صلة بالدفعة المطلوبة كلَّ ثلاثة أشهر، بل كانت منصبةً بالكامل على التخلص من السجان السابق برات.

لم يكن روفوس بيمبري رجلًا عنيفًا. بل لم يعرف القسوة حتى، ولكنه حُبي بموهبة في التشاؤم والارتياب في نوايا الآخرين، جعلته يتجاهل تفاهاتِ العاطفة، ويركز فقط على الأمور الأساسية. فلو حدث أن حامَ دبور حول قدح شاي يشربه، لسحقه، ولكن ليس بيديه، فالدبور يحمل وسائل الاعتداء ويضع جلَّ تركيزه على مهاجمته، أما هو فشغله الشاغل فهو تجنُّب لسعته.

وهكذا كان الحال مع برات. لقد اختار برات أن يتربح من وراء تهديد حرية بيمبري، إذن هو من جنى على نفسه. ولم يعبأ بيمبري بذلك. لم يكن يشغله سوى سلامته الشخصية.

عندما ترجل بيمبري من القطار في محطة تشارينج كروس، توجه (بعد أن شاهد برات يغادر المحطة) إلى شارع باكينجهام المتفرع من شارع ستراند، حيث دلف إلى فندق خاص هادئ. كان واضحًا أن القائمين على الفندق كانوا على علم بمجيئه؛ إذ رحبت به المديرة باسمه وهي تعطيه المفتاح.

سألته المديرة: «هل ستبقى في البلدة طويلًا يا سيد بيمبري؟»

فأجابها: «لا، سأعود صباح الغد، ولكني قد أعود مجددًا بعد فترة قصيرة. بالمناسبة، كانت لديكم موسوعة في إحدى الغرف. هل لي أن أطالعها للحظة؟»

قالت المديرة: «إنها في غرفة الاستقبال. هلا جئت معي؟ لكنك تعرف الطريق إليها، أليس كذلك؟»

كان السيد بيمبري يعرف الطريق بكل تأكيد. كانت غرفة الاستقبال في الطابق الأول، وهي غرفة مبهجة قديمة الطراز تطلُّ على الشارع القديم الهادئ، وعلى أحد أرففها قبعت مجلدات موسوعة تشامبرز محاطةً بمجموعة من الروايات.

ليس من المُستغرب للمتابع العادي أن يودَّ رجل من الريف أن يبحث في موضوع «الكلاب». ولكن عندما ينتقل من البحث في موضوع الكلاب إلى القراءة عن الدم، ومنه إلى العطور، فقد يُثير ذلك قدرًا من الاستغراب، ويزداد هذا الاستغراب في حالة تتبُّع ما أقدم عليه السيد بيمبري فيما بعد، وخاصة عند الأخذ في الاعتبار أن الهدف المباشر من أفعال السيد بيمبري تلك هو التخلص من شخص غير مرغوب فيه.

بعد أن أودع حقيبته ومظلته في الغرفة، خرج بيمبري من الفندق ولديه هدف محدد، وقادته خطواتُه أولًا إلى متجر مظلات في شارع ستراند، وانتقى من المتجر عصا من الخيزران الهندي الغليظ. ربما لم يكن ثمة شيءٌ لافتٌ بالعصا، إلا أنها كانت ذات سماكة

غير مناسبة، وهو ما حدا بالبائع لأن يُبديَ استغرابه واعتراضه على اختياره لها. فقال السيد بيمبري: «أحبُّ العِصِيَّ الغليظة.»

رد البائع: «نعم يا سيدي، لكن بالنسبة إلى شخص في طولك، أقترح لك ...» (وكان السيد بيمبري ضئيل البنية.)

قاطعه بيمبري مكررًا: «أحبُّ العِصِيَّ الغليظة. قصِّرْها إلى الطول المناسب ولا تُثبت الحلقة المعدنية فوقها. سأفعل ذلك بنفسي عندما أعود إلى المنزل.»

بدت خطوة بيمبري التالية أكثر تماشيًا مع ما انتواه، وإن أوحت ببدائية غير متوقعة للوسيلة التي اختارها. فقد سعى لشراء سكين نرويجية كبيرة. ولكن لم تفِ السكينُ الأولى وحدها بغرضه، فاشترى سكينًا أخرى مطابقة للأولى تمامًا من بائع سكاكين آخر. لماذا أراد سكينين متطابقتين تمامًا؟ ولماذا لم يشترهما من المتجر نفسه؟ كان أمرًا في غاية الغموض.

بدا التسوق هوسًا محببًا لدى روفوس بيمبري. ففي خلال النصف الساعة التالية، اقتنى حقيبةَ يدٍ رخيصة، وعلبةَ فُرَشِ رسمٍ ذات لون أسود لامع، ومبردًا ثلاثيًّا، وإصبعَ غراء لاصق، وماسكَي بوتقة حديديَّين. ولم يكتفِ بذلك، فتوجه إلى صيدلية قديمة الطراز في شارع فرعي، واشترى عبوة من القطن الطبي الماص، وأونصة من مادة برمنجنات البوتاسيوم، وبينما كان الصيدلي يحزم كلَّ هذه الأغراض معًا وقد أحاطت به تلك الهالةُ السحرية الغامضة المميزة للصيادلة، راح بيمبري يراقبه في جمود دون أن يُبديَ أيَّ مشاعر.

ثم سأله بلا اهتمام: «ليس لديكم مسكٌ على ما أظن، صحيح؟»

توقَّف الصيدلي لوهلة عن تسخين عود الشمع الذي كان سيُغلق به الحُزمة، وفتح فمه كما لو كان سيُلقي تعويذة. ولكنه أجاب ببساطة قائلًا: «كلَّا سيدي، ليس لدينا مسكٌ صلب؛ فهو مكلف للغاية. لكن لدينا خلاصة المسك.»

قال بيمبري: «أظن ليس بقوة المسك النقي، أليس كذلك؟»

رد الصيدلي بابتسامة غير مفهومة: «كلَّا، ليس بالقوة نفسها، ولكنه قويٌّ بما يكفي. هذه العطور ذات المصدر الحيواني نفاذة للغاية كما تعلم، وتدوم طويلًا. لا أبالغ إن قلتُ إنك لو رششت ملءَ ملعقة طعام من هذا المستخلص في وسط كاتدرائية سانت بول، لظلت الرائحة تفوح منها لستة أشهر بعد ذلك.»

رد بيمبري: «حقًّا؟! حسنًا، أعتقد أنه سيفي بالغرض. أعطني كمية صغيرة منه من فضلك، وبالله عليك تأكَّد من عدم وجود أيِّ أثر له على العبوة من الخارج. فهو ليس لي أنا، ولا أود أن تصبح رائحتي كرائحة قط الزباد.»

وافقه الصيدلي: «بالطبع يا سيدي.» ثم أخرج عبوة سعة أونصة واحدة، وقمعًا زجاجيًّا صغيرًا، وزجاجة ذات سدادة، ثم أخذ يعبئ الزيت في العبوة بحركات بارعة وخفة يد كالسحرة.

عندما انتهى من عمله قال: «هاك، يا سيدي. لم تسقط قطرة واحدة خارج العبوة، وإذا أحكمتَ غلقها بسدادة من المطاط، ستكون في مأمن تمامًا من أيِّ تسرُّبٍ.»

انسحب الصيدلي إلى غرفة خلفية كما لو كان سيحادث شبحًا مألوفًا له في أمرٍ ما (ولكنه في الواقع كان يفكُّ عملة معدنية من فئة نصف كراون)، وفي هذه اللحظة بدا نفور بيمبري من المسك مفرطًا؛ إذ أخرج علبة الفرش من حقيبته، وأزال غطاءها، ثم حمل عبوة المسك بالماسكين من أعلى منضدة الصيدلية بتؤدة، وأودعها في علبة الفُرَش، وغطَّاها بالغطاء، وأعادها والماسكين إلى الحقيبة. ثم أخذ الحزمتين الأخريين من أعلى المنضدة ووضعهما في جيبه، وعندما خرج الصيدلي الساحر من الغرفة بعدما حوَّل النصف الكراون إلى أربعة بنسات وأعطاه الباقي، غادر بيمبري الصيدلية وعاد إلى شارع ستراند مستغرقًا في التفكير. وفجأة بدا كأن فكرة جديدة قد خطرت له. فتوقف وفكر للحظات ثم وسَّع الخُطَى شمالًا ليبتاع أغرب مشترياته كافة.

توجَّه بيمبري إلى متجر في سيفن ديالز، شملت بضائعُه الغريبة كلَّ ما ينتمي إلى المملكة الحيوانية، من الحلزون المائي حتى قطط الأنجورا. شاهد بيمبري في نافذة العرض قفصًا من الخنازير الغينية المستخدمة في التجارب، ثم دلف إلى المتجر.

سأل بيمبري البائع: «أيصدف أن يكون لديك خنزير غيني ميت؟»

أجابه: «كلَّا، كلُّ ما لدينا منها على قيد الحياة ...» ثم أضاف بابتسامة خبيثة: «لكنها ليست خالدة، كما تعلم.»

نظر بيمبري إلى الرجل بامتعاض. خطر بباله أوجهُ الشبه بين الخنزير الغيني والمُبتز، ثم قال: «أي نوع من الثدييات الصغيرة الحجم سيفي بالغرض.»

قال البائع: «ثمة فأر نافق في ذلك القفص، إن كان سيُجديك أيَّ نفع. لقد نفق هذا الصباح، ولا يزال طازجًا.»

قال بيمبري: «سآخذ الفأر إذن؛ سيفي بالغرض تمامًا.»

وعلى ذلك حزم البائع الفأر الصغير النافق في علبة ووضعه في الحقيبة ومنحه بيمبري إكرامية، ثم عاد أدراجه إلى الفندق.

بعد أن تناول غداءً متواضعًا، انطلق إلى الخارج وقضى المتبقي من اليوم في الاهتمام بالأعمال التجارية التي جاءت به إلى البلدة أصلًا. تناول العشاءَ في أحد المطاعم، ولم يَعُد إلى الفندق حتى الساعة العاشرة، حين أخذ مفتاح غرفته، ودخلها حاملًا علبةً تحت إبطه، وقرر أن يخلد إلى النوم. ولكن بعد أن أحكم غلق الباب وقبل أن يخلع ملابسه فعل شيئًا غريبًا جدًّا وغير مفهوم. فبعد أن خلع عن العصا التي اشتراها مقبضها المعدني المفكوك، استخدم الطرف المدبَّب للمبرد ليُحدثَ فيها ثقبًا من أسفل، ثم استخدم المبرد كمثقاب لتوسيع الثقب حتى لم يتبقَّ من الجزء السفلي من العصا إلا حافة صغيرة. وبعد ذلك، كوَّر قطعة صغيرة من القطن الطبي وحشرها داخل المقبض المعدني، ووضع بعض الغراء اللاصق على طرف العصا، ثم أعاد الطرف المعدني إلى مكانه على العصا، وسخَّن موضع التقاء العصا بالمقبض المعدني ليلتصقَا بالغراء.

عندما فرغ من أمر العصا حوَّل انتباهه إلى إحدى السكينين النرويجيَّتين. فاستخدم المبرد أولًا بحرص شديد لإزالة معظم الطلاء الأصفر الفاتح من فوق المقبض الخشبي للسكين.

بعد ذلك فتح السكين وقطع رباطَ العلبة التي جلبها معه، وأخرج منها الفأر النافق الذي اشتراه من متجر الحيوانات، فوضعه على ورقة وقطع رأسه، ثم أمسك به من ذيله ودلَّاه فوق السكين ليسمح للدم بأن ينسال عليه من الرقبة، وأخذ يوزع الدم على جانبي النصل والمقبض بإصبعه.

بعد ذلك وضع السكين على الورقة وفتح النافذة برفق، فارتفع إليه من ظلام الشارع صوتُ قطٍّ بدا كأنه يحاول تحسين قدراته في غناء السُّلَّم الموسيقي بأكمله، فطوَّح بيمبري جسد الفأر ورأسه في اتجاهه، ثم أغلق النافذة. وفي النهاية وبعد أن غسل يديه وألقى بالورق الذي كانت الحزمة ملفوفةً به في المدفأة، خلد للنوم.

لم يقِلَّ ما أقدم عليه في اليوم التالي غموضًا، فبعد أن تناول فطورَه في وقت مبكر عما اعتاد، عاد إلى غرفة نومه وأغلق عليه بابه، بعدها ربط عصاه الجديدة بقائم المزينة، بحيث كان مقبض العصا إلى الأسفل. وبعد ذلك استخدم الماسكَين المعدنيَّين في إخراج عبوة المسك الصغيرة من علبة الفُرَش، وأخذ يتشمم العبوة من الخارج ليتأكد من خلوها من الرائحة، ثم سحب السدادة المطاطية، وجعل يُسقط بضعَ قطرات من خلاصة المسك

— تعادل نصف ملعقة صغيرة — بتأنٍّ بالغ على القطن الطبي الذي كان بارزًا من الفجوة التي صنعها في مقبض العصا المعدني، وأخذ يراقب القطن الماص وهو يمتص السائل ببطء. وعندما تشبَّع بالمسك شرع في التعامل مع السكين بالمثل، فأسقط قطرة من خلاصة المسك على المقبض الخشبي فامتصه بسرعة. ولما فرغ من ذلك، فتح النافذة وأطل منها. فوجد أسفل منه مباشرة باحة صغيرة جدًّا نما بها بعضُ شجيرات إكليل الغار الذابلة. لم يرَ جسم الفأر في أي مكان، كما لو كان تبخر في ظلام الليل. دلَّى عبوة المسك من النافذة، التي كان لا يزال ممسكًا بها، ثم أسقطها بين الشجيرات، وألقى بسدادتها المطاطية وراءها.

بعد ذلك أخذ من علبة أدوات الزينة أنبوبًا من الفازلين، وبَثَقَ منه كمية صغيرة على أصابعه، ودهن بها حافة علبة الفرش والجزء الداخلي من الغطاء بالكامل ليتأكد من إحكام غلقها. بعد ذلك مسح أصابعه، وأمسك السكين بالماسك المعدني، فوضعه داخل علبة الفرش، وأغلق العلبة بالغطاء على الفور. ثم سخَّن أطراف الماسكين على موقد الغاز للتخلص مما علِق بهما من رائحة، وبعد ذلك وضع الماسكين وعلبة الفرش في الحقيبة، وفكَّ العصا متجنبًا ملامسة مقبضها المعدني، ثم حمل الحقيبتين وخرج حاملًا العصا من منتصفها.

لم يجد صعوبة في العثور على عربة شاغرة في القطار؛ إذ كان ركاب الدرجة الأولى قليلين في هذا الوقت من الصباح. انتظر بيمبري على رصيف المحطة حتى انطلقت صافرةُ الحارس، فدخل عربته، وأغلق الباب ووضع العصا على المقعد تاركًا مقبضها المعدني يخرج من النافذة الجانبية، وظلت العصا على وضعها هذا حتى توقف القطار في محطة بيسفورد.

ترك بيمبري حقيبته الخاصة في غرفة الأمتعة، ومضى في طريقه بينما لا يزال ممسكًا العصا من منتصفها. كانت بلدة بيسفورد تقع شرق المحطة بنصف ميل تقريبًا، وكان منزله يبعد عنها ميلًا من جهة الغرب على الطريق، أما منزل الجنرال أوجورمان فكان يقع في منتصف الطريق بين منزله والمحطة. كان بيمبري يعرف المكان جيدًا. كان منزل الجنرال في الأصل منزلًا ريفيًّا يقع على حافة مساحة شاسعة من المروج المستوية، تربطه بالطريق جادةٌ طولها نحو ثلاثمائة ياردة تصطفُّ الأشجار العتيقة على جانبَيها. كانت الجادة منفصلة عن الطريق بواسطة بوابتين حديديتين، لكنهما كانتَا للمظهر العام لا أكثر؛ فقد كانت الجادة غير مسيَّجة ويمكن الوصول إليها من المروج المحيطة، وبالفعل كان ثمة ممر مشاة غير واضح يقطع المروج وتقاطع مع الجادة في منتصفها تقريبًا.

في هذه المرة، كانت الجادة هي هدف بيمبري، فقرر الوصول إليها من ممر المشاة، وكان كلما مرَّ بحاجز أو سياج يتوقف ليتفقد المنطقة المحيطة. وبعد قليل أصبحت الجادة على مرأًى منه، ولم يفصله عنها سوى الممر الضيق، فمرَّ بين شجرتين لدخول الجادة، ثم توقف مجددًا ليتفقد المكان من حوله.

وقف مكانه لوهلة يُنصت، فلم يسمع سوى حفيف أوراق الأشجار الخافت. كان واضحًا أن أحدًا لم يكن بالجوار؛ ونظرًا لأن برات كان يتجول بحريَّة، فأغلب الظن أن الجنرال كان غائبًا عن المنزل.

شرع بيمبري يفحص الأشجار المجاورة باهتمام زائد. كانت إحدى الشجرتَين اللتين مرَّ بينهما شجرة دردار والأخرى شجرة بلوط باسقة مقطوع أعلاها، يمتدُّ جذعُها العملاق المليء بالنتوءات الصغيرة لسبع أقدام ثم ينقسم إلى ثلاثة أفرع، كلٌّ منها يضاهي في الحجم شجرةً متوسطة، وينحني أكبرُها إلى الخارج في قوس كبير باتجاه الجادة فيصل إلى منتصفها. أولَى بيمبري هذا الفرعَ الأكبر اهتمامًا خاصًّا، فدار حوله دورةً كاملةً ثم وضع حقيبته أرضًا وأسند عليها العصا مُبعدًا مقبضها المعدني عن الأرض، حتى يستطيع تسلُّقَ الفرع معتمدًا على ما به من نتوءات لفحص أعلى الشجرة، ولم يكد يصل إلى مفترق الأفرع الثلاثة حتى سمع صرير البوابتين الحديديتين تلاه صوتُ خُطًى مسرعة في الجادة. فنزل عن الشجرة مسرعًا، ولملم متعلقاتِه ووقف خلف جذع الشجرة الضخم ملتصقًا به.

«هنا لا يمكن لأحد رؤيتي.» هكذا حدَّث نفسه وهو يلتصق بالشجرة مختبئًا وراءها وينتظر، وأخذ يخطف نظراتٍ حذرة من وراء الجذع. لم يمضِ وقتٌ طويل قبل أن يظهر ظلٌّ متحرك أعلن عن اقتراب الغريب منه، فالتفَّ بيمبري حول الجذع حتى يكون حائلًا بينه وبين الغريب القادم كي لا يراه. اقتربت الخُطَى أكثر حتى أصبح الغريبُ جنبًا إلى جنب مع الشجرة، وبعد أن تجاوزها اختلس بيمبري نظراتٍ سريعةً إلى الظل المبتعد. لم يكن سوى ساعي البريد، ولكن الرجل كان يعرفه فأدرك بيمبري أنه قد أحسن التصرف باختبائه.

كان واضحًا أن شجرة البلوط لم تفِ بالغرض الذي كان في نفسه، فنزل عنها وأخذ يبحث عن غيرها في الجادة. وقعت عيناه على شجرة بوق عتيقة مقطوعة الرأس خلف شجرة الدردار؛ كانت شجرةً غريبة وعظيمة يتسع جذعها في شكل إكليل عريض كلما ارتفع، فبدت كبوق حقيقي، وبرزت من حافتها أفرع غزيرة متشابكة بدت كأطراف وحش غريب الشكل.

لاقت شجرة البوق استحسانه على الفور، ولكنه ظل مختبئًا خلف شجرة البلوط حتى اجتاز ساعي البريد الجادة بينما كان عائدًا بخُطًى نشيطة وهو يصفر بابتهاج، تاركًا إياه مرة أخرى وحيدًا. فانطلق في عزم إلى شجرة البوق.

كان ارتفاع قمة الجذع عن الأرض يبلغ بالكاد ست أقدام، فأمكنه الوصول إليه بسهولة حين حاول تسلُّقَه. أسند العصا إلى الشجرة موجِّهًا المقبض المعدني إلى الأسفل هذه المرة، وأخرج علبة الفُرَش من الحقيبة وفتح غطاءها، واستخدم الماسكَين المعدنيَّين لرفع السكين ثم خبَّأها في قمة الشجرة بعيدًا عن الأعين، ومعها الماسكان، بحيث ظلَّا قابضَين على السكين. كان على وشك أن يُعيدَ علبة الفرش إلى الحقيبة، ثم بدا أنه غيَّر رأيه. فحين تشمَّمها وجدها تفوح برائحة العطر النفاذة، فغطاها مرة أخرى ثم رماها إلى أعلى الشجرة حيث سمعها تتدحرج داخل تجويف الجذع. بعد ذلك أغلق الحقيبة، وأمسك العصا من مقبضها وعاد متمهلًا من حيث أتى، وخرج من الجادة من بين شجرتَي الدردار والبلوط.

كان تقدُّمُه في طريق عودته يسير على نمط غريب. فقد أبطأ لدرجة لافتة، وخطَّ طريقه بالعصا أثناء مشيه، وكان يتوقف من وقت لآخر ليضغط بالمقبض المعدني للعصا على الأرض، حتى إذا رآه أحدٌ يحسبه مستغرقًا في تفكير عميق.

وهكذا ظل يمضي قُدُمًا عبر الحقول بالطريقة نفسها لكنه لم يَعُد إلى الطريق الرئيسي، بل قطع عددًا من الحقول الأخرى حتى وصل إلى زقاق ضيق أوصله إلى الشارع الرئيسي. كان مركز الشرطة مواجهًا للزقاق مباشرة، لم يميِّزه عن الأكواخ المتاخمة سوى مصابيحه وبابه المفتوح واللافتات الملصقة خارجه. سار بيبمري عبر الطريق في خط مستقيم وهو لم يَزَل يخطُّ الطريق بعصاه، وتوقف عند باب مركز الشرطة ليقرأ اللافتات مسندًا عصاه إلى الباب. وعبر الباب المفتوح شاهد رجلًا جالسًا إلى مكتبه يكتب. كان ظهر الرجل موجهًا نحوه، لكن بعد قليل تحرك الرجل في جلسته فأصبحت يدُه اليسرى على مرأًى من بيمبري، فلاحظ بيمبري أن السبابة غير موجودة. هذا هو جاك إيليس إذن، الذي كان من الحرس المدني في بورتلاند.

وبينما كان ينظر إليه، إذا بالرجل يدير رأسه فتعرف بيمبري عليه على الفور. فكثيرًا ما التقاه على الطريق بين بيسفورد وقرية ثورب المجاورة لها، ودائمًا في الوقت نفسه. يبدو أن إيليس اعتاد زيارة قرية ثورب يوميًّا — ربما لتلقِّي تقريرٍ يوميٍّ من شرطي القرية — وكان يبدأ رحلتَه بين الساعة الثالثة والرابعة، ويعود بين السابعة والسابعة والرُّبع.

تفقَّد بيمبري ساعته. كانت الساعة الثالثة والربع. فابتعد مستغرقًا في التفكير (ممسكًا بالعصا من منتصفها مجددًا)، وبدأ في المشي ببطء غربًا نحو قرية ثورب.

كان باله منشغلًا لوهلة، واكتسى وجهه تقطيبة حائرة. وفجأة زال عن وجهه العبوس وتسارعت خطاه. وبعد قليل عبر فجوة في السياج الشجري، ومشى في حقل موازٍ للطريق، ثم أخرج كيس نقوده الصغير المصنوع من جلد الخنزير. وبعد أن أفرغه من كل محتوياته، عدا بعض الشلنات، دس المقبض المعدني لعصاه في الجيب الصغير المخصص في الأصل للقِطَع الذهبية أو الأوراق النقدية.

وهكذا واصل مسيره متمهلًا، حاملًا العصا من منتصفها ومثبتًا كيس النقود في طرفها.

بعد فترة وصل إلى منعطف مزدوج حاد في الطريق، حيث كان بمقدوره أن يرى مسافة كبيرة من الطريق وراءه، فجلس وانتظر مكانه أمام فتحة صغيرة. حجب السياجُ الشجري رؤيةَ المارة له — رغم قلة أعدادهم — دون أن يُعيقَ رؤيته هو.

مرت ربع ساعة، فبدأ يتململ. هل أخطأ؟ هل كان إيليس يزور القرية من وقت لآخر وليس يوميًّا كما ظن؟ لو كان الأمر كذلك فسيكون الوضع مزعجًا، وإن لم يصل إلى حدِّ الكارثة. وبينما هو مستغرق في أفكاره، ظهر ظلُّ شخص ما في مجال رؤيته يحثُّ الخُطَى بوتيرة ثابتة، وتعرَّف بيمبري عليه. لقد كان إيليس.

ولكنَّ ثمة شخصًا آخر كان يتقدم نحوه من الاتجاه المقابل؛ كان عاملًا على ما يبدو. استعد بيمبري للتحرك، لكن نظرة خاطفة أخرى جعلته يدرك أن العامل سيمرُّ به أولًا. انتظر بيمبري حتى وصل العامل وعبر الفتحة أخيرًا، في حين اختبأ إيليس لوهلة عند منعطف على الطريق. أخرج بيمبري عصاه من فتحة السياج الشجري في الحال، وأخذ يهزها فأسقط عنها كيس النقود ودفعه إلى منتصف طريق المشاة. وأخذ يتقدم ببطء من وراء السياج الشجري نحو الضابط القادم، وجلس ينتظر مرةً أخرى. اقتربت خُطَى الضابط الغافل الثابتة حتى تخطَّاه، وأزاح بيمبري غصنًا أعاق رؤيته وشاهده يبتعد. كان السؤال الآن: هل سيرى إيليس كيس النقود؟ فلم يكن لافتًا للأنظار إلى حدٍّ كبير.

توقفتْ خُطَى إيليس فجأة، ورآه بيمبري ينحني لالتقاط كيس النقود ويتفحص محتوياته ثم دسَّه في جيب بنطاله. تنهَّد بيمبري في ارتياح، وعندما ابتعد إيليس عن مجال رؤيته واختفى وراء منعطف في الطريق، هبَّ واقفًا وأخذ يتمطَّى ثم ابتعد بخُطًا نشيطة.

مرَّ بيمبري ببعض أكوام القش بالقرب من الفجوة، فخطرت له فكرة جديدة. نظر حوله بسرعة ثم عبر إلى الجانب الآخر من أحد الأكوام وغرز عصاه فيها حتى لم يبدُ منها

إلا المقبض، فاستخدم عصًا أخرى التقطها من الأرض بالقرب من الكومة لدفع المقبض إلى عمق كومة القش حتى اختفى تمامًا. لم يتبقَّ الآن سوى الحقيبة التي خلت من محتوياها؛ إذ كانت مشترياته الأخرى في حقيبة ملابسه التي عليه أن يذهب إلى المحطة لإحضارها. فتح الحقيبة التي لم تزل معه وشمَّها من الداخل، فلم يجد فيها أيَّ روائح، ومع ذلك قرر التخلص منها إذا أتيح له ذلك.

عندما خرج من الفجوة كانت ثمة عربة تسير ببطء بجانبه. كانت مكدسة عن آخرها بأجولة، وكان اللوح الخلفي لصندوق العربة مفتوحًا. خطَا بيمبري إلى نهر الطريق وسرعان ما لحق بالعربة وبعد أن نظر حوله سريعًا، وضع الحقيبة بخفة على اللوح الخلفي المفتوح، ثم انطلق نحو المحطة.

عندما وصل إلى منزله، اتجه إلى غرفة نومه مباشرةً، ثم استدعى مدبرةَ منزله وطلب منها تحضير وجبة دسمة. ثم خلع ملابسه كاملة، حتى قميصه وجوربَيه ورابطة عنقه، ووضعها في صندوق يخزِّن فيه ملابسه الصيفية مرشوشًا عليها الكثير من مادة النفثول لحمايتها من العُثَّة. بعد ذلك أخرج من حقيبته عبوةَ برمنجنات البوتاسيوم، وأخذها إلى الحمام المجاور، وفرغ حبيباتِها في المغطس وفتح الماء. وسرعان ما امتلأ المغطس بمحلول ملحي وردي اللون، فغطس فيه حتى غمر جسده وشعره بالكامل في الماء. بعدها أفرغ المغطس ومرَّر ماءً نقيًّا على بدنه لشطفه، وبعد ذلك تنشَّف وعاد إلى غرفة نومه وارتدى ملابس جديدة. وأخيرًا تناول وجبة دسمة، واستلقى على الأريكة ليستريحَ حتى يحين الوقت للانطلاق إلى موعده.

في السادسة والنصف كان منتظرًا بالقرب من المحطة، في موضعٍ مكَّنه من رؤية المصباح الوحيد في الطريق. سمع القطار يدخل إلى المحطة، وشاهد جموع الركاب يخرجون منه، ولاحظ شخصًا ينفصل عن الجمع ويتوجه إلى طريق قرية ثورب. سقط ضوء المصباح على الشخص فتعرَّف عليه؛ كان برات وكان يمضي في طريقٍ بخُطًى واسعة إلى مكان اللقاء منتشيًا، منتعلًا حذاءً يُصدر صريرًا لافتًا غير معتاد.

تبعه بيمبري محتفظًا بمسافة آمنة بينهما، ومعتمدًا على صوت حذائه عوضًا عن رؤيته، حتى عبر برات الحاجزَ القائم عند بداية ممر المشاة. كان واضحًا أنه متوجه إلى البوَّابتَين. قفز بيمبري من فوق الحاجز وأوغل سريعًا في المروج التي غطَّاها الظلام.

كان أول ما أقدم عليه عندما أوغل في ظلمات الجادة أن تحسَّس طريقه إلى شجرة البوق ومدَّ يده إلى قمَّتِها ليطمئن أن الماسكَين المعدنيَّين لم يزالَا موجودين حيث تركهما.

فلمَّا لمست أصابعُه الحلقات الحديدية للماسكين اطمئن قلبُه ثم استدار ومشى متمهلًا عبر الجادة. وكانت السكينة المطابقة في الجيب الداخلي الأيسر لمعطفه، مفتوحة وجاهزة للاستخدام، وكان يتحسس مقبضها بأصابعه أثناء سيره.

بعد قليل أصدرت البوابة الحديدية صوتَ صرير حادًّا، ثم تناهى إلى سمعه الإيقاعُ المنتظم لصرير حذاء لشخص قادم عبر الجادة. سار بيمبري إلى الأمام ببطء حتى ظهر وسط الظلام المحيط ظلامٌ أحلك على هيئة شخص، فنادى بيمبري:

«أهذا أنت يا برات؟»

فجاءه الردُّ المبتهج: «نعم، هذا أنا.» ثم اقترب برات أكثر وسأله: «هل أحضرت النقود أيها العجوز؟»

كانت الوقاحة المألوفة التي بدت في لهجة برات مستساغة لبيمبري؛ فقد زادته هدوءًا وزادت قلبَه قساوة، فأجابه قائلًا: «بالطبع، لكن علينا أن نعقد اتفاقًا محددًا، كما تعلم.»

قال برات: «اسمع، ليس لديَّ وقت للثرثرة. سيصل الجنرال إلى هنا بعد قليل؛ فهو قادم من بنجفيلد مع صديق. سلمني الأموال ولنؤجل الحديث لوقت آخر.»

ردَّ بيمبري: «لا بأس بذلك، ولكن عليك أن تفهم أن ...» ثم توقَّف فجأة ووقف بلا حَراك. كانَا قد اقتربَا الآن من شجرة البوق، وبينما هو واقف، حدَّق نظره في كتلة أوراق الشجر الداكنة فوقهما.

سأله برات: «ما الخطب؟ إلامَ تُحدِّق هكذا؟» وتوقَّف هو الآخر وأخذ يُحدِّق بقوة في الظلام.

بعد ذلك، وفي لحظة، استلَّ بيمبري السكين وغرزها بكل ما أوتي من قوة في ظهر السجان السابق العريض، أسفل عظمة الكتف اليسرى.

أطلق برات صرخةً شنيعة، واستدار واشتبك مع مهاجمه. كان برات قويَّ البنية ومصارعًا بارعًا أيضًا، ولم يكن لبيمبري أن يتغلب عليه بدون سلاح، فتمكَّن برات في لحظة من إحكام قبضته على رقبة بيمبري. لكن بيمبري أمسك به بشدة، وأخذَا يتأرجحَا إلى الأمام وإلى الخلف واستدارَا عدة مرات، وخلال ذلك تمكَّن بيمبري من إثخانه بعدة طعنات أخرى كلدغات العقرب، فتصاعدت صيحاتُ برات وغرغر وتحشرج صوتُه. بعدها وقعَا على الأرض بكلِّ ثقلهما وكان بيمبري في الأسفل. لكن المعركة انتهت، وأصدر برات أنَّةً أخيرة مصحوبة بفقاعات هوائية، وأفلت قبضته وتخدر جسمُه وهمد. فدفعه بيمبري من فوقه وهب واقفًا يرتجف ويتنفس بقوة.

لكنه لم يُضِع الوقت. فقد صدر ضجيجٌ أكثر مما كان يتوقع، فأسرع إلى شجرة البوق، ومدَّ يده نحو الماسكَين، فدخلت أصابعُه في مقابضهما المعدنية الحلقية، وكانَا قابضَين على السكين، فرفعه من مخبأه وحمله إلى مكان الجثة، ووضعه على الأرض على بُعد أقدام قليلة منها. ثم عاد إلى الشجرة ودفع الماسكَين في تجويف جذعها.

في هذه اللحظة قطع صمتَ الليل صوتُ امرأة تنادي بقوة من طرف الجادة.

قالت السيدة: «أهذا أنت يا سيد برات؟»

تحرَّك بيمبري ثم عاد أدراجه بسرعة، ومشى على أطراف أصابعه نحو الجثة. فلم تزَل السكين المطابقة عندها، وكان عليه أن يأخذها مهما كلَّفه الأمر.

كانت الجثة ملقاة على ظهرها، وكانت السكين تحتها مغروزة بالكامل حتى المقبض. فاضطر لاستخدام كلتا يديه لرفع الجثة، ورغم ذلك واجه بعض الصعوبة في نزع السكين. وفي غضون ذلك اقترب صوت السيدة مكررًا السؤال.

وأخيرًا تمكَّن من سحب السكين ثم وضعها في جيب معطفه. وسقطت الجثة مكانها، ووقف وهو يلهث.

نادى الصوت: «سيد برات! هل أنت هنا؟» وأربك اقترابُ الصوت بيمبري، فاستدار وشاهد ضوءًا يتلألأ بين الأشجار. ثم فُتحت البوابتان مصدرتَين صريرًا عاليًا، وسمِع صوتَ سنابك حصان تدبُّ على الحصى.

وقف لحظةً متحيرًا، وقد داهمته المفاجأةُ تمامًا. فلم يحسب حسابًا لوجود حصان. لم يَعُد هروبُه المزمع عبر المروج وصولًا إلى قرية ثورب ممكنًا. إذا أُمسك به فسينتهي أمرُه؛ إذ كان يعلم أن الدم قد لطَّخ ملابسه، وكانت يداه مبتلتَين وزلقتَين، ناهيك عن السكين القابع في جيبه.

لكن الارتباك لم يَدُم إلا للحظة. فقد تذكَّر شجرة البلوط، فخرج من نحو الجادة وركض باتجاهها، فتسلَّقها سريعًا حتى وصل إلى قمتها، محاولًا الحدَّ من ملامسة يديه الداميتين لها قدر استطاعته. كان قُطر الفرع الأكبر الممتد أفقيًّا نحو ثلاث أقدام، فتمدد عليه، ممسكًا بمعطفه جيدًا، وبذلك لم تكن رؤيته ممكنة لأحد من الأسفل.

لم يكد يستقر على الفرع حتى أصبح الضوء الذي رآه من بعيد على مرأًى كامل منه، كاشفًا عن امرأة قادمة تحمل بيدها مصباحًا ثابتًا. وفي اللحظة نفسها تقريبًا جاء من الاتجاه الآخر شعاعُ ضوء أقوى كشف عن رجل على حصان يصاحبه آخرُ على دراجة.

اقترب الرجلان بخُطًى سريعة، ورأى راكبُ الحصان المرأة فنادى: «هل هناك مشكلة يا سيدة بارتون؟» ولكن في هذه اللحظة سقط ضوءُ مصباح الدراجة على الجثة المسجاة.

فأطلق الرجلان صرختَي ذعرٍ متزامنتَين، وصرخت السيدة بصوت عالٍ، ثم ترجل الفارس عن حصانه وهرع إلى الجثة.

مال الرجل على الجثة، ثم صاح: «يا للهول، إنه برات!» وعندما اقترب راكب الدراجة سقط ضوء مصباحها على بِركة كبيرة من الدماء، فأضاف الفارس: «يبدو أنها جريمة قتل يا هانفورد.»

أجال هانفورد ضوء مصباحه حول الجثة، فأضاء به الأرض حولها لعدة ياردات.

ثم قال فجأة: «ما هذا الذي خلفك يا أوجورمان؟ سكين هذه؟» كان متجهًا نحو السكين بسرعة حين أمسك أوجورمان بيده.

فصاح قائلًا: «لا تلمسه! سنجعل كلاب الصيد تتبع رائحته، وستقتفي أثر هذا الوغد بسرعة مهما كانت هويته. أُقسم لك يا هانفورد إن هذا المجرم قد وقع في أيدينا تقريبًا.» ووقف للحظات ينظر إلى السكين بما يُشبه النشوة، ثم التفت سريعًا إلى صديقه وقال: «اسمع يا هانفورد، انطلق أنت إلى مركز الشرطة بأسرع ما يمكنك. إنه على بُعد ثلاثة أرباع الميل من هنا؛ ستصل إلى هناك في غضون خمس دقائق. أرسل شرطيًّا أو أحضره معك وأنا سأفتش المروج ريثما يأتي. وإذا لم أكن قد أمسكت بالمجرم، فسنجعل كلاب الصيد تتبع رائحة هذه السكين حتى نحدد مكان هذا الوغد.»

أجابه هانفورد: «حسنًا.» ودفع دراجته ثم قفز عليها وقادها وسط الظلام دون أن يزيد كلمة أخرى.

قال أوجورمان: «سيدة بارتون، راقبي هذه السكين. احرصي على ألَّا يلمسَها أحد، بينما أذهب أنا لتفتيش المروج.»

قالت مرتجفة: «هل مات السيد برات يا سيدي؟»

رد الجنرال: «يا إلهي! لم أفكر في ذلك. يستحسن أن تُلقيَ نظرةً عليه، ولكن حذارِ أن يلمس أحدٌ السكين، وإلا التبست الرائحة على الكلاب.»

امتطى الجنرالُ حصانَه وانطلق في المروج في اتجاه قرية ثورب، وحينما كان بيمبري يُنصت لصوت سنابك الحصان وهو يتلاشى شيئًا فشيئًا، شعر بالسعادة لعدم محاولته الهرب؛ لأنه كان ينوي الهرب في نفس اتجاه الجنرال، ولو فعل لوقع في أيديهم لا محالة.

لم يكد الجنرال ينصرف حتى نظرت السيدة بارتون خلفها بنظرة ملأها الرعب، ثم اقتربت من الجثة وسلطت ضوء مصباحها على وجهها. وفجأة وقفت وارتعدت بشدة إثر سماعها صوتَ خُطًى قادمة عبر الجادة. ولكن صوتًا مألوفًا هدَّأ من روعها.

جاءها الصوت قائلًا: «هل من خطب يا سيدة بارتون؟» فتبيَّنت صوت إحدى الخادمات جاءت تبحث عنها، يصاحبها شابٌّ آخر، وسرعان ما دخلَا دائرة الضوء.

صاح الشاب: «يا إلهي! من هذا؟»

أجابت السيدة بارتون: «إنه السيد برات. لقد قُتل.»

صرخت الفتاة، ثم اقترب الاثنان على أطراف أصابعهما، ونظرَا إلى الجثة في ذعر مهول.

كان الشاب على وشك التقاط السكين، فقالت السيدة بارتون: «لا تلمس هذه السكين. سيجعل الجنرال الكلاب تقتفي رائحتَها.»

سأل الرجل: «هل الجنرال هنا؟» ولم يكد يفرغ من سؤاله حتى جاء صوت سنابك الحصان من المرج يتعالى شيئًا فشيئًا ليجيب عن سؤاله.

أوقف أوجورمان حصانَه عندما رأى الخدم مجتمعين حول الجثة، ثم سأل: «هل مات يا سيدة بارتون؟»

فجاءه ردُّها: «للأسف يا سيدي.»

رد الجنرال: «إذن فليحضر أحدٌ الطبيب، ولكن ليس أنت يا بايلي. فأنا أريد منك أن تجهز الكلاب وأن تنتظر بها عند مقدمة الجادة حتى أناديَك.»

انطلق مرةً أخرى إلى مروج بيسفورد، وهرع بايلي لتنفيذ الأمر، تاركًا السيدتين تُحدِّقان في الجثة وتتهامسان.

كانت وضعية بيمبري متقلصة وغير مريحة. فلم يكن يجرؤ على الحركة، ولا حتى التنفس؛ إذ كانت السيدتان الواقفتان في الأسفل على بُعد نحو عشر ياردات عنه، وبمزيج من مشاعر الارتياح والتخوف في نفسه راح يشاهد من موقعه المرتفع مجموعةً من الأضواء تقترب بسرعة على الطريق من بيسفورد. وبعد قليل اختفت المصابيح وراء الأشجار، وبعد فترة وجيزة، علا صوتُ العجلات على الطريق وأعلنت الأضواء التي سقطت على جذوع الأشجار عن وصول وافدين جُدُد. كانت هناك ثلاث دراجات، يقودها على التوالي السيد هانفورد، ومفتش شرطة، وضابط برتبة رقيب، وعندما اقتربوا أكثر، عاد الجنرال هو الآخر إلى الجادة محدثًا الكثيرَ من الضجيج.

سأل الجنرال وهو يوقف حصانه: «هل إيليس معك؟»

فجاءه الردُّ: «كلا يا سيدي. لم يكن قد عاد من ثورب عندما غادرنا. لقد تأخر قليلًا الليلة.»

سأل: «هل أرسلتم في طلب طبيب؟»

رد المفتش مسندًا دراجته إلى شجرة البلوط: «نعم يا سيدي، أرسلت في طلب الدكتور هيلز.» وفي هذه الأثناء استطاع بيمبري أن يشتم رائحة المصباح وهو جاثم على جذع الشجرة. سأل المفتش: «هل مات برات؟»

أجاب أوجورمان: «يبدو كذلك، لكن الأفضل أن يبتَّ الطبيب في ذلك. هذه سكين القاتل، لم يمسسْه أحد. سأذهب لإحضار كلاب الصيد الآن.»

قال المفتش: «حسنًا فعلت. فالقاتل لا يمكن أن يكون ابتعد عن هنا.» وفرك يديه في رضًا عندما خبَّ أوجورمان بالحصان بعيدًا عبر الجادة.

في أقل من دقيقة جاء من الظلام صوتُ نباح عميق لكلب صيد، تبعه صوتُ خُطًى مسرعة على الحصى. ثم ظهر في دائرة الضوء ثلاثةُ أشباح مرعبة عجفاء رشيقة الحركة، ورجلان يهرولان في تثاقل.

صاح الجنرال: «هاك يا حضرة المفتش، خذ واحدًا، لا يمكنني أن أسيطر عليها معًا.»

هرع المفتش وأمسك بزمام أحد الكلاب، واقتاد الجنرال كلبه إلى السكين الملقاة على الأرض، فيما تابع بيمبري الموقف في حذر من فوق الغصن، وراقب الكلب الشرس بفضول مجرد، فلاحظ رأسه المرتفع، وجبهته المجعدة ووجهه المتجهم وهو يميل على السكين الملقاة على الأرض ليشمَّها.

توقَّف الكلب للحظات يتشمم السكين بلا حراك، ثم ابتعد وأخذ يمشي ذهابًا وإيابًا وأنفه موجه إلى الأرض. وفجأة رفع رأسه ونبح بصوت عالٍ، وخفض أنفه مجددًا ثم انطلق من بين شجرتَي البلوط والدردار، ساحبًا وراءه الجنرال بسرعة.

بعد ذلك اقتاد المفتش كلبه إلى السكين، وسرعان ما قاد الكلب المفتش في أثر الجنرال.

قال بايلي مخاطبًا الرقيب المغتبط وهو يقتاد الكلب الثالث نحو السكين: «هذه الكلاب لا تُخطئ أبدًا. سترى.» ولكنه لم يكد يُنهي كلمته حتى شد الكلب الحبل بعنف وانطلق في الاتجاه الذي سلكه الآخرون، وتبعه السيد هانفورد.

التقط الرقيب السكين برفق من حلقتها، ولفَّها بمنديله ووضعها في جيبه، ثم ركض مسرعًا وراء الكلاب.

ابتسم بيمبري بخبث. لقد كانت خطته في طريقها للنجاح على نحوٍ رائع رغم الصعوبات غير المتوقعة التي واجهها. فقط لو تغادر تلك النسوة المرتبكات المكان، لتمكن من النزول من مكانه والهرب بسهولة والطريق خالٍ. أنصت لنباح الكلاب يبتعد عنه أكثر فأكثر، ولعن تلكُّؤَ الطبيب. بئسًا له! ألم يعلم أنها مسألة حياة أو موت؟

وفجأة تناهى إلى سمعه صوتُ جرس دراجة، وظهر ضوءٌ جديد قادم عبر الجادة ثم توقفت دراجة بسرعة عند مسرح الجريمة، ونزل عنها رجلٌ مسن صغير الحجم ووقف بجوار الجثة. وبعد أن أعطى السيدة بارتون دراجته، مال على القتيل وأمسك بساعده، ثم رفع جفنه، وقرَّب من عينه عود ثقاب، ثم وقف وقال: «صادمٌ ما حدث يا سيدة بارتون. لقد مات الرجل المسكين. من الأفضل أن تساعداني في حمله إلى المنزل. أمسكا أنتما بقدميه وأنا سأحمله من كتفيه.»

راقبهم بيمبري وهم يحملون الجثة ويترنحون بها في الجادة. وسمع صوتَ خطواتِهم المتثاقلة يختفي رويدًا رويدًا ثم صوت إغلاق باب المنزل. وظل مكانه يرهف السمع، فسمع نباح الكلاب يأتي متقطعًا من مسافة بعيدة في المروج. ولم يسمع أيَّ أصوات أخرى. سيأتي الطبيب بعد قليل لأخذ دراجته، ولكن في الوقت الراهن أصبحت الساحة خالية. نهض بيبمبري من موضعه وقد تيبست مفاصله. التصقت يداه اللتان لم تزالَا لزجتَين ومبتلتين بموضع إمساكه بفرع الشجرة. ولكن سرعان ما نزل عن الشجرة، وأنصت للأصوات من حوله مجددًا للحظة، ثم عبرَ الجادة دون ضجيج، والتفَّ التفافة صغيرة لتجنُّبِ المصباح، وتسلَّل عبر مروج ثورب.

كان ظلام الليل حالكًا، ولم يسمع صوتًا في المروج، فمضى في طريقه مسرعًا، مسبرًا أغوار الظلام المحيط بنظره، ويتوقف من وقت لآخر ليرهف السمع، ولكنه لم يسمع شيئًا سوى نباح الكلاب البعيدة الذي صار الآن أضعف من ذي قبل. ولما اقترب من منزله تذكَّر قناة عميقة قريبة يعلوها جسر خشبي، فتوجه إليها؛ فقد كان يعلم أن مظهره الآن من شأنه أن يُدينه في لمح البصر. وصل إلى القناة، وانحنى ليغسل يديه ومعصميه، فإذا بالسكين تنسلُّ من جيب سترته وتسقط في المياه الضحلة عند حافة القناة. فمدَّ يده ليلتقطها، وبعد أن وجدها غرسها في الطين في أبعد نقطة استطاع الوصول إليها. وبعد ذلك فرك يديه ببعض الأعشاب المائية، وعبرَ الجسر متوجهًا إلى منزله.

اقترب إلى منزله من الخلف مطمئنًا نفسَه بأن مدبرة المنزل في المطبخ، ففتح الباب بهدوء شديد بمفتاحه وصعد سريعًا إلى غرفة نومه. فاغتسل جيدًا في المغطس ليسهل عليه التخلص من المياه العكرة التي اغتسل فيها، ثم بدَّل ملابسه، ووضع الملابس التي خلعها في حقيبة سفر كبيرة.

لم يكد يفرغ من ذلك حتى قُرع الجرس معلنًا عن حلول موعد العشاء. وحينما اتخذ موقعه إلى الطاولة، وبدا عليه الهندام والانتعاش والابتهاج، خاطب مدبرة منزله قائلًا: «لم أتمكن من استكمال أعمالي في لندن. سأضطر للعودة إلى هناك في الغد.»

سألته مدبرة المنزل: «هل ستعود إلى المنزل في اليوم نفسه؟»

أجابها: «ربما، وربما لا. سيتوقف ذلك على الظروف.»

لم يذكر ماذا عساها أن تكون هذه الظروف، ولم تسأله مدبرة المنزل. فلم يكن السيد بيبمري يهوى إفشاء أسراره للآخرين، وكان رجلًا شديد التحفظ، والمتحفظون لا يُفصحون بالكثير.

الجزء الثاني

المكر والمكر المقابل

يرويها الدكتور كريستوفر جيرفيز

ربما كانت النصف الساعة التي تلي تناول الإفطار أجملَ أوقات اليوم كلها، حين تستعرُ نيران التدفئة في مصطلاها، ويُطلق غليون الصباح سُحُبَ دخانِه. وتكون كذلك بشكل خاص حين تشير السماء الداكنة، التي تغطي البلدة، إلى شوارع يغزوها هواء الصباح البارد، فيما تُطلق المراكب العالقة على صفحة النهر صافراتِ استهجان، معلنةً تلكُّؤَ الضباب الذي خلَّفه الليل المتلاشي لتوِّه في الزوال.

كان هذا الصباح الخريفي ناضرًا، وكانت نيران المدفأة تحترق مشعة بهجة، فمددتُ قدميَّ في خفَّيهما نحو اللهب أُدفئهما وأخذتُ أتأمل في متعة كالقطط، دون التفكير في شيء بعينه. وبعد قليل قطعتْ زفرةٌ ممتعضة أصدرها ثورندايك تأملي وجذبت انتباهي، فالتفتُّ إليه متكاسلًا. كان يقصُّ الأخبار البارزة من جريدة الصباح بمقص مكتب، وتوقف لوهلة وبين إصبعيه قصاصة صغيرة وقال: «كلاب الصيد مجددًا! قريبًا سنسمع بعودة طقوس المحاكمة بالنار.»

قلتُ له وأنا أُدلِّكُ ساقيَّ في نشوة: «ويا لها من محاكمة دافئة ومريحة للغاية في صباح كهذا! ما القضية؟»

كان على وشك الإجابة ولكنَّ طرقًا شديدًا على الباب بمطرقته النحاسية قطع كلامنا. ذهب ثورندايك إلى الباب فوجد الطارق مفتشَ شرطة مرتديًا الزيَّ الرسمي، فأدخله، ووقفتُ أنا، موجِّهًا ظهري إلى النار، وتأهبت للجمع بين الدعة والراحة الجسدية وبين العمل.

قال الشرطي: «دكتور ثورندايك، أليس كذلك؟» فأومأ ثورندايك بالموافقة، وتابع الشرطي قائلًا: «اسمي فوكس يا سيدي، المفتش فوكس من شرطة بيسفورد. لعلك طالعتَ جريدة الصباح؟»

رفع ثورندايك القصاصة التي تحمل الخبر، ووضع كرسيًّا بالقرب من المدفأة، وسأل المفتش إن كان قد تناول وجبة الإفطار.

رد المفتش فوكس: «أشكرك يا سيدي، لقد أفطرتُ بالفعل. لقد جئت إلى البلدة على متن القطار المتأخر الليلة الماضية لأكون هنا في وقت مبكر، وبتُّ في أحد الفنادق. لا بد أنك عرفتَ من الجريدة أننا اضطررنا إلى القبض على أحد رجالنا. أمر محرج بالطبع، كما تعلم يا سيدي.»

وافقه ثورندايك الرأي: «محرج جدًّا.»

تابع المفتش: «أجل، إنه يسيء إلى سمعة الشرطة ويسيء إلى العامة أيضًا. ولكننا اضطررنا لذلك. لم نجد مفرًّا منه. ومع ذلك نودُّ منح المتهم كلَّ الفرص الممكنة، من أجلنا ومن أجله هو أيضًا؛ لذا يود رئيس الشرطة أن يسمع رأيك في الواقعة، وخطر بباله أنك ربما تكون راغبًا في تولِّي مهمة الدفاع عن المتهم.»

ردَّ ثورندايك: «أطلعْنا على التفاصيل.» وأخذ من الدرج دفتر ملاحظات وجلس في كرسي ذي ذراعين، ثم أضاف: «ابدأ من البداية، وأخبرنا بكل ما تعرف.»

تنحنح المفتش ثم قال: «حسنًا، سأبدأ بالقتيل: اسمه برات. كان سجَّانًا متقاعدًا، وعيَّنه الجنرال أوجورمان خادمًا بمنزله، أما الجنرال أوجورمان فهو مدير سجن متقاعد؛ ربما سمعت عنه وعن قطيع كلاب الصيد الذي يربيه. جاء برات من لندن مساء أمس على متن قطار يصل إلى بيسفورد في السادسة والنصف. وقد شوهد من قِبَل حارس المحطة، والكمسري، والحمَّال. وشاهده الحمَّال يغادر المحطة في السادسة وسبع وثلاثين دقيقة. يبعد منزل الجنرال أوجورمان عن المحطة نحو نصف ميل تقريبًا. في السابعة إلا خمس دقائق عثر الجنرال ورجل يُدعى هانفورد والسيدة بارتون مدبرة منزل الجنرال على جثة برات ملقاة على أرض الجادة التي تؤدي إلى منزل الجنرال. يبدو أن أحدهم طعنه؛ إذ كان هناك الكثير من الدم حوله، وعُثر على سكين — سكين نرويجية بالتحديد — على الأرض بالقرب من الجثة. تعتقد السيدة بارتون أنها سمعت شخصًا يستغيث في الجادة؛ ونظرًا لأن حضور برات كان متوقعًا في ذلك الوقت، خرجت إليه تحمل مصباحًا. وهناك التقت بالجنرال والسيد هانفورد، ويبدو أن الثلاثة رأوا الجثة في اللحظة نفسها. وفي الحال جاءنا السيد هانفورد على دراجته في مركز الشرطة وأبلغنا بما حدث؛ فأرسلنا في

طلب طبيب، وعدتُ مع السيد هانفورد إلى مسرح الجريمة مصطحبًا معي رقيبَ شرطة. وصلنا في السابعة واثنتي عشرة دقيقة، وقام الجنرال، الذي كان قد جال المروج المحيطة بحصانه في كل الاتجاهات المحيطة بالجادة دون أن يرى أحدًا، بجلب كلابه واقتادها إلى السكين. شمَّ ثلاثة كلاب السكين وتعرفت على رائحة فيها على الفور، وكنت أنا أمسك بزمام أحد الكلاب، وقطعت بنا الكلاب المروج بدون توقف أو تردد، وتجاوزت الحواجز والأسيجة، وسارت عبر زقاق ومنه إلى البلدة، ثم عبرت الكلاب الطريق واحدًا تلو الآخر في صفٍّ واحد متوجهةً إلى مركز الشرطة وركضت نحو الباب الذي كان مفتوحًا، وتوجهت مباشرة إلى المكتب حيث كان يجلس إليه شرطي يدعى إيليس يكتب. وأحدثت ضجيجًا ندر مثيله، محاولة الوصول إلى إيليس بكل جهدها، وحاولنا كبحها بقدر استطاعتنا؟ أما إيليس، فقد امتقع لونه حينها وصار كالشبح.»

سأل ثورندايك: «هل كان في الغرفة أحد آخر؟»

ردَّ المفتش: «نعم، رجلَا شرطة ورسول. وقد اقتدنا الكلاب إليهم، فلم تُعرْهم أيَّ اهتمام. لقد كانت تقصد إيليس.»

قال ثورندايك: «وماذا فعلتم؟»

أجابه المفتش: «ألقينا القبض على إيليس بالطبع. ماذا عسانا أن نفعل غير ذلك خاصة أن الجنرال كان هناك؟»

سأل ثورندايك: «وما علاقة الجنرال بالموضوع؟»

رد المفتش: «إنه ضابط قضائي، وحاكم سابق لدارتمور، وكلابه هي التي لاحقت الرجل حتى أمسكت به. ولكن كان علينا القبض على إيليس على أي حال.»

سأل ثورندايك: «هل يوجد أيُّ دليل ضد المتهم؟»

أجابه المفتش: «نعم. كانت علاقته ببرات عدائية على نحوٍ واضح. لقد كانَا رفيقين قديمين؛ إذ كان إيليس في الحرس المدني في بورتلاند عندما كان برات سجَّانًا هناك، وأُحيل إيليس للتقاعد بسبب بتر سبابة يده اليسرى، لكن ثمة ضغينة تولدت بينهما مؤخرًا بسبب امرأة تعمل خادمة في منزل الجنرال. يبدو أن إيليس، وهو رجل متزوج، كان يوليها اهتمامًا زائدًا عن الحد، أو هكذا اعتقد برات، وحذر إيليس من الاقتراب من المنزل. ومنذ ذلك الحين لم يجمعهما حديث.»

سأل ثورندايك: «وماذا عن طباع إيليس؟»

أجابه المفتش: «طالما بدَا رجلًا مهذبًا؛ هادئًا ورزينًا وحسنَ الطباع؛ بل إنه لا يمكن أن يؤذيَ ذبابة. لقد كنا جميعًا نحبُّه، أكثر حتى من برات؛ فقد كان برات المسكين محاربًا قديمًا إن جاز التعبير؛ أعني يا سيدي أنه كان داهية وماكرًا بعض الشيء.»

سأل ثورندايك: «أظنكم فتشتم إيليس جيدًا، أليس كذلك؟»

أجاب المفتش: «نعم، ولم نجد معه شيئًا مثيرًا للريبة سوى كيسَي نقود. لكنه قال إنه عثر على أحدهما — وهو كيس صغير من جلد الخنزير — في ممر المشاة على طريق ثورب عصر أمس، ولم نجد سببًا لتكذيبه. لم يكن كيس النقود ملكًا لبرات على أي حال.»

دوَّن ثورندايك ملاحظة في دفتره، ثم سأل: «هل كانت على ملابسه بُقَعُ دماء أو علامات؟»

ردَّ المفتش: «كلَّا. لم نجد على ملابسه أيَّ بُقَع أو أيَّ شيء غير طبيعي بأي حال.»

سأل ثورندايك: «هل وجدتم به أيَّ جروح أو خدوش أو كدمات؟»

ردَّ المفتش: «لم نجد أيَّ شيء من ذلك.»

سأل ثورندايك: «ومتى ألقيتم القبض على إيليس؟»

رد المفتش: «في السابعة والنصف تمامًا.»

سأل ثورندايك: «هل تأكدتم من تحركاته؟ هل كان قريبًا من مسرح الجريمة؟»

ردَّ المفتش: «نعم، كان في ثورب، ولا بد أنه عبر بوابتَي الجادة في طريق عودته. وقد تأخر عن عادته في العودة، ولو أنه لم يتأخر كثيرًا عما اعتاد في مرات سابقة.»

سأل ثورندايك: «والآن نتحول إلى القتيل؛ هل فُحصت جثته؟»

أجابه: «نعم، لقد حصلتُ على تقرير الدكتور هيلز قبل أن أغادر. كان هناك سبع طعنات نافذة على الأقل، كلُّها في الجانب الأيسر من الظهر. وكان على الأرض الكثيرُ من الدماء، ويرى الدكتور هيلز أن برات ظل ينزف حتى مات خلال دقيقة أو اثنتين.»

سأل ثورندايك: «وهل تتطابق الطعنات مع السكين التي عُثر عليها؟»

أجابه: «سألت الطبيب عن ذلك، فأجابني بالإيجاب، وإن لم يجزم بنوع سكين محدد. ولكن هذه المسألة ليست ذات أهمية على أي حال. فقد كانت السكين مضرجًا بالدماء، ووُجدت بالقرب من الجثة.»

سأل ثورندايك: «وماذا فعلتم بالسكين بالمناسبة؟»

أجابه: «أخذه الرقيب الذي كان برفقتي ولفَّه بمنديله ووضعه في جيبه. وقد أخذتُها منه على حالها بالضبط، ووضعتها في صندوق حفظ.»

سأل ثورندايك: «وهل عرفتم أن إيليس هو صاحب السكين؟»

ردَّ: «كلَّا، سيدي، لم نفعل.»

سأل ثورندايك: «هل وجدتم آثار أقدام، أو أدلة على عراك؟»

ابتسم المفتش بخجل وقال: «لم أفحص مسرح الجريمة يا سيدي، ولكن بعد أن وَطِئه حصان الجنرال وكلاب الصيد والجنرال نفسه وأنا أيضًا والبستاني والرقيب والسيد هانفورد مرتين ذهابًا وإيابًا. لا بد أنك فهمت ما أقصد يا سيدي.»

قال ثورندايك: «بالطبع، بالطبع. حسنًا سيدي المفتش، يسعدني أن أتولَّى مهمة الدفاع؛ يبدو لي أن الأدلة ضد إيليس غيرُ حاسمة في بعض جوانبها.»

أبدى المفتش دهشةً صريحة وقال: «بالتأكيد لم يبدُ لي ذلك سيدي.»

قال ثورندايك: «حقًّا؟ حسنًا، هذه وجهة نظري، وأعتقد أن الحل الأمثل أن آتيَ معك وأن أحقق في الأمر في مكان الجريمة.»

وافق المفتش مبتهجًا، وأعطيناه جريدة ثم ذهبنا إلى المختبر لإلقاء نظرة على جداول مواعيد القطارات والاستعداد للمهمة.

قال لي ثورندايك: «أظنك ستأتي معي يا جيرفيز، صحيح؟»

أجبتُه: «إذا كان لوجودي أيُّ جدوى.»

فقال ثورندايك: «بالطبع، عقلان أفضل من عقل واحد، وعلى ما يبدو أن عقلَينا سيكونان العقلَين الوحيدين المنطقيين. سنأخذ حقيبة الأبحاث بالطبع، ولنأخذ كاميرا معنا كذلك. أرى أن هناك قطارًا من تشارينج كروس سينطلق بعد عشرين دقيقة.»

خلال النصف الساعة الأولى من الرحلة جلس ثورندايك في ركنه يتفحص ملاحظاتِه حينًا ويحدق من النافذة بعينين متأملتين حينًا. أدركتُ أنه تحمَّس للقضية، وكنتُ حريصًا على ألا أقطعَ حبلَ أفكاره. ولكنه سرعان ما ترك ملاحظاتِه وبدأ في حشو غليونه، ثم أشعله له المفتش الذي لم يكن يطيق صبرًا للوصول.

وقال المفتش: «إذن سيدي، هل ترى لإيليس مخرجًا؟»

ردَّ ثورندايك: «أعتقد أن لدى الدفاع ما يستند إليه، بل لا أبالغ إن قلتُ إن الأدلة ضده ضعيفة.»

لهث المفتش وقال: «ولكن السكين، يا سيدي؟ ماذا عن السكين؟»

ردَّ ثورندايك: «ماذا عنه؟ سكين مَن هو؟ أنت لا تعلم. لقد كانت مغطَّاة بالدم، ولكن دم مَن؟ لا تعلم كذلك. لنفترض جدلًا أنها سكين القاتل. إذن فالدم الذي عليها هو

دم برات. ولكن لو كان الدم دم برات، لكانت الكلاب قادتكم إلى جثته بعد أن اشتمت السكين؛ لأن الدم له رائحة قوية. ولكنها لم تفعل، وتجاهلت الجثة، مما يدل على أن الدم الموجود على السكين ليس دم برات.»

خلع المفتش قبعته وحك مؤخر رأسه برفق، وقال: «أنت محقٌّ تمامًا، يا سيدي. لم أفكر في هذا قط. بل لم يفكر فيه أيٌّ منا.»

واصل ثورندايك كلامه: «ولنفترض أن السكين سكين برات. حينها سيبدو أن السكين قد استُخدم دفاعًا عن النفس. ولكنها كانت سكين نرويجية، أداة واهية، لا تُستخدم كسلاح مطلقًا، ويستغرق فتحُها بعضَ الوقت، ويتطلب استخدام يدَين حرَّتين. دعْني الآن أسأل، هل كانت يدَا برات حرَّتَين؟ بالطبع لم تكونَا كذلك بعد بدء الهجوم. كانت هناك سبع طعنات، كلُّها على الجانب الأيسر من الظهر؛ مما يدل على أن برات كان يمسك بتلابيب القاتل بيديه، وأن ذراعَي القاتل كانتَا تطوقانه. كذلك يدل على أن القاتل يستخدم اليد اليمنى، بالمناسبة. ولكن لنفترض رغم ذلك أن السكين كانت سكين برات؛ في هذه الحالة يكون الدم الذي عليها هو دم القاتل. إذن لا بد أن القاتل قد جُرح. ولكن إيليس لم يُجرح، مما يعني أنه ليس القاتل. إن السكين ليس لها جدوى هنا على الإطلاق.»

نفخ المفتش وجنتيه ثم صفَّر برفق وقال: «لقد احترتُ في الأمر. ولكن يا سيدي، لا يمكننا تجاوزُ مسألة الكلاب. إنها تُخبرنا بوضوح بأن السكين هي سكين إيليس، ولا أجدُ إجابة لذلك على الإطلاق.»

ردَّ ثورندايك: «لا توجد إجابة لعدم وجود سؤال من الأصل. فالكلاب لم تُخبركم بشيء. لقد استنتجتم من سلوكها استنتاجاتٍ ربما كانت خاطئة تمامًا، وبالتأكيد لا تمثِّل دليلًا.»

قال المفتش: «يبدو أنك لا تعول كثيرًا على كلاب الصيد.»

ردَّ ثورندايك: «إنني أراها عديمة الفائدة كوسيلةٍ لكشف الجرائم. فلا يمكنك أن تضع كلب الصيد على منصة الشهود. ولا يمكنك أن تأخذ منه إفادة مفهومة. وإذا كان لديه أيُّ معلومة، فلا وسيلة له لتوصيلها إلى الآخرين. حقيقة الأمر أن نظام استخدام كلاب الصيد في الإيقاع بالمجرمين بأكمله قائمٌ على مغالطة. في المزارع الأمريكية كانت هذه الحيوانات تُستخدم بفاعلية في الإمساك بالعبيد الآبقين. ولكن العبد شخصٌ معروف، وكل ما كان مطلوبًا هو التعرف على مكانه. أما في كشف الجرائم فالأمر مختلف. فالمحقق لا يسعى لمعرفة مكان شخص معروف، ولكنه يسعى لمعرفة هوية شخص مجهول، الأمر

الذي لا تفيد فيه كلابُ الصيد. قد تكتشف كلاب الصيد هوية الشخص، ولكنها إن فعلت فلن تتمكن من إخبار غيرها باكتشافها هذا. أما إذا كان المجرم مجهولًا، فلا يمكنها تحديدُ هويته؛ وإذا كان معلومًا، انتفت حاجة الشرطة إليها.»

توقف ثورندايك لوهلة ثم واصل حديثه: «بالعودة لقضيتنا الحالية، لقد استخدمنا وسيلة محددة — هي كلاب الصيد — وليس لنا وسيلةٌ للتواصل معها، كما يقول الوسطاء الروحانيون؛ أي ليس لدينا «وسيط». إن كلب الصيد يمتلك حاسة ذات قدرات خاصة، وهي حاسة الشم، التي تُعدُّ قوتها متواضعةً عند البشر. إن الكلب يفكر بأنفه، إذا جاز التعبير، وأفكاره غير قابلة للترجمة للكائنات التي لم تتطور لديها حاسة الشم بالدرجة نفسها. لقد قدمنا للكلب سكينًا، واكتشف في رائحتها بعض الخصائص، وقد يكتشف خصائص مماثلة أو مشابهة في قطعة أرض أو في شخص ما، الذي هو إيليس في هذه الحالة. لكن لا يمكننا التحقق من اكتشافاته أو التأكد من طبيعتها. ماذا يتبقى لنا إذن؟ كلُّ ما يمكننا قوله إنه يبدو أن ثمة صلةً ما بين السكين وإيليس فيما يتعلق بالرائحة. ولكن إلى أن نتأكد من طبيعة هذه الصلة، لا يمكننا أن نحدد قيمة الدليل أو وزنه. وكل ما قد تعتبرونه «أدلةً» أخرى هو من نسج خيالكم أو خيال الجنرال. أما في الوقت الحالي، فلا حجة ضد إيليس.»

قال المفتش: «لا بد أنه كان قريبًا جدًّا من مسرح الجريمة عند وقوعها.»

ردَّ ثورندايك: «وكذلك كان آخرون كُثُر على الأرجح، ولكن هل كان لديه وقتٌ كافٍ للاغتسال وتبديل ثيابه؟ فقد كان سيحتاج لذلك لو كان الفاعل.»

قال المفتش مفكرًا وقد وافقه الرأي: «أعتقد أنك محق.»

رد ثورندايك: «بلا شك. لقد كان هناك سبع طعنات، لا بد أن تسديدها استغرق بعض الوقت. ولا يمكننا أن نفترض أن برات وقف يتلقى الطعنات بلا حراك أو مقاومة؛ ومواضع الطعنات، في الواقع، لا تدل على ذلك، كما قلت. لقد حدث عراك، واشتبك الرجلان. وكانت إحدى يدي القاتل خلف ظهر برات، وربما كلتا يديه، واحدة تُمسك ببرات والأخرى تسدد الطعنات. لا بد أن إحدى اليدين — وربما كليهما — قد تلطخت بالدماء. ولكنك تقول إن إيليس لم يكن به أيُّ دماء، ولا يبدو أنه حظيَ بالوقت أو الفرصة لكي يغتسل.»

قال المفتش: «إنها مسألة غامضة، ولكني لا أعرف بعدُ كيف ستفسر سلوك كلاب الصيد.»

هز ثورندايك كتفَيه في نفاد صبر وقال: «كلابُ الصيد مجرد وهْم. المشكلة الحقيقية تكمن برمَّتها في السكين. والأسئلة التي تطرح نفسَها هي: مَن صاحب السكين؟ وما

الصلة بينه وبين إبليس؟» والتفت إليَّ ثم تابع حديثه قائلًا: «توجد مشكلة يا جيرفيز أتركُها لتقديرك. وبعض من الحلول المحتملة لها بالغة الغرابة.»

عندما خرجنا من محطة بيسفورد، تفقَّد ثورندايك ساعته ودوَّن الوقت، ثم قال للمفتش: «ستمضي بنا في الطريق الذي سلكه برات.»

فقال المفتش: «ربما سلك الطريق الرئيسي أو ممر المشاة، ولكنَّ فرقَ المسافة بينهما ضئيلٌ للغاية.»

انصرفنا من بيسفورد وسلكنا الطريق غربًا، وتحديدًا نحو قرية ثورب، وبعد قليل مررنا بحاجز عند مدخلٍ يؤدي إلى ممرٍّ للمشاة على يميننا.

قال المفتش: «هذا الممر يقطع الجادة في منتصفها تقريبًا، ولكن الأفضل أن نلزم الطريق.» وبعد ربع ميل وصلنا إلى بوابتَين حديديَّتَين صَدِئتَين كانت إحداهما مفتوحة، ودخلنا فوجدنا أنفسنا في طريق عريض يحدُّه صفَّان من الأشجار، ومن بين جذوعها رأينا مروجًا ممتدة على الجانبين. كانت جادةً جميلة، وعلى الرغم من قرب نهاية العام، لم يزل ورق الشجر المصفر معلقًا بأغصانه بكثافة.

مشينا حوالي مائة وخمسين ياردة بعد البوابتين، ثم توقف المفتش.

وقال: «هذا هو المكان.» ودوَّن ثورندايك وقت وصولنا مرة أخرى.

ثم قال: «تسع دقائق بالضبط. معنى هذا أن برات وصل إلى هنا في السابعة إلا أربع عشرة دقيقة تقريبًا، وعُثر على جثته في السابعة إلا خمس دقائق، أي بعد وصوله بتسع دقائق. لا بد أن القاتل لم يكن بعيدًا عن المكان إذن.»

قال المفتش: «بالفعل، لقد كانت الرائحة طازجة، أظنك قد قلت إنك تريد رؤية الجثة أولًا يا سيدي؟»

رد ثورندايك: «بلى، والسكين كذلك، من فضلك.»

قال المفتش: «سأضطر إلى إرسال مَن يأتي بها من المخفر؛ فهي مُحرزة في المكتب.»

دخل المفتش المنزل، وأرسل رسولًا إلى المخفر، ثم خرج وأوصلَنا إلى المبنى الخارجي الملحق الذي نُقلت إليه الجثة. أجرى ثورندايك فحصًا سريعًا للإصابات وللفتحات التي أحدثتْها الطعنات في الملابس، فلم يخرج منها بشيء ذي دلالة. بدا جليًّا أن السلاح المستخدم كان له نصلٌ واحد، وأنه سميك من الناحية الأخرى كما وُصف له، ودلَّ تغيُّرُ لونِ الجلد حول الجروح على أن السلاح كان لنصله قاعدة تفصله عن مقبضه، وهو ما ينطبق على السكين النرويجية، وأنه أيضًا غُرز في جسم القتيل بعنف بالغ.

لما فرغ ثورندايك من فحصه، سأله المفتش: «هل وجدتَ شيئًا يكشف أيَّ جديد عن القضية؟»

رد ثورندايك: «يستحيل أن نتوصل إلى استنتاج بدون أن نرى السكين، ولكن بينما نحن ننتظر وصوله، يمكننا أن نذهب لإلقاء نظرةٍ على مسرح المأساة. أظن أن هذا حذاء برات، صحيح؟» ورفع فردتَي حذاء سميك ذي رباطَين عن الطاولة وقلَبَهما لفحص نعلَيهما.

أجاب فوكس: «نعم، هذا حذاؤه، لو انعكس الحال وكان هو القاتل لسَهُل الإيقاع به بتتبع هذا الحذاء. فقِطْعتَا الحماية المثبتتان في الكعبين مميزتان، وهما من نوع «بلاكي» المعروف.»

قال ثورندايك: «سنأخذهما، على كل حال.» وأخذ المفتش الحذاء منه، ثم اقتفينا آثار خطواتنا عائدين إلى الجادة.

كان من السهل التعرُّف على مكان وقوع الجريمة؛ إذ ميَّزتْه بقعةٌ داكنة ضخمة لطخت الحصى على أحد جانبي الجادة في منتصف المسافة بين شجرتين؛ إحداهما كانت شجرة بوق عتيقة مقطوعٌ أعلاها، والأخرى شجرة دردار. وبجانب شجرة الدردار كانت هناك شجرة بلوط ذات جذع عريض مليء بالنتوءات طولُه نحو سبع أقدام ويخرج منه ثلاثة أفرع ضخمة، يميل واحدٌ منها باتجاه الجادة فيصِلُ إلى منتصفها، وكانت الأرض بين هاتين الشجرتين مغطاةً بآثارٍ تركتها أقدامُ رجال وكلاب صيد فوق آثار سنابك الحصان.

سأل ثورندايك: «أين عُثر على السكين؟»

أشار المفتش إلى موضع بالقرب من منتصف الطريق، مقابل شجرة البوق تقريبًا، فأخذ ثورندايك حجرًا كبيرًا من الأرض ووضعه في الموضع الذي أشار إليه المفتش. ثم تفقَّد المكان متفكرًا، وظل يُجيل نظرَه بين طرفَي الطريق ويتأمل الأشجار التي تصطفُّ على جانبَيها، وفي النهاية سار ببطء نحو المساحة الفاصلة بين شجرتَي الدردار والبلوط ممرِّرًا بصرَه على الأرض في طريقه. قال في عبوس وهو ينظر إلى الأرض المدهوسة: «آثار الأقدام كثيرة.»

قال المفتش: «لا، بل السؤال هو: لمن هذه الآثار؟»

وافقه ثورندايك: «نعم، هذا هو السؤال، وسنبدأ في إيجاد الإجابة بتحديد آثار أقدام برات.»

قال المفتش: «لا أفهم كيف سيساعدنا ذلك؟ نحن نعلم بالفعل أنه كان هنا.»

نظر ثورندايك إليه متفاجئًا، ولا بد أن أعترف أن هذا السؤال الأحمق أذهلني أنا الآخر؛ فقد عهدتُ ضباطًا في سكوتلاند يارد سريعي البديهة.

قال ثورندايك: «يبدو أن الجمع الذي عثر على الجثة مرَّ بين شجرتَي الدردار والبلوط؛ فالأرض تبدو خاليةً من الآثار فيما عدا هذه المنطقة.» وسار حول شجرة الدردار ولم يَزَل يتأمل الأرض بعينٍ فاحصة، وبعد قليل تابع حديثه قائلًا: «أما هنا، حيث التراب الناعم المحيط بالعشب، أرى آثار قدمَين صغيرتَين تنتعلان حذاءً طويلًا مدبَّبًا من الأمام، يبدو أنها لرجل قصير القامة، كما يبدو من حجم القدم وطول الخطوة، ولا يبدو أنه كان من بين الجمع الذين عثروا على الجثة. ولكني لا أرى أيَّ آثار لقدمَي برات؛ يبدو أنه لم يَخْطُ خارج الحصى الصلب.» وواصل ثورندايك السير ببطء نحو شجرة البوق وعيناه مثبتتان على الأرض. وفجأة توقَّف وجثا على الأرض وفي عينيه نظرةُ تلهف، وعندما اقتربتُ أنا وفوكس، وقف وأشار بيده. «آثار أقدام برات، ممسوحة قليلًا ومتقطعة، ولكن لا تُخطئها العين. والآن، سيدي المفتش، لعلك تُدرك أهمية آثار قدمَيه؛ إذ يُخبرنا تزامنها مع أيٍّ من الآثار الأخرى بالكثير. انظر إلى هذا الأثر، ثم إلى ذاك.» وأشار إلى اثنين من الآثار الممسوحة بعضَ الشيء لقدمي القتيل.

قال فوكس: «أتعني أن هناك آثارًا لعراك؟»

رد ثورندايك: «بل أعني أكثر من ذلك. ها هو أحدُ آثار قدم برات فوق أثر حذاء صغير ومدبَّب، وهنا عند حافة الممر الحصوي أثرٌ آخر لقدم برات ممحوة تمامًا تقريبًا بفعل حذاء مدبَّب. من الواضح أن الأثر الأول للحذاء المدبَّب على الأرض سبق أثر حذاء برات، أما الأثر الثاني فكان لحذاء برات ثم الحذاء المدبب؛ والاستنتاج الأساسي هنا أن صاحب الحذاء المدبب كان هنا مع برات في الوقت نفسه.»

صاح فوكس: «إذن فهو القاتل بلا شك!»

ردَّ ثورندايك: «هذا هو المفترض، ولكن دعْنا نرَ إلى أين ذهب. لعلك تلاحِظ، في الموضع الأول، أن الرجل كان واقفًا بالقرب من هذه الشجرة.» وأشار إلى شجرة البوق ثم واصل قائلًا: «وأنه سار باتجاه شجرة الدردار. دعْنا نتبعْه. لقد مرَّ بشجرة الدردار، كما ترى، وستلاحظ أن هذه الآثار تسير متتابعةً من عند شجرة البوق، ولا تتداخل مع آثار العراك. لذا فالأرجح أن تكون هذه الآثار قد نتجت بعد ارتكاب الجريمة. وستلاحظ أيضًا أن الآثار تظهر على جذوع الأشجار من الخلف، أي خارج الجادة؛ ماذا تستنتج من ذلك؟»

هزَّ المفتش رأسه في يأس، فبادرتُ أنا بإجابة ثورندايك: «أستنتج من ذلك أن شخصًا ما ربما كان في الجادة عندما كان الرجل يحاول الهرب.»

رد ثورندايك: «بالضبط. لقد عُثر على الجثة بعد وصول برات إلى هنا بفترة لا تزيد على تسع دقائق. ولكن لا بد أن القاتل قد استغرق بعض الوقت. ثم ظنت مدبرة المنزل أنها قد سمعت شخصًا ينادي وخرجت وبيدها مصباح، وتزامن ذلك مع وصول الجنرال والسيد هانفورد. الاستنتاج هو أن الرجل تسلَّل إلى خلف الأشجار ليتوارى عن الأنظار. ومع ذلك، لنتتبع آثار الأقدام. إنها تمرُّ بشجرة الدردار ثم خلف الشجرة التي تليها، لكن انتظر! ثمة شيء غريب هنا.» ومرَّ من خلف شجرة البلوط الضخمة المقطوع أعلاها وأخذ يتأمل التراب الناعم المحيط بجذورها، وتابع: «ها هما أثران أعمق بكثير من الآثار الأخرى، وليسَا جزءًا من الآثار المتتابعة. ماذا تستنتج من ذلك؟» وبدونِ أن ينتظر الإجابة بدأ يفحص جذع الشجرة بعناية، وركز بالأخص على بروزٍ كبير في الشجرة مليء بالنتوءات الصغيرة يرتفع عن الأرض بنحو ثلاث أقدام. ووجد على اللحاء الذي يعلوه علامة رأسية يبدو من مظهرها وكأن شيئًا قد انزلق من أعلى الشجرة وترك عليها خدشًا، وبدا له أن غصنًا صغيرًا ميتًا قد انفصل عن النتوء حديثًا وسقط على الأرض. أشار ثورندايك إلى هذه العلامات ثم وضع قدمه على البروز ثم اعتلاه، فأصبح بصرُه فوق مستوى قمة الشجرة التي تفرعت منها الفروع الكبيرة.

قال ثورندايك متعجبًا: «ها هو شيء أكثر حسمًا بكثير.» وبالاعتماد على بروز آخر تسلَّق حتى وصل إلى قمتها، وألقى نظرة سريعة حوله، ثم نادانا. وضعتُ قدمي على الكتلة البارزة لأتسلق الشجرة، وعندما صارت عيني فوق مستوى قمتها، وجدتُ أثرًا بُنِّيًّا لامعًا تركتْه يدٌ على الحافة. تسلقتُ حتى اعتليتُ قمة الشجرة، وتبعني المفتش سريعًا، ووقفنا معًا بجانب ثورندايك بين الأغصان الثلاثة. ومن موضع وقوفنا نظرنا إلى الجزء العلوي من الفرع الكبير الذي قطع الجادة، فوجدنا على سطحه المغطَّى بالحزاز أثرَين بُنِّيَّين مائلين للحمرة لراحتَي يدٍ مفتوحتين.

مال ثورندايك على الغصن وقال: «تلاحظان أنه رجل قصير القامة؛ فلا يمكنني أنا أن أضع يديَّ في هذا الموضع المنخفض بارتياح. كما تلاحظان أثرَي السبابتين، مما يقطع بأن الفاعل ليس إيليس.»

قال فوكس: «إن كنت تقصد يا سيدي أن القاتل هو من ترك هاتين العلامتين، فأنا أرى ذلك مستحيلًا. فهذا يعني أنه كان هنا يراقبنا من علٍ عندما كنا نبحث عنه بالكلاب. فوجود الكلاب هنا يثبت أن هذا الرجل لا يمكن أن يكون القاتل.»

قال ثورندايك: «على العكس؛ إن وجود هذا الرجل بيدَين داميتَين يؤكد الأدلة الأخرى التى تُشير كلها إلى أن الكلاب لم تكن في أثر القاتل قط. سأشرح لك يا سيدي المفتش: لدينا رجلٌ مقتول، وثمة شِبهُ تأكيد أن يدَي القاتل مضرجتان بالدماء، ولدينا رجل آخر يداه داميتان، ينتظر متربصًا فوق شجرة على مسافة أقدام قليلة من الجثة بعد اكتشافها بدقائق قليلة (كما يتبين من آثار الأقدام)؛ فما هي إذن الاحتمالات المعقولة؟»

ردَّ المفتش مجادلًا: «ولكنك نسيتَ أمرَ الكلاب، يا سيدي، وسكين القاتل.»

صاح ثورندايك: «دعْك من ذلك يا رجل! كلاب الصيد هذه محض هواجس. ولكني أرى الرقيب قادمًا عبر الطريق وآملُ أن يكون السكين معه. ربما ساعدتنا في حلِّ اللغز.»

جاء الرقيب حاملًا صندوقَ حفظٍ صغير، فتوقف أمام الشجرة متفاجئًا بعض الشيء، بينما كنا ننزل من أعلى الشجرة، ثم أقبل علينا وأدى تحيةً عسكرية ثم سلم المفتش الصندوق ففتحه على الفور، ورفع عنه الغطاء، فظهر بداخله شيءٌ ملفوف بمنديل جيب.

قال المفتش: «هذه هي السكين، يا سيدي، على الحال الذي تسلمتُها به بالضبط. أما المنديل فهو منديل الرقيب.»

فردَّ ثورندايك المنديل، وأخذ منها سكينًا نرويجية كبيرة، فتأمَّلَها بتمعنٍ ثم أعطاني إياها. وبينما كنتُ أتفقد النصل، كان هو يهزُّ المنديل ويتفقده من الجانبين، ثم التفت إلى الرقيب وسأله: «متى التقطتَ هذه السكين بالتحديد؟»

أجاب الرقيب: «في حوالي السابعة وخمس عشرة دقيقة يا سيدي، فور انطلاق الكلاب. كنتُ حريصًا على التقاطها من الحلقة، ولففتها بالمنديل على الفور.»

فقال ثورندايك: «السابعة وخمس عشرة دقيقة، أي بعد الجريمة بأقل من نصف الساعة. أمر غريب جدًّا. هل تلاحظ حالة هذا المنديل؟ لم يتلطخ بأيِّ علامة، ولا أثرَ لبقعة دم عليه، مما يُثبت أنه عند التقاط السكين، كان الدم الذي يُغطيها قد جفَّ بالفعل. ولكن الأشياء تجفُّ ببطء — إن جفت أصلًا — في الهواء المشبع بالرطوبة لأمسية خريفية. يبدو أن الدم الذي تضرجت به السكين كان جافًّا بالفعل عندما أُلقيت بالسكين في مكانها. بالمناسبة، يا سيادة الرقيب، بمَ تُعطر منديلك؟»

ردَّ الرقيب مندهشًا بنبرة استياء: «أنا أعطر منديلي! كلَّا يا سيدي، قطعًا لا أعطره. لم أستخدم العطر في حياتي قط، يا سيدي.»

رفع ثورندايك المنديل، فشمه الرقيب وهو غير مصدق، ثم اعترف قائلًا: «بالفعل تبدو فيه رائحةُ عطر، ولكن لا بد أن مصدرها السكين.» وجالت الفكرة نفسها بخاطري، فقرَّبتُ مقبض السكين من أنفي وميزتُ على الفور رائحةَ المسك السكرية المثيرة للغثيان.

وبعد أن تناوبْنا جميعًا شمَّ المنديل والسكين، قال المفتش: «السؤال هو: هل انتقلت الرائحةُ من السكين إلى المنديل أم من المنديل إلى السكين؟»

ردَّ ثورندايك: «لقد سمعتَ قول الرقيب. لم يكن بالمنديل أيُّ رائحة عندما لُفَّ السكين به. أتعلم يا سيدي المفتش، هذه الرائحة تبدو أنها تقودني إلى فرضية غريبة جدًّا. فكِّر في وقائع القضية: المسار الواضح الذي قاد إلى إيليس مباشرةً، على الرغم من أنه لم يوجد به خدشٌ ولا بقعةُ دم، وتناقضات القضية التي أشرتُ إليها ونحن على متن القطار، والآن هذه السكين، التي يبدو أنها أُلقيَ بها مضرجة بدم جاف ومعطرًا بالمسك. كلُّ هذا يشير حسب تقديري إلى جريمة خُطط لها بعناية، وإلى نية مبيتة لارتكابها. لقد علم القاتلُ بشأن كلاب الصيد التي يربيها الجنرال واستغلها لصرف الانتباه. ودسَّ هذه السكين مضرجة بالدماء ومعطرة بالمسك لتشمَّه الكلاب. ولا شك أن شيئًا ما، معطرًا بالمسك هو الآخر، سُحب على الأرض لإعطاء مسارٍ للكلاب. هذه مجرد فرضية بالطبع، ولكنها تستحق أخذها بعين الاعتبار.»

قال المفتش معترضًا: «ولكن يا سيدي، لو كان القاتل قد أمسك بالسكين، لعلقت الرائحة به هو الآخر.»

رد ثورندايك: «بالضبط، إذن بما أننا نفترض أن الرجل ليس غبيًّا، فقد نفترض كذلك أنه لم يمسك بالسكين. ربما تركها حتى الوقت المناسب، مخبَّأة في مكان يمكنه أن يدفعها منه بعصا، مثلًا، إلى حيث عُثر عليها، دون أن يلمسها.»

أشار الرقيب إلى شجرة البلوط وقال: «ربما في هذه الشجرة نفسها يا سيدي.»

ردَّ ثورندايك: «كلَّا، من المستبعد أن يكون قد اختبأ على الشجرة التي كان السكين عليها. فلربما قادت الرائحةُ الكلاب إلى الشجرة بدلًا من تتبع المسار على الفور. المخبأ الأرجح للسكين هو الشجرة الأقرب لمكان العثور عليها.» وسار نحو الحجر الذي ميَّز به الموضع الذي عُثر فيه على السكين، ونظر حوله، ثم تابع: «كما ترون، فشجرة البوق هي الأقرب، كما أن قمتها المسطحة مناسبة تمامًا للهدف؛ إذ يسهل الوصول إليها حتى على رجل قصير القامة كما يبدو على القاتل. لنرَ إذا ما كانت عليها أيُّ آثار. ساعدْني في تسلُّقِها من فضلك يا حضرة الرقيب؛ فليس لدينا سُلَّم.»

وافق الرقيب بابتسامة باهتة، وانحنى بجانب الشجرة في وضعية كتلك التي تُتخذ في لعبة الضفدع القفاز، واضعًا يديه بقوة على ركبته. وأمسك ثورندايك بفرع متين، ثم قفز فوق ظهر الرقيب العريض، ومن موضعه هذا نظر إلى أعلى الشجرة. ثم باعد بين الأفرع ووضع قدمه على حافة الشجرة ثم اختفى في وسطها.

عندما ظهر ثورندايك مرةً أخرى كان يُمسك في يديه بشيئين شديدَي الغرابة: ماسكَي بوتقة حديديَّين، وعلبة فرش رسم من القصدير المطلي باللون الأسود اللامع. ناولَني الماسكَين، وأمسك هو بعلبة الفرش بحرص من حاملها ثم نزل عن الشجرة.

قال ثورندايك: «أعتقد أن دلالة هذين الغرضين واضحة. فهذان الماسكان استُخدمَا في الإمساك بالسكين، أما علبة الفرش فقد كانت السكين محمولة بداخلها حتى لا تتسرب منها الرائحة إلى ملابسه أو حقيبته. لقد وُضعت الخطة بعناية.»

قال المفتش: «إذا كان ذلك صحيحًا، فمن المفترض أن تفوح رائحة المسك من داخل العلبة.»

رد ثورندايك: «بلا شك، ولكن قبل أن نفتحها، ثمة أمر مهم يجب أن نهتمَّ به. هلا أعطيتني مسحوق الفيتوجين يا جيرفيز؟»

فتحتُ «حقيبة الأبحاث» المغطاة بالقماش وأخذتُ منها شيئًا صغيرًا يُشبه مملحة المائدة — كانت في الواقع علبة ذات مصفاة تحتوي على مادة اليودوفورم — وناولتُه إياه. فأمسك علبة الفرش من حاملها السلكي، ورشَّ المسحوق الأصفر الفاتح من العلبة بوفرة حول الغطاء الخارجي بالكامل، وأخذ يطرق على أعلى العلبة بعقلات إصبعه ليوزع الحبيبات الدقيقة، ثم نفخ المسحوق الزائد من فوق العلبة، فصاح الضابطان معًا مندهشَين؛ فقد ظهر على العبوة السوداء عددٌ من بصمات الأصابع، واضحةً تمامًا ومميزة لدرجة جعلت تمييز خطوطها ومنحنياتها سهلًا.

قال ثورندايك: «على الأرجح ستكون هذه بصمات يده اليمنى.»

«والآن لنُلقِ نظرة على اليسرى.» ورش المسحوق على العبوة نفسها بالطريقة نفسها، وعندما نفخ المسحوق، كان سطحها مليئًا ببقع بيضاوية صفراء، ثم قال: «والآن يا جيرفيز، ارتدِ قفازًا وانزع الغطاء، لنرى ما سنجد بالداخل.»

لم يكن نزعُ الغطاء صعبًا؛ فقد كانت حافة العلبة مدهونة بالفازلين — وكان واضحًا أن ذلك كان بغرض إحكام الغلق — وعندما انفصل عن العلبة وصدر صوتُ اندفاع الهواء من تجويفها، فاح من داخلها رائحةُ مسك خفيفة.

قال ثورندايك عندما نزعتُ الغطاء مرة أخرى: «باقي التحقيق من الأفضل أن نُجريَه في مخفر الشرطة، حيث يمكننا أيضًا تصويرُ هذه البصمات.»

قال فوكس: «أقصر الطرق سيكون عبر المروج، من حيث ذهبت الكلاب.»

سلكنا الطريق المقترح، في حين حمل ثورندايك علبةَ الفرش من مقبضها برفق.

وبينما نحن في طريقنا علَّق المفتش قائلًا: «لا أفهم تمامًا صلة إيليس بالأمر، في حين أنه كان يُكنُّ ضغينة لبرات. فلم يكونَا صديقَين.»

قال ثورندايك: «أعتقد أنني فهمتُ الصلة. لقد قلتَ إن الرجلين كانَا حارسَي سجن في بورتلاند في الوقت نفسه. ألا يبدو من المحتمل أن يكون ما حدث من فعل مجرم سابق تعرَّف عليه أحدهما، وربما ابتزَّه برات أو ربما إيليس أيضًا؟ هنا تظهر أهمية بصمات الأصابع. إذا كان سجينًا سابقًا حقًّا؛ فستكون بصماتُه في سكوتلاند يارد. أما إن لم يكن كذلك، فلن تكون هذه البصمات دليلًا ذا قيمة.»

قال المفتش: «هذا صحيح يا سيدي. أعتقد أنك تودُّ رؤية إيليس.»

رد ثورندايك: «بل أريد رؤية كيس النقود الذي تحدثتَ عنه أولًا. لعله يكون طرفَ الخيط الآخر.»

ما إن وصلنا إلى المخفر حتى فتح المفتش خزانةً وأخرج منها حزمةً ففتحها وقال: «هذه متعلقات إيليس، وهذا هو كيس النقود.»

وأعطى ثورندايك كيسًا صغيرًا من جلد الخنزير، ففتحه زميلي، وشمَّه من الداخل ثم ناولني إياه. كانت رائحة المسك ملحوظةً، خاصةً في الجيب الصغير في الجانب الخلفي من الكيس.

قال ثورندايك وهو يشمُّ المحتويات واحدًا تلو الآخر: «من المرجح أن تكون الرائحة قد علقت بالمحتويات الأخرى للحزمة، ولكن حاسة الشم لديَّ ليست حادة بما يكفي لكشف الرائحة. تبدو لي كل الأغراض خالية من الرائحة، أما كيس النقود فرائحته مميزة جدًّا، هلَّا أحضرتم إيليس الآن؟»

أخذ الرقيب مفتاحًا من درج مغلق وذهب به إلى الزنازين، وسرعان ما عاد إليهم بصحبة السجين، وكان رجلًا ممتلئَ الجسم قويَّ البنية، وبدا في أعلى درجات البؤس والكآبة.

قال المفتش: «هوِّن عليك يا إيليس! لقد جاء الدكتور ثورندايك ليساعدنا، ويريد أن يسألك سؤالًا أو اثنين.»

نظر إيليس إلى ثورندايك بعينين ملأهما الانكسار، وقال: «لا أعرف شيئًا عن هذا الأمر سيدي، أقسم بالرب إنني لا أعرف شيئًا.»

قال ثورندايك: «وأنا لم أفترض قط أنك تعرف شيئًا. ولكن ثمة أمرًا أو اثنين أريدك أن تُخبرني بهما. أخبِرْني أولًا عن هذا الكيس؛ أين وجدتَه؟»

فردَّ: «على طريق ثورب، يا سيدي. كان ملقًى في منتصف ممر المشاة.»

سأله ثورندايك: «هل سبقك أيُّ شخص آخر في المرور بذلك الموضع؟ هل مررتَ أو التقيتَ بأحد؟»

رد إيليس: «نعم يا سيدي. التقيتُ بعامل قبل أن أرى الكيس بدقيقة تقريبًا. ولا أفهم لِمَ لم يره.»

قال ثورندايك: «ربما لأنه لم يكن موجودًا عندئذٍ. هل يوجد سياج شجري هناك؟»

رد إيليس: «نعم يا سيدي. سياج شجري على حافة منخفضة.»

«حسنًا، والآن أخبرني، هل يوجد أيُّ شخص في الجوار كنتَ تعرفه عندما كنت أنت وبرات تعملان في بورتلاند؟ أقصد سجينًا سابقًا، مارستَ عليه أنت وبرات نوعًا من الضغط أو الترهيب.»

رد إيليس: «كلَّا يا سيدي، أُقسم لك. لكني لا أعلم بالنسبة إلى برات. لقد كان يتمتع بذاكرة نادرة للوجوه.»

فكَّر ثورندايك لوهلة ثم سأله: «هل هرب أيُّ سجين من بورتلاند عندما كنتَ تعمل هناك؟»

ردَّ إيليس: «واحدٌ فقط؛ رجل يُدعى دوبز. هرب إلى البحر وسط ضباب مفاجئ حلَّ بالمنطقة، واعتُقِد أنه غرق. فقد جرفت الأمواج ملابسَه على شاطئ بيل، دون الجثة. ولم يُسمع به بعد ذلك قط على أي حال.»

قال ثورندايك: «شكرًا يا إيليس. هل تمانع إن أخذتُ بصماتك؟»

ردَّ إيليس متحمسًا: «بالطبع لا يا سيدي.» وأُرسِل في طلب المحبرة، وأُخذت بصماته، وحين ضاهاها ثورندايك مع تلك التي وُجدت على عُلبة الفرش ولم يجد تشابهًا، عاد إيليس إلى زنزانته وقد انفرجت أساريرُه.

بعد أن التقطنا عدة صور فوتوغرافية للبصمات الغريبة، عُدنا إلى البلدة في ذلك المساء، وأخذنا معنا الصور السالبة معنا لتحميضها لاحقًا، وحينما كنا في انتظار قطارنا، أعطى ثورندايك بعض التعليمات للمفتش قبل المغادرة: «تذكَّر! لا بد أن الرجل غسل يديه قبل أن يتمكن من الظهور للعامة. فتِّشوا ضفافَ كلِّ البِرَك والقنوات والجداول في الجوار، وابحثوا عن آثار أقدام كتلك التي وجدناها في الجادة، وإذا وجدتم أيًّا منها، ففتِّشوا قاع المياه جيدًا؛ فمن المرجح أنه ألقى بالسكين في الطين.»

سلَّمنا الصور الفوتوغرافية إلى سكوتلاند يارد في تلك الليلة، فتمكن الخبراء من مضاهاتها مع بصمات فرانسيس دوبز، وهو مجرم هارب، وأُرسلت صور لوجهه كاملًا

ومن الجانب، كانت ملحقةً بملفه، إلى بيسفورد، بالإضافة لوصف للرجل، ولم يمرَّ وقت طويل حتى تمت مضاهاةُ الصور والأوصاف مع شخص غامض بعض الشيء يُعرف باسم روفوس بيمبري، يسكن الحي منذ نحو سنتين، وكان منعزلًا عن المحيطين. ولكن لم يُعثر على روفوس بيمبري في منزله الأنيق ولا في أي مكان آخر. كلُّ ما عُرف هو أنه في نفس يوم الجريمة، حوَّل كل ممتلكاته إلى «أوراق مالية لحامله»، ثم لم يُعثر له على أثر، ولم يُسمع عنه حتى يومنا هذا.

عندما كنتُ أتناقش مع ثورندايك حول هذه القضية في وقت لاحق، قال لي: «أَصدقُك القول، لقد حقَّ عليه أن يهرب. لقد كانت حالةَ ابتزاز واضحة، وقتْل المبتز، إذا لم تجد مهربًا آخر منه، ليس جريمة. أما عن إيليس، فلم يكن من الممكن أن يدان. ولا بد أن دوبز، أو بيمبري، كان يعلم بذلك. ولكنه كان سيمثل أمام محكمة الجنايات، وكان ذلك سيتيح وقتًا يسمح بزوال كل الآثار. ولكن دوبز كان جسورًا ومبتكرًا وواسع الحيلة، والأهم من ذلك، أنه فضح خرافة كلاب الصيد تمامًا.»

أصداء التمرد

الجزء الأول

الموت في جيردلر

ثمة اعتقادٌ عام بأن الأطفال الصغار والحيوانات الدنيا تتمتع بقوًى سحرية غامضة على التكهن بالأمور، لا تتأتى للإنسان البالغ المتمتع بمهارات الاستدلال المنطقي، ويميل أصحابُ هذا الاعتقاد لتقبُّلِ أحكامها وتغليبها على ما تُمليه التجربة الفعلية.

ليس من المجدي أن نبحث فيما إذا كان وراء هذا الاعتقاد أساسٌ خلاف الولع العام بالمفارقات؛ فهو اعتقاد راسخ عمومًا، ولا سيما لدى سيدات طبقة اجتماعية معينة؛ وقد وقر هذا الاعتقادُ في وجدان السيدة توماس سولي ووصل إلى مرتبة العقيدة الراسخة.

قالت السيدة سولي بلهجةِ وعظٍ: «نعم، مدهشةٌ هي قدرة هؤلاء الأطفال الصغار وتلك الحيوانات البلهاء على معرفة الأمور، ولكنهم يعرفون، ولا يمكن خداعُهم. يمكنهم تمييزُ الغثِّ من السمين في لحظة، ويقرءُون ما يُكنُّه قلبُ البشر ككتاب مفتوح. إنه شيء مبهر! أعتقد أنها غريزة لديهم.»

بعد أن صرحت بدُرر الفكر الفلسفي تلك، غمست ذراعيها حتى المرفقين في طست الغسل المزبد، وألقت على المستأجر الجالس عند مدخل المنزل نظرةَ إعجاب وهو يحمل على إحدى ركبتَيه طفلًا سمينًا عمره ثمانية عشر شهرًا، وعلى الأخرى قطًّا مرقطًا رائعًا.

كان جيمس براون بحَّارًا عجوزًا، ضئيلَ البنية دمثَ الخُلق، ولكنه لم يخلُ من التملق وشيءٍ من المكر. لكنه أحب الأطفال والحيوانات ويملك كلَّ براعة البحارة في التودد إليهم، وبينما تأرجح غليونُه الفارغ بين لثتَيه الدرداوَين، كان وجه الطفل يشعُّ بابتسامات سال معها لعابُه، فيما كوَّر القطُّ جسمَه وصار ككرة وبراء، وخَرخَرَ كماكينة الحياكة، وهزَّ أصابعه منتشيًا كأنه يجرِّب قفازًا جديدًا.

تابعتِ السيدة سولي حديثها: «لا بد أن الوحدة قاتلة في المنارة. ثلاثة رجال فحسب، بلا جارٍ يتسامرون معه، يا إلهي، لا بد أنهم يعيشون في فوضى بدون امرأة تعتني بهم

وترتب أمورهم. ولكنك لن تجد الكثير لتفعله يا سيد براون في هذه الأيام التي يطول نهارُها حتى ما بعد التاسعة. لا أعلم كيف ستقضي وقتك.»

ردَّ براون: «بل أتوقع أن أجد الكثير لأفعله؛ من تنظيف المصابيح والزجاج ودهان الأدوات المعدنية. وهذا يذكرني بأن الوقت ...» ثم التفت إلى الساعة وأضاف «قد أزف. إن موعدي الساعة العاشرة والنصف، وقد تجاوزتُ الثامنة بالفعل.»

فهمت السيدة سولي التلميح، فبدأت من فورها في إخراج الملابس المغسولة من الطست وعصرها طوليًّا، ثم جفَّفت يدَيها في مئزرها، وأخذت الطفلَ المشاغب من السيد براون لتريحه منه.

قالت: «ستكون غرفتُك جاهزةً يا سيد براون عندما يحين موعدُ مناوبتك على المنارة، وسيُسعدنا أنا وتوم أن نلقاك مجددًا.»

ردَّ براون وهو يضع القط على الأرض برفق: «أشكرك يا سيدة سولي؛ لن تكون سعادتك بذلك أكثرَ من سعادتي.» وصافح مالكة منزله بحرارة، ثم قبَّل الطفل، وربتَ على أسفل ذقن القط، وأخذ صندوقه الصغير من حلقته، حاملًا إياه على كتفه وخرج من الكوخ.

كان طريقُه ممتدًّا عبر المستنقعات، ومثل السفن المبحرة في عرض البحر، استرشد في سيره ببرجَي ريكولفر اللذين يقفان على نحوٍ غير متناسق عند حافة اليابسة، وعندما وطئت قدماه العشب الرطب، نظرتْ إليه نعاج توم سولي ذات الصوف الأبيض الناعم بنظراتها الخالية من التعبير وودَّعته بأصوات ثُغائها، وعندما وصل إلى بوابة حاجز صخري توقف ليُلقيَ نظرة أخيرة على الطبيعة النضرة لمقاطعة كِنت، حيث برج سانت نيكولاس آت ويد الرمادي الذي يرتفع فوق الأشجار المحيطة، وطاحونة الهواء البعيدة عند سار وهي تدور بتؤدة مع نسيم الصيف، وأطال النظر إلى الكوخ المنعزل الذي عرف فيه لفترة قصيرة في حياته الصاخبة هناءَ الحياة الأسرية وسلامها. حسنًا، لقد انتهى كلُّ ذلك الآن، ولاحت المنارة أمامه. وبتنهيدة قصيرة عبر البوابة ومضى في طريقه نحو بُرجَي ريكولفر.

خارج الأكواخ المطلية باللون الأبيض ذات المداخن السوداء وقف ضابط صفٍّ بحري من خفر السواحل يعدل حبال الرايات على السارية. وعندما التفت رأى براون يقترب فناداه مبتهجًا.

قال الضابط: «ها أنت ذا متألقًا في ملابسك الجديدة. ولكن لدينا مشكلة صغيرة. علينا الإبحار إلى ويتستابل هذا الصباح، لذا لا يمكنني أن أرسل معك أحدَ الرجال ولا يمكنني أن أوفر لك قاربًا.»

تساءل براون: «أعليَّ السباحة إذن؟»

ابتسم الضابط وقال: «ليس بملابسك الجديدة يا صديقي، ولكن قارب ويليت العجوز متاح. لن يستخدمه اليوم؛ فهو ذاهب لزيارة ابنته في مينستر، وسيُعيرنا القارب. ولكن لا يوجد أحدٌ يُرافقك، وسأكون أنا مسئولًا عن القارب أمام ويليت.»

غمرت براون ثقةُ البحارة الشديدة (التي عادة ما تكون في غير موضعها) في قدرته على التعامل مع القارب، وتساءل: «وماذا في ذلك؟ أتعتقد أني لا أُجيد التحكم في قارب وأنا من خاض في البحر منذ كنت في العاشرة؟»

رد الضابط: «أجل، ولكن مَن سيعيد القارب؟»

ردَّ براون: «الرجل الذي سأستلم المناوبة منه؛ فهو أيضًا لا يود أن يقطع طريق عودته سباحةً.»

فكر ضابط خفر السواحل، موجِّهًا تليسكوبه نحو صندل بحري مار، ثم قال: «حسنًا، أعتقد أن كلَّ شيء سيكون على ما يرام، لكن ليتهم استطاعوا إرسال قارب الخدمات. ومع ذلك، إذا تعهدت بإعادة القارب، فسنعطيك إياه. لقد حان وقت انطلاقك.»

ذهب إلى خلف الأكواخ ثم عاد بعد قليل مع اثنين من رفاقه، وسار الرجال الأربعة بمحاذاة الساحل حتى وصلوا إلى مكان قارب ويليت قبل علامة ذروة المد.

كان قارب إيميلي قاربًا عريضًا من نوع محلي معروف، وكان مصنوعًا من البلوط المتين، وألواحه مطلية بالورنيش، ومزود بأشرعة عروة أمامية وخلفية. ولم يكن بالحِمل الهين على الرجال الأربعة معًا، وبينما كان ينزلق على الصخور الجيرية الناعمة مصدرًا قعقعةً جوفاء، ناقش أفراد خفر السواحل مدى صوابية التخلص من أكياس الحصى التي كان مثقلًا بها لتثبيته. ولكنهم تمكنوا من إنزاله إلى حافة الماء بحِمله من الحصى بعد لأيٍ، بعدها، وبينما كان براون يحاول رفع الصاري الرئيسي، أعطاه الضابط البحري تعليماته قائلًا: «ما عليك فعله هو الاستفادة من اتجاه المد. أبقِ مقدمة القارب في اتجاه الشمال الشرقي، وبهذا ستدفعك الرياحُ القادمة من الشمال الغربي حتى توصلك إلى المنارة بسلاسة. ولا تدعْه ينجرف إلى شرق المنارة، وإلَّا فستقع في ورطة إذا انحسر الماء.»

استمع براون لهذه التنبيهات بدون أن يُعيرَها اهتمامًا، بينما كان يرفع الأشرعة ويراقب المد القادم يرتفع ويغمر الساحل المستوي. طفَا القارب على الماء الذي ارتفع من

تحته رويدًا رويدًا. دفع براون مجدافًا مانحًا الماء دفعة قوية حتى غادر القارب الساحل باحتكاك أخير، وبعد أن أنزل دفة التوجيه على محاور ارتكازها، جلس وأخذ يضبط حبل الشراع الرئيسي.

صاح ضابط خفر السواحل مزمجرًا: «ها هو ينطلق، يضبط شراعه لزيادة سرعة القارب. سوف يفعلونها، وهذا ما يُسبب وقوع الحوادث (كان هو نفسه دائمًا ما يفعل المثل). أتمنى أن يرى ويليت العجوز قاربَه سليمًا مرةً أخرى.»

وقف الضابط لبعض الوقت يراقب القارب يخطُّ صفحة المياه في حركة جانبية ويبتعد شيئًا فشيئًا، ثم التفت وتبع زملاءه إلى المخفر.

على الطرف الجنوبي الغربي لرصيف جيردلر الرملي، وعند نقطةٍ وصل فيها عمقُ المياه إلى قامتين، وقفت المنارة على دعاماتها الرفيعة المتباعدة فبدا منظرُها كطير خوَّاض فظ أحمر اللون. كان المد الآن قد وصل إلى نصف ارتفاعه الأقصى. كانت المياه قد غمرت حتى أكثر البقع ضحالة قبل فترة طويلة، وارتفعت المنارة فوق البحر الهادئ فبدت كسفينة عبيد انقطعت عنها الريحُ فعلقت في «الممر الأوسط».

كان ثمة رجلان، هما كلُّ من يعمل بالمنارة، على المنصة الكائنة أمام مصباح المنارة، جلس أحدهما رابضًا في أحد المقاعد، مسندًا ساقَه اليسرى بالوسائد فوق اليمنى، بينما أسند الآخر تليسكوبًا على درابزين المنارة وأخذ يتأمل خطَّ البرِّ الرمادي البعيد، وبرجَي ريكولفر اللذين ظهرَا كنقطتين صغيرتين.

قال: «لا أرى أثرًا للقارب يا هاري.»

زمجر زميله وتذمَّر قائلًا: «سيفوتني المدُّ وسيضيع عليَّ يومٌ آخر.»

قال الأول: «يمكنهم توصيلُك إلى بيرتشنجتون لتستقل القطار.»

زمجر زميله العليل: «لا أريد أن أستقل القطار. فالقارب وحده سيئ بالقدر الكافي. لا شيءَ قادمٌ نحونا، أليس كذلك يا توم؟»

أدار توم وجهه ناحية الشرق وظلل عينَيه براحة يده ثم قال: «ثمة سفينة ذات صاريَين تتقدم مع تيار المد من جهة الشمال. تبدو كسفينة فحم.» ثم وجَّه التليسكوب نحو السفينة المقتربة وأضاف: «شراعها العلوي الأمامي يتكوَّن من قطعتَي قماش جديدتَين، واحدة على كلِّ ضلعٍ من ضلعيه.»

نهض زميله متلهفًا وسأل: «وكيف يبدو شراع العواصف بها يا توم؟»

أجاب توم: «لا يمكنني رؤيته.» ثم استدرك: «أستطيع رؤيته الآن؛ إنه مدبوغ. لا بد أنها السفينة يوتوبيا القديمة يا هاري؛ فهي السفينة ذات الصاريَين الوحيدة التي أعرف أن لها شراعَ عواصف مدبوغًا.»

صاح زميله: «اسمع يا توم، إذا كانت السفينة القادمة هي يوتوبيا حقًّا، فستكون متوجهةً نحو منزلي وسأصعد على متنها. أنا متأكد أن الكابتن موكيت سيسمح لي بذلك.»

ردَّ توم بنبرة شك: «عليك ألا تغادرَ قبل أن تُسلِّمَ المناوبة، أنت تعرف ذلك يا بارنيت؛ إنَّ ترْكَ موقعك مخالف للوائح.»

صاح بارنيت: «تبًّا للوائح! ساقي تهمني أكثر مما تهمني اللوائح. لا أريد أن أُمضيَ ما تبقَّى من عمري قعيدًا. كما أنه لا داعي لوجودي هنا، وهذا الرجل الجديد — براون — قادم بعد قليل. كُن زميلًا صالحًا وأطلق الإشارة يا توم، واستدعِ السفينة.»

قال توم: «حسنًا، هذه مناوبتك على أي حال، ولا أمانع في أن أقول إنني لو كنتُ مكانَك لعُدت إلى المنزل واستشرتُ طبيبًا إذا سنحت لي الفرصة.» ومشى على مهل نحو خزانة الرايات، فتخيَّر رايتَي إشارة، وثبَّتهما بتأنٍّ بحبال الرايات. وعندما اقتربت السفينةُ وصارت داخل نطاقهما، رفع الرايتين على الصارية وهزَّ الحبال، فرفرفت الرايتان لتُعطيَا إشارة «نحتاج إلى المساعدة.»

سريعًا ارتفعت راية استجابة مثلثة الشكل، وملطخة بآثار الفحم في أعلى صارية السفينة الأساسية، وأبطأت السفينة قليلًا، وبعد أن دارت مقدمتُها في اتجاه التيار، انجرفت مؤخرة السفينة ببطء باتجاه المنارة. ثم خرج من السفينة قاربٌ على متنه رجلان أخذَا يحركان مجاديفه بقوة.

صاح أحد الرجلين عندما صار القارب في مرمى السمع: «يا أهل المنارة! ما المشكلة؟»

صاح حارس المنارة: «انكسرت ساق هاري بارنيت، ويريد أن يعرف إذا ما كان الكابتن موكيت سيسمح له بالذهاب إلى ويتستابل.»

استدار القارب الصغير عائدًا إلى سفينة الفحم، وبعد مشاورات قصيرة وصاخبة، عاد القارب إلى المنارة مجددًا.

صاح البحَّار عندما صار في مرمى السمع: «لقد وافق القبطان، ولكنه يحثكما على الإسراع، حتى لا يفوتَه المد.»

أطلق المصاب تنهيدة ارتياح وقال: «خبر سار، ولكني لا أعرف كيف سأنزل على السلم. ما رأيك يا جيفريز؟»

رد جيفريز: «الأفضل أن تدعَني أُنزلك بالرافعة. يمكنك أن تجلس في حلقة في حبل، وسأعطيك حبلًا آخر لتتشبث به.»

قال بارنيت: «حسنًا، سيفي هذا بالغرض يا توم، ولكن أرجوك أن تُنزل الحبل برفق.»

جرت الترتيبات بسرعة كبيرة؛ فلم يكد القارب يأخذ مكانه حتى كان كلُّ شيء جاهزًا، وبعد دقيقة كان الرجل المصاب يتدلَّى من طرف الرافعة كعنكبوت ضخم، وأخذ ينزل ببطء في حين انطلق لسانُه بسباب مسموع خالط صوتَ صرير بكرات الحبال. ثم أُنزل صندوقه وحقيبة معداته، وما إن انفكَّا من الرافعة حتى عاد القارب الصغير إلى سفينة الفحم التي كانت الآن تتحرك ببطء متجاوزة المنارة ومؤخرتها موجَّهة للأمام. رُفع الرجل المصاب إلى أعلى من جانب السفينة، وتبِعه صندوقُه، وانطلقت سفينة الفحم في مسارها جنوبًا عبر المناطق المسطحة من مقاطعة كنت.

وقف جيفريز على منصة المنارة يراقب السفينة تبتعد ويُنصت إلى أصوات أفراد طاقمها تَخفِتُ كلما ابتعدت. وبعد أن غادر رفيقُه الفظُّ، غمرت المنارةَ وحشةٌ غريبة. وكانت آخر السفن العائدة إلى البر قد مرت منذ وقت طويل في قناة برنسيس وتركت البحر موحشًا وخاويًا. كانت العوامات البعيدة تبدو كنقاط سوداء صغيرة تطفو على صفحة الماء اللامعة، والفنارات ذات الأشكال الطويلة الرفيعة البارزة من البقاع المائية الضحلة الخفية، ولكنها زادت من وحشة البحر الخاوي، والأصوات الواهنة للعوامات ذات الأجراس القابعة عند شيفرنج ساند، التي اختلستْها أذنُه عبر الرياح، والتي بدا وقْعُها غريبًا وشجيًّا. كانت مهام اليوم قد نُفذت بالفعل. فقد صُقلت العدسات، وقُلِّمت فتائل المصابيح، ونُظِّف المحرك الصغير لإشارة التحذير من الضباب وزُيِّتَ. صحيح أنه كان لا يزال هناك العديد من المهام العابرة، في انتظار القيام بها، كما هو الحال دومًا في أي منارة، لكن جيفريز لم يكن متحمسًا للعمل عندئذٍ. سيدخل رفيقٌ جديدٌ حياتَه اليوم، غريب سينفردان بعضهما ببعض ليلًا ونهارًا لشهر كامل، وقد يصبح هذا الغريب بمزاجه وميوله وعاداته إما نديمًا تحلو رفقتُه أو خصيمًا لا ينقطع التشاحنُ والخلاف معه. مَن يكون براون هذا؟ وماذا كان فيما مضى من حياته؟ وماذا عن طباعه؟ كانت هذه هي الأسئلة التي دارت بخلد حارس المنارة بطبيعة الحال، وألهتْه عن أفكاره ومهامه المعتادة.

بعد قليل فجأةً لمح نقطةً تلوح في الأفق ناحية البر. سارع بالإمساك بالتليسكوب في لهفة ليتفحصها. كان قاربًا، ولكنه ليس زورقَ خفر السواحل السريع الذي كان يبحث

عنه. كان واضحًا أنه قاربُ صيد يحمل رجلًا واحدًا على متنه. فوضع التليسكوب وتنهَّد في إحباط، ثم ملأ غليونه واتكأ على الدرابزين بعين حالمة تركزت على خط البر الرمادي البعيد.

كان قد أمضى ثلاث سنوات طوالًا في هذه الوحدة المقبضة التي تتناقض تمامًا مع طبيعته من النشاط والسعي المتواصل بلا كلل؛ ثلاث سنوات خالية كما لو بدت بلا نهاية، لم تترك له من الذكريات سوى تعاقب لا نهائي من أجواء الصيف الساكنة، والليالي العاصفة، والضباب الشتوي البارد حين تنطلق أبواق السفن البخارية غير المرئية الفراغ وتُصدر إشارةُ الضباب صافراتِها التحذيرية المبحوحة.

ما الذي أتى به إلى هذا المكان القميء؟ ولماذا مكث فيه والعالم الواسع من حوله يناديه؟ عندئذٍ رسمت له ذاكرتُه صورةً لطالما تمثَّلت حيةً أمامه، والتي حينما لاحت أمامه مرة أخرى الآن، طمست البحر الهادئ والبر البعيد. كانت صورةً مفعمة بالألوان، أبرزت سماءً صافية تعلو البحر الاستوائي الأزرق العميق، وقاربًا أبيض يتمايل بخفة على الأمواج الهادئة، يتمركز في منتصف الصورة.

كانت أشرعةُ القارب مطويةً على صَواريه كيفما اتُّفق، وكانت عوارض شراعه المتأرجحة تهتز بين دعاماتها الرخوة، في حين أخذ مقبض الدفة المتروك بلا قائد يدور جَيئةً وذهابًا مع تأرجح القارب.

لم يكن القارب مهجورًا، بل كان على سطحه أكثرُ من اثنَي عشر رجلًا، ولكنهم جميعًا كانوا سكارى وأغلبهم كان نائمًا، ولم يكن بينهم ضابط.

ثم رأى بعد ذلك إحدى مقصورات القارب من الداخل. كانت منضدة الخرائط والبوصلة وأجهزة قياس الزمن تُشير جميعًا إلى أنها قمرة القبطان. كان فيها أربعة رجال، سُجِّيَت جثتَا اثنين منهما على سطح القارب. أما الاثنان الآخران، فكان أحدهما صغيرَ الحجم تبدو على وجهه ملامحُ الدهاء والمكر وكان جاثيًا بجوار إحدى الجثتين ليمسح السكين في معطفها، أما الرابع فكان هو نفسه.

مرة أخرى رأى القاتلَين يلوذان بالفرار في قارب نجاة، بينما جنح القاربُ بطاقمه الثمل نحو الأمواج المتدفقة عن أحد الحواجز الرسوبية النهرية. ورأى القارب يختفي وسط الأمواج كقطعة ثلج تذوب تحت أُوار الشمس، ثم رأى اثنين من البحارة تحطمت سفينتهما، يستقلان قاربًا مفتوحًا ويرسوان في مرفأ أمريكي.

هذا ما أدَّى به إلى هنا. لقد كان قاتلًا. أما المجرم الآخر، آموس تود، فقد تحوَّل إلى شاهد ملك بعدما أقرَّ للسلطات بتفاصيل الجريمة واعترف عليه، لكنه تمكَّن من الهرب

بشق الأنفس. ومنذ ذلك الحين وهو مختبئ عن العالم الفسيح في هذه المنارة المنعزلة، وعليه أن يظلَّ مختبئًا هنا، ليس من طائلة القانون — إذ لم يكن يعرفه أحدٌ بعدما مات رفاقه من البحارة — بل من شريكه في الجريمة. كان خوفه من تود هو ما جعله يغيِّر اسمه من جيفري رورك إلى توم جيفريز وأرسله إلى منارة جيردلر، ليبقى حبيسًا بها لما تبقَّى من سِنِي حياته. قد يموت تود في أي وقت، وربما كان ميتًا بالفعل الآن، ولكنه لن يعلم بذلك أبدًا، ولن يصلَه خبرُ إطلاق سراحه قط.

استيقظ من أحلامه وعاد يوجه التليسكوب إلى القارب البعيد. كان الآن أقرب إلى المنارة بكثير، وبدا متوجهًا إليها بالفعل. لعل قائدَه جاء يحمل رسالة ما؛ على أي حال، لم يكن في الأفق أثرٌ لزورق خفر السواحل السريع.

دلف إلى الداخل، وتوجَّه إلى المطبخ، وأجرى بعضَ التحضيرات البسيطة لوجبة العشاء؟ ولكنه لم يجد داعيًا للطهي؛ إذ قرر أن يكتفيَ بما تبقَّى من اللحم البارد المطهي في اليوم السابق، مع بعض البسكويت عوضًا عن البطاطا. خالجه توترٌ واضطراب؛ كانت الوحدة تُزعجه، وصوت ارتطام المياه المتواصل بين أعمدة المنارة يضغط على أعصابه.

عندما خرج إلى المنصة مجددًا، كان المدُّ قد بدأ بقوة، واقترب القارب حتى لم يَعُد يفصله عن المنارة سوى ميل واحد أو أكثر قليلًا، ومن هذه المسافة أمكنه أن يرى أن الرجل الذي يقود القارب يرتدي القبعة الرسمية لمؤسسة «ترينييتي هاوس» الخيرية للملاحة. لا بد أن هذا الرجل هو رفيقه القادم المدعو براون، لكن كان هذا غريبٌ جدًّا. ماذا سيفعلان بالقارب؟ لم يكن ثمة أحدٌ ليعيده.

أخذ النسيم يتلاشى. وبينما كان يرقب القارب، رأى قائده يُنزل الشراع ويُمسك بمجدافَيه، ولاحظ جيفريز شيئًا من التعجل في إيقاف القارب مع المد المتزايد، فألقى نظرةً على الأفق. وعندئذٍ لاحظ للمرة الأولى ضبابًا كثيفًا يزحف من جهة الشرق، وقد اقترب كثيرًا؛ حتى إن الفنار الواقع شرق رصيف جيردلر الرملي قد توارى عن الأنظار. فهرع إلى الداخل لتشغيل المحرك الصغير الذي يضغط الهواء لتشغيل إشارة الضباب، وانتظر لفترة يتابعه حتى يتأكد من عمله على ما يرام. وعندما شعر باهتزاز السطح بفعل صافرة إشارة الضباب، خرج إلى المنصة مجددًا.

غمر الضبابُ جميعَ أنحاء المنارة تمامًا، وغاب القارب عن النظر. أرهف السمع، فبدا أن الجدار الضبابي الكثيف قد حجب الأصوات مثلما حجب الرؤية. ظلت إشارة الضباب تُطلق صافرة إنذارها من حين لآخر، ثم سكنت جميعُ الأصوات تمامًا، عدا صوت تدفُّق

المياه بين قوائم المنارة في الأسفل، ورنين الجرس الشجي من شيفرنج ساند، وكان رنينًا خافتًا وبعيدًا للغاية.

وبعد فترة نما إلى سمعه الصوتُ المكتوم لاحتكاك مجدافَين بمرتكزيهما، بعدها، وعند حافة دائرة المياه الرمادية التي سمح الضباب برؤيتها، ظهر القارب وسط الضباب كطَيف باهت، في حين كان قائده يجدف بقوة كشبح. أطلقت إشارةُ الضباب صافرةً مبحوحة؛ فنظر الرجل حوله ورأى المنارة وعدَّل مسار القارب في اتجاهها.

نزل جيفريز على السلم الحديدي، وسار عبر المنصة السفلية حتى وصل إلى طرف السلم، فوقف يراقب الغريب المقترب بنظرات جادة. كان قد سئِم الوحدة واشتدَّ توقُه لصحبة البشر منذ رحيل بارنيت. ولكن ماذا كانت طباع هذا الغريب الذي أوشك أن يدخل حياته وجاء يحتل جزءًا كبيرًا منها؟

أسرع القارب عبر المدِّ المتسارع، واقترب أكثر وأكثر، ومع ذلك لم يستطع جيفريز أن يلمحَ وجه رفيقه الجديد. وبعد وهلة صار القارب محاذيًا للغاية لقوائم المنارة واصطدم بها. سحب الغريبُ أحد المجدافَين وقبض على إحدى درجات السلَّم الحديدي، ودلَّى جيفريز حبلًا إلى القارب، وما زال لم يرَ وجه الرجل بعد.

مال جيفريز على السلَّم وراقب الرجل باهتمام وهو يربط الحبل الذي دلَّاه ويفك الشراع من مربطه ويُنزل الصاري. وعندما فرغ الغريب من ذلك التقط صندوقًا صغيرًا وحمله على كتفه وصَعِد على السلم. كان يصعد ببطء، بسبب الحمل الملقى على كتفه، وأخذ يرتقي درجات السلم درجة تلو الأخرى دون أن يخطف نظرة واحدة إلى الأعلى، بينما جيفريز يُحدق إلى رأسه بفضول متزايد. وصلَ الغريب إلى أعلى السلم أخيرًا وانحنى جيفريز ومدَّ يده إليه ليساعده. وعندئذٍ رفع الغريب رأسه للمرة الأولى، فتراجع جيفريز إلى الخلف وامتقع لونه من هول المفاجأة.

قال لاهثًا: «يا إلهي! إنه آموس تود!»

عندما خطَا الوافد الجديد بقدمِه على منصة المنارة، أطلقت إشارةُ الضباب إنذارًا بدا كزمجرة وحش جائع. استدار جيفريز فجأةً دون كلمة واحدة، واتجه إلى الدرج يتبعه تود، وصعد الرجلان صامتَين بلا أيِّ صوت سوى قعقعة حذاءيهما الجوفاء على الألواح الحديدية. اتجه جيفريز إلى غرفة النوم في صمت، وتبعه رفيقُه، ثم استدار وأشار إليه أن يضع صندوقه عنه.

قال تود وهو يُجيل نظره في الغرفة في شيء من الدهشة: «أنت لا تتحدث كثيرًا، يا رفيق. ألن تُلقيَ عليَّ تحية الصباح؟ آمُل أن نكون رفيقَين جيدَين. أنا جيم براون، حارس المنارة الجديد، ماذا عساه يكون اسمك؟»

التفت جيفريز إليه فجأةً وقاده إلى النافذة ثم قال بنبرة صارمة: «انظر إليَّ بتمعنٍ يا آموس تود، ثم اسأل نفسك عن اسمي.»

عندما سمع تود صوتَه رفع بصره مجفلًا، وشحب لونه كالموتى ثم قال هامسًا: «مستحيل! جيف رورك!»

ضحك جيفريز بغلظة، ومال إلى الأمام، وقال بصوت خفيض: «هل وجدْتَني يا عدُوِّي!»

صاح تود: «لا تقُل هذا! لا تَدعُني بعدوِّك يا جيف. يعلم الرب أني سعدتُ بلقائك، مع أني لم أعرفك قط بدون لحيتك وبهذا الشيب الذي غزا رأسَك. أعرف أني أخطأتُ في حقك يا جيف، لكن لا طائل من اجترار ضغائنَ قديمة. لننسَ الماضي يا جيف، ولنكن صديقَين كما كنَّا.» ومسح وجهه بمنديله وراقب رفيقه في تخوُّفٍ.

أشار رورك إلى كرسي مهترئ ذي ذراعين مكسوٍّ بنسيج مضلع وقال: «اجلس، اجلس وأخبرني ما فعلت بكل هذه الأموال. بددتَها كلَّها على ما أظن، وإلا ما كان لينتهيَ بك المطاف إلى هنا.»

رد تود: «لقد سُرقت يا جيف، سُرقت كلها حتى آخر بنس منها. آه! كم كان مؤسفًا ذلك الذي حدث على مركب سي فلاور القديم! ولكنه انتهى وولَّى، ويستحسن ألا نتذكرَه. كلُّهم ماتوا إلا نحن يا جيف؛ لذا نحن في أمان تام طالما بقيت أفواهُنا مغلقة؛ كلُّ شيء أصبح الآن في قاع البحر، وهو أفضل مكان لهم أيضًا.»

قال رورك بحدة: «نعم، هذا أفضل مكان لرفاقك عندما يعرفون أكثر من اللازم، أن يبتلعَهم البحر أو يتأرجحوا على المشنقة.» وأخذ يذرع الغرفة الصغيرة جيئةً وذهابًا بخُطًى مسرعة، وفي كل مرة يقترب من كرسي تود، كان الأخير يتراجع إلى الخلف وقد بدا الانزعاجُ على وجهه.

قال رورك: «لا تجلس مكانك وتحدق فيَّ هكذا. لِمَ لا تدخن أو تفعل شيئًا؟»

سارع تود يُخرج غليونًا من جيبه وملأه من جراب من جلد الخُلد ثم دسَّه في فمه بينما أخذ يبحث عن عود ثقاب. يبدو أنه اعتاد حمل أعواد الثقاب مفردةً في جيبه؛ إذ أخرج عودًا أحمر الرأس على الفور، وقدحه على الحائط فاشتعل مُصدِرًا لهبًا أزرق

شاحبًا، ثم قرَّبه من الغليون وظل يشفط وجنتيه وعيناه لا تفارقان رفيقه. أما رورك فقد كفَّ عن مشيه المتوتر ووقف يقطع شريحة من التبغ الصلب بمطواة جيب كبيرة، وظل يحدق في تود في شرود عابس.

ظل تود يسحب الدخان من المبسم بلا جدوى، ثم قال: «هذا الغليون مسدود. هل لديك قطعة من السلك يا جيف؟»

رد رورك: «كلَّا، ليس لديَّ هنا. سأجلب لك قطعةً من المخزن في الحال. خُذ هذا الغليون حتى تتمكن من تنظيف غليونك؛ لديَّ واحد آخر هناك على الرف.» في تلك اللحظة غلب طبع البحار في حسن الضيافة على العداوة التي كان يُكنُّها رورك لتود، فمدَّ يده بالغليون الذي كان قد ملأه للتوِّ نحو تود، الذي أخذه وهو يُتمتم بكلمة شكر، وعينُه معلقة في توتر بالسكين المفتوحة. كان على الحائط بجانب الكرسي رفٌّ بدائيُّ الصنع للغلايين عليه عددٌ منها، فمال رورك على الكرسي ومدَّ ذراعه يأخذ واحدًا، في حين انسحب الدم من وجه تود تمامًا.

قال تود بعد صمت بينما كان رورك يقطع «حشوة» جديدة من التبغ: «إذن، يا جيف، هل سنعود صديقَين كما كنا؟»

اشتعلت جذوةُ العداء في نفس رورك من جديد وقال بصرامة: «هل سأصبح مرةً أخرى صديقًا للرجل الذي حاول أن يوديَ بحياتي بوشايته بي؟» وتوقَّفَ لوهلة ثم تابع قائلًا: «هذا يحتاج لبعض التفكير حقًّا، أما الآن فعليَّ الذهاب لتفقد المحرك.»

عندما غادر رورك، جلس حارس المنارة الجديد يحمل في يديه الغليونَين، وهو غارق في أفكاره. وضع الغليون الجديد في فمه وهو شارد الذهن، وترك الغليون المسدود على الرف، وتحسَّس جيبه بحثًا عن عود ثقاب. أشعل الغليون ولم يزل ذهنُه شاردًا، وبعد أن دخَّن لدقيقة أو دقيقتين، نهض من كرسيه وأخذ يتجول عبر الغرفة برفق، يُجيل النظر حوله ويُصيخ السمع. توقَّف عند الباب وأخذ يُمعن النظر وسط الضباب، ثم خرج على أطراف قدميه إلى المنصة في اتجاه الدرج، ولم يَزَل يُصيخ السمع. وفجأة توقَّف فزعًا من صوت رورك.

«مهلًا يا تود! إلى أين أنت ذاهب؟»

فجاءه الرد: «سأنزل لإحكام ربط القارب فحسب.»

فقال رورك: «لا تقلق بشأن القارب. سأتولى أمره.»

قال تود ولم يزل يواصل زحفه نحو الدرج: «حسنًا يا جيف. ولكن، أين الرجل الآخر، الذي من المفترض أن أستلم المناوبة منه؟»

أجاب رورك: «لا يوجد رجل آخر؛ فقد غادر على متن سفينة فحم.»

شحب وجه تود فجأةً وبدا عليه الذبول، وقال لاهثًا: «إذن لا يوجد هنا سوانا نحن الاثنين!» ثم تساءل وهو يحاول جاهدًا إخفاء خوفه: «ولكن مَن سيُعيد القارب؟»

رد رورك: «سنتدبر أمره بعد قليل؛ ادخل أنت وأفرغْ صندوقك.»

خرج رورك إلى المنصة أثناء حديثه، وقد بدا على وجهه العبوس والاكفهرار. رمقه تود بنظرة رعب، ثم استدار وفرَّ مسرعًا نحو الدرج.

صاح رورك وهو يهرع مسرعًا عبر المنصة: «عُد إلى هنا!» ولكنَّ قدمَي تود كانت بالفعل تدبدبان بقوة على درجات السلم الحديدي، وعندما وصل رورك إلى أعلى الدرج كان تود قد اقترب من أسفله، ولكنه تعثر في غمرة استعجاله، وكاد يسقط لولا أن تشبث بالدرابزين، ولم يكد يستعيد توازنه حتى لحق به رورك. أسرع تود إلى أعلى السلم، ولكنه ما إن قبض على قائمه حتى أمسك مطاردُه به من ياقته. استدار تود في لحظة خاطفة ويده تحت معطفه، فوجَّه ضربةً سريعة، وأطلق رورك سُبةً بصوتٍ عالٍ، فردَّ عليها تود بصيحة، ثم سقط سكين وأخذ يدور في الهواء حتى استقر في مقدمة القارب القابع في الأسفل.

قبض رورك بيده النازفة على عنق عدوه وقال بصوت هادئ مخيف: «أيها الشيطان القاتل! ألم تزل بارعًا في استخدام سكينك؟ كنتَ تحاول الهرب للوشاية بي، أليس كذلك؟»

رد تود بصوت مختنق: «كلَّا، لم أنوِ ذلك يا جيف، أقسم لك إني لم أنوِ ذلك. أفلتني يا جيف. لم أقصد إيذاءك. كنت فقط أ...» وبحركة لَيٍّ مفاجئة تمكن من تحرير إحدى يديه، ووجَّه بها ضربة نحو وجه مهاجمه في اهتياج. لكن رورك تفاداها، وأمسك بمعصمه الآخر ثم دفعه بعنف وأفلت منه. فتراجع تود بضع خطوات إلى الخلف عبر المنصة حتى وصل إلى الحافة، وهنا وقف لوهلة فاغرًا فاه ومحدقًا في رعب، ثم أخذ يترنح ويتشبث بقوة بالهواء. بعد ذلك، وبصرخة حادة، مال إلى الخلف وهوَى، مرتطمًا بإحدى قوائم المنارة أثناء سقوطه، ليرتد مرة أخرى ويسقط في الماء.

على الرغم من ارتطام رأسه بالقائم بصوت مسموع، لم يُغشَ عليه؛ فعندما طفا على السطح بعد لحظات، أخذ يضرب الماء بذراعَيه بقوة، مطلقًا صرخاتِ استغاثةٍ قصيرة مكتومة. راقبه رورك بأسنان مطبقة وأنفاس متسارعة، لكن من دون حَراك. أخذ رأس تود يبتعد أكثر وأكثر وقد أحاطته دائرة من التموجات الصغيرة، إذ سحبه التيار السريع بعيدًا، وخفتت صيحاتُه المستغيثة القادمة عبر المياه الهادئة. وأخيرًا عندما بدأ الرأس يتوارى وسط الضباب، وفي محاولة أخيرة للنجاة، رفع الرجل الموشك على الغرق، رأسه

فوق سطح الماء وأطلق صرخة استغاثة يائسة أخيرة نحو المنارة. أجابت إشارة الضباب على صرخته بصافرتها، ثم غاص الرأس تحت الماء، ولم يظهر مرةً أخرى، ووسط السكون المخيف الذي خيَّم على البحر، ما كان هناك سوى رنين جرس مكتوم خافت قادم من بعيد.

وقف رورك لبضع دقائق بلا حراك، مستغرقًا في تفكير عميق. وبعد قليل استفاق من شروده على صوت صافرة سفينة بخارية. كانت حركة الملاحة إثر انحسار المد قد بدأت، وكان الضباب في طريقه إلى الانقشاع في أي لحظة، ولم يزل القارب مربوطًا في الأسفل. يجب التخلص من القارب على الفور. لم يره أحدٌ حين وصوله إلى المنارة، ولا بد ألا يراه أحدٌ مربوطًا بالمنارة. إذا تخلص من القارب فسيُمحى كلُّ دليل على زيارة تود إلى المنارة. نزل على السلم، وركب القارب. كان الأمر بسيطًا. فقد كان القارب محملًا بحمولة ثقيلة من أكياس الحصى، وسوف يغرق في الحال إذا امتلأ بالماء.

نقل بعض أكياس الحصى من مكانها، وبعد أن خلع الألواح السفلية للقارب، ونزع السدادة. وفي الحال اندفع الماء بغزارة إلى قاعه. تأمَّل رورك المشهد بعينٍ فاحصة، ولمَّا أدرك أن الماء سيملأ القارب في غضون دقائق معدودة، أعاد الألواح إلى موضعها، ثم ثبَّت الصاري والشراع بمقعد مجداف مستخدمًا بضعَ لفَّات من الحبال حتى لا يُفلتا، وفكَّ القارب من حبل الربط، ثم صعد درجات السلم.

أخذ التيار يسحب القارب الحر، في حين أسرع رورك إلى المنصة العلوية يشاهد اختفاءه. وفجأة تذكَّر صندوق تود. كان لا يزال في الغرفة بالأسفل. نظر حوله نظرة سريعة في الضباب، ثم هرع إلى الغرفة، وانتزع الصندوق، وحمله إلى المنصة السفلية. وبعد نظرة خاطفة متوترة أخرى للتأكد من خلو الأفق من أيِّ أثر لسفينة أو قارب، ألقى بالصندوق من فوق الدرابزين، وعندما سقط في البحر محدثًا ارتطامًا عاليًا، مكث رورك يراقب الصندوق وهو يغطس في أثر صاحبه والقارب الغارق. ولكنه لم يطفُ على السطح قط، فعاد إلى المنصة العلوية من فوره.

كان الضباب يتلاشى الآن، وظل القارب مرئيًّا بوضوح أثناء انجرافه. ولكن مرَّ وقت أطول مما توقع قبل أن يغرق، ولما انجرف لموضع أبعد، أمسك بالتليسكوب وراقبه بتوتر متزايد. سيكون من المؤسف أن يرى أحد القارب؛ فلو انتُشل القارب واكتُشف أمر السدادة المنزوعة، فسيكون ذلك كارثة.

أخذ قلقه يزداد بحق. واستطاع من خلال التلسكوب أن يرى القارب ينقلب ببطء وقد ملأه الماء، ولكن كان لا يزال يظهر منه بضع بوصات، وكان الضباب ينقشع في كل لحظة.

بعد قليل انطلقت صافرة سفينة بخارية قريبة. أخذ ينظر حوله في عجالة فلم يرَ شيئًا، فأعاد توجيه التليسكوب إلى القارب الآخذ في الاختفاء في لهفة. وفجأة أطلق تنهيدة ارتياح. فقد انقلب القارب رأسًا على عقب، واعتدل لثانية مرةً أخرى، ثم انقلب مجددًا ببطء حتى تدفق الماء فوقه أخيرًا.

في غضون ثوانٍ أخرى قليلة اختفى القارب عن الأنظار. ترك رورك التليسكوب وأخذ نفَسًا عميقًا. لقد أصبح الآن آمنًا. لقد غرق القارب واختفى بلا رجعة. لكنه لم يَنَل أمنَه فحسب، بل نال حريته كذلك. اختفت الروح الشريرة التي طاردته وظلت تهدده طوال حياته، وها هو العالم الفسيح، عالم الحياة والانطلاق والمتعة، يناديه.

في غضون دقائق قليلة انقشع الضباب، وأرسلت الشمس أشعتها الذهبية على سفينة الماشية ذات المدخنة الحمراء التي أفزعته صافرتُها منذ وهلة، عاد اللون الأزرق الصيفي إلى السماء والبحر، وظهر البر مجددًا في الأفق.

عاد إلى الداخل يصفر في ابتهاج، وأوقف محركُ صافرة إشارة الضباب، ثم عاد وسحب الحبل الذي كان قد دلَّاه لتود، ورفع إشارة لطلب المساعدة، ثم عاد ليتناول وجبته وحده في سلام وسعادة.

الجزء الثاني

العظمة المُغنِّية

يرويها الدكتور كريستوفر جيرفيز

ينطوي أيُّ مسعى علمي — مهما اختلفت طبيعتُه — على قدرٍ معين من الجهد البدني بطبيعة الحال؛ جهد لا يمكن للعالِم أن يبذلَه بنفسه، فالمهارة العملية تستغرق زمنًا طويلًا بينما الحياة قصيرة. فالتحليل الكيميائي يتطلب عملية «تنظيف» مرهقة للأجهزة والمختبر لا يتسع لها وقتُ الكيميائي؛ وما يتضمنه تجهيز هيكل عظمي — من تعطين وتبييض، و«تجميع العظام» وربطها — يجب أن يتولاه شخصٌ ليس وقتُه ثمينًا كوقت العالِم. ويسري ذلك على الأنشطة العلمية الأخرى. فوراء كلِّ عالم يملك أدوات العلم، فنيٌّ لا غنًى عنه يملك عدة المهارة اليدوية.

كان بولتون، مساعد ثورندايك في المختبر، خيرَ مثال على هذا النوع الأخير؛ فقد كان بارعًا، واسع الحيلة، ومبدعًا ومثابرًا لا يكلُّ. كما كان إلى حدٍّ ما عبقريًّا مبتكرًا، وكان أحدُ ابتكاراته سببًا في انخراطنا في القضية الفريدة من نوعها التي سأروي قصتها في السطور التالية.

امتهن بولتون صناعةَ الساعات، ولكنه كان أيضًا متخصصًا في البصريات بحكم الهواية. كانت الأدوات البصرية هي شغفَ حياته، وحين جلب لنا ذات يوم موشورًا زجاجيًّا مُطوَّرًا يرفع كفاءة العوامات الضوئية التي تعمل بالغاز لنفحصه أنا وثورندايك، سارع ثورندايك بعرض الاختراع على صديق له بمؤسسة «ترينيتي هاوس» للملاحة.

وعلى أثر ذلك، وجد ثلاثتُنا — ثورندايك، وبولتون، وأنا — أنفسنا، في صباح باكرٍ نديٍّ من شهر يوليو، في الطريق عبر ميدل تيمبل لين متجهين إلى مرفأ تيمبل بيير. عندما

وصلنا وجدنا عند الجسر العائم قاربًا سريعًا صغيرًا يعمل بالوقود، ووجدنا رجلًا متورد الوجنتين ذا شارب أبيض واقفًا في قمرة القيادة.

قال الرجل بصوت رائع ورنَّان يميزُ البحَّارة: «طاب صباحُك يا دكتور؛ صباحٌ مناسب لرحلة إلى النهر السفلي، صحيح؟ وأهلًا بك يا بولتون! أتيتَ لتسلبنا لقمة عيشنا، أليس كذلك؟» ودوت ضحكتُه المبهجة فوق صفحة النهر فخالطت صوتَ خفقان محرك القارب الذي أوشك على التحرك من الرصيف الذي كان راسيًا عليه.

كان الكابتن جرامباس من أعضاء الهيئة العليا لمؤسسة «ترينيتي هاوس». كان عميلًا لدى ثورندايك في الماضي، ثم ارتقى ليُصبح صديقًا شخصيًّا له، كما يحدث مع عملاء ثورندايك، وقد شمل بترحيبه الحار مساعدنا الذي لا يقدر بثمن.

تابع الكابتن جرامباس الكلام بضحكة خفيفة: «كم هو لطيف أن تُعلِّم جماعةٌ من المحامين أو الأطباء جماعةً من خبراء الملاحة البحرية عملَهم، ما الأمر؟ أَكسدتْ تجارتُكم فبحثتم عن غيرها لشغل الوقت يا بولتون؟»

ابتسم بولتون ابتسامةً عريضة غريبة وردَّ قائلًا: «ليس لدينا الكثيرُ لنفعله على الصعيد المدني، لكنَّ المجرمين لا يزالون في حالة من النشاط.»

قال الكابتن جرامباس: «فرقةُ حلِّ الألغاز لم تَزَل في أوج ازدهارها! وعلى ذكر الألغاز يا دكتور، يواجه رجالُنا مشكلةً غريبة لا يجدون حلًّا لها، في صميم اختصاصك تمامًا. وبما أنك هنا، لِمَ لا أستغلُّ وجودك وأُرهق ذهنك بها؟»

ردَّ ثورندايك: «بالضبط، لِمَ لا؟»

قال الكابتن: «إذن، سأشرح لك، ولنعمل معًا جميعًا.» ثم أشعل سيجارًا، وسحب نفسين، وبدأ حديثه قائلًا: «اللغز باختصار كالتالي: اختفى أحد حراس المنارات العاملين لدينا بلا أثر، كمن انشقت الأرض وابتلعته. ربما هرب أو غرق بطريق الخطأ أو قُتل. سأعطيك التفاصيل بترتيبها. في نهاية الأسبوع الماضي جلب صندل بحري إلى رامسجيت خطابًا من المنارة التي تقوم على قوائم دعم ملولبة على رصيف جيردلر الرملي. يوجد هناك رجلان فقط، يبدو أن أحدهما — ويُدعَى بارنيت — قد أُصيب بكسرٍ في الساق، وطلب أن تُعيدَه سفينةُ الخدمات إلى البر. تصادف أن كانت سفينة الخدمات المحلية، التي تحمل اسم واردن، تخضع لأعمال صيانة خفيفة في مرفأ رامسجيت جعلتْها غيرَ متاحة ليوم أو يومين، ونظرًا لكون الأمر عاجلًا وملحًّا، أرسل المسئول في مرفأ رامسجيت خطابًا إلى المنارة حملتْه إحدى السفن البخارية الترفيهية مفادُه أن الرجل سيغادر مقرَّ

عمله على متن قارب في صباح اليوم التالي، الذي كان يوافق يوم سبت. كما أرسل المسئول خطابًا إلى حارس جديد كان قد عُيِّن للتوِّ، يُدعَى جيمس براون، وكان يسكن بالقرب من ريكولفر وفي انتظار استلام عمله، يطلب منه أن يتوجه إلى المنارة صباح السبت على متن أحد قوارب خفر السواحل، وأرسل المسئول خطابًا ثالثًا إلى ضابط خفر السواحل في ريكولفر يطلب منه توصيل براون إلى المنارة وإعادة بارنيت منها. ولكنهما لم ينفذَا ما طُلب منهما بالضبط. فلم يستطع ضابطُ خفر السواحل تأمينَ قارب ليُقلَّ براون ولا رجلًا ليصاحبه، فاستعارَا قارب صيد أبحر به الأحمق براون بمفرده، لربما تمكن بارنيت من العودة بالقارب على الرغم من ساقه المكسورة.

في هذه الأثناء كان بارنيت، وهو يقطن في ويتستابل، رفع إشارة لسفينة فحم كانت متوجهةً نحو بلدته، فأخذوه من المنارة، وتُرك الحارس الآخر — توماس جيفريز — وحده إلى حين وصول براون.

لكن براون لم يَصِل إلى المنارة قط. لقد ساعده ضابط خفر السواحل في الانطلاق ورآه يُبحر في عرض البحر، ورأى الحارس جيفريز قاربًا شراعيًّا على متنه رجلٌ واحد متوجهًا نحو المنارة، ثم عمَّ ضبابٌ كثيف وغمر القارب، وعندما انقشع لم يُعثر للقارب على أثر. اختفى القارب والرجل معًا بلا أثر.»

قال ثورندايك: «ربما تعرض لحادث تصادم.»

وافقه الكابتن: «ربما، لكن لم يَرِد بلاغٌ بوقوع حادث. يعتقد خفر السواحل أن القارب ربما يكون قد انقلب بفعل عاصفة مفاجئة؛ فقد رأوه يضبط الشراع في وضع يزيد من سرعة القارب. ولكن لم يكن هناك أيُّ عواصف مفاجئة، بل كان الطقس هادئًا تمامًا.»

سأل ثورندايك: «هل كان الرجل على ما يرام عندما أبحر؟»

أجاب الكابتن: «نعم، كانت إفادة خفر السواحل مسهبة؛ في الواقع، لقد كان مليئًا بتفاصيل سخيفة لا تفيد بشيء. إليك ما يقولون.» وأخرج خطابًا رسميًّا وقرأ: ««آخر مرة شوهد فيها المفقود كان جالسًا في مؤخرة القارب موجهًا الدفة في اتجاه الرياح. ربط الشراع بحبل. كان يُمسك بغليون وكيس تبغ في يديه ويوجه القارب بمرفقه. كان يملأ الغليون من كيس التبغ.» أرأيت؟ «كان يُمسك الغليون بيده» وليس بأصابع قدمه؛ وكان يملؤه من كيس تبغ، رغم أنك كنت ستتوقع أن يملأه من وعاء فحم أو من رضَّاعة أطفال!» ثم طوى الكابتن الخطاب وأعاده إلى جيبه، ونفخ دخان سيجاره في ازدراء.

قال ثورندايك ضاحكًا من انفعال الكابتن: «أنت متحامل على خفر السواحل. واجب الشاهد أن يُدليَ بكل الوقائع، لا أن ينتقيَ ما يراه مهمًّا.»

قال الكابتن جرامباس: «ولكن يا سيدي العزيز، ما أهمية ما ملأ منه الرجل غليونه؟»

أجاب ثورندايك: «من يدري؟ ربما يتبين أنها حقيقة جوهرية للغاية في وقت لاحق. لا يمكن للمرء أن يجزم بذلك مقدمًا. فقيمةُ أيِّ حقيقة تعتمد على صلتها بباقي الأدلة.»

قال الكابتن متبرمًا: «أتفق معك.» وواصل تدخينَ سيجاره في صمت تأملي، حتى وصلنا إلى بلاكوول بوينت، وإذا به يقف فجأة.

أعلن الكابتن: «ثمة سفينة صيد بخارية على رصيفنا، ماذا تفعل هذه هنا بحق الجحيم؟» وأخذ يفحص السفينة الصغيرة بعناية، ثم واصل: «يبدو أنهم يُنزلون شيئًا ما. ناولني هذا المنظار يا بولتون! يا للهول! إنها جثة! لكن لماذا يُنزلونها على رصيفنا؟ لا بد أنهم علموا بقدومك يا دكتور.»

عندما توقَّف القارب السريع بجانب الرصيف، أسرع الكابتن بخفة واقترب من الجمع المتحلق حول الجثة وسأل: «ما هذا؟ ولِمَ جاءوا بهذه الجثة إلى هنا؟»

شرع ربان سفينة الصيد الذي كان يشرف على إنزال الجثة، في توضيح الأمر.

قال: «إنه أحد رجالكم يا سيدي. لقد رأينا الجثة ملقاة على حافة مرتفع ساوث شنجلز ساند، بالقرب من الفنار، حين كنا نمرُّ في منطقة ضحلة المياه؛ اقتربنا منها، فانتشلنا القارب وأحضرناه على متن السفينة. ونظرًا لعدم وجود شيء نستدل منه على هوية الرجل، فقد فتشتُ جيوبه ووجدتُ هذا الخطاب.» وأعطى الكابتن مظروفًا رسميًّا موجهًا إلى «السيد جيه براون، منزل السيد سولي، شيفرد، ريكولفر، كِنت.»

صاح كابتن جرامباس: «يا إلهي، هذا هو الرجل الذي كنا نتحدث عنه يا دكتور. يا لَها من مصادفة عجيبة! ولكن ماذا عسانا نفعل بالجثة؟»

أجاب ثورندايك: «سيكون عليك أن تكتب إلى الطبيب الشرعي.» والتفت إلى ربان سفينة الصيد وسأله: «بالمناسبة، هل فتشت كلَّ الجيوب؟»

رد الربان: «كلَّا يا سيدي. لقد وجدتُ الخطاب في أول جيب فتشته، فلم أفتش الجيوب الأخرى. أيوجد شيءٌ آخر تودُّ معرفته يا سيدي؟»

أجاب ثورندايك: «لا شيء سوى اسمك وعنوانك، سيحتاجهما الطبيبُ الشرعي.» أدلى الربان بالمعلومات المطلوبة، وأعرب عن أمله في ألا «يعطلَه» الطبيب الشرعي، ثم عاد إلى سفينته، ومضى في طريقه إلى بيلينجسجيت.

قال الكابتن جرامباس: «أتساءل إن كنتَ تُمانع في إلقاء نظرة على جثة هذا المسكين، ريثما يرينا بولتون ما في جعبته من بدع.»

رد ثورندايك: «لا يمكنني أن أفعل الكثير بدون أمرٍ من الطبيب الشرعي، ولكن إذا كان ذلك سيرضيك، فسيسعدني أن أُجريَ أنا وجيرفيز فحصًا مبدئيًّا.»

قال الكابتن: «سيسعدني ذلك؛ فنحن نودُّ أن نعرف إن كان المسكين قد مات ميتةً طبيعية.»

نُقلت الجثة إلى سقيفة، واقتِيدَ بولتون بعيدًا وهو يحمل الحقيبة السوداء التي تحوي ابتكاره الجديد، ودخلتُ أنا وثورندايك السقيفة لنبدأ الفحص.

كان المُتوفى رجلًا صغير الجسم كبير السن، يرتدي زيًّا بحريًّا أنيقًا إلى حدٍّ ما. كان يبدو أن الوفاة حدثت منذ يومين أو ثلاثة فقط، وخلت الجثةُ من عضات السمك ولدغات السلطعون، على عكس المعتاد في الجثث التي يلفظها البحر. لا عظام مكسورة، ولا أي إصابات بالغة، ولا جروح فيما عدا قَطْع شديد في فروة الرأس من الخلف.

قال ثورندايك بعد ملاحظة هذه التفاصيل: «يبدو من المظهر العام للجثة أن سبب الوفاة هو الغرق، ولكن بالطبع لا يمكننا أن نُعطيَ رأيًا قاطعًا إلا بعد تشريح الجثة.»

سألتُه: «أنت لا تُولي أيَّ أهمية لجرح فروة الرأس إذن؟»

فأجابني: «باعتباره سببًا للوفاة؟ كلَّا. من الواضح أنه حدث بينما لم يَزل الرجل حيًّا، لكن يبدو أنه حدث إثر ضربة مائلة فنزلت بكل قوتها على فروة الرأس دون أن تُلحقَ أيَّ إصابة بالجمجمة. ولكنَّ الجرح مهمٌّ للغاية من جانب آخر.»

سألتُه: «وما هو؟»

أخرج ثورندايك علبةً من جيبه وأخرج منها ملقطًا، وقال: «فكِّر في الظروف. لقد انطلق هذا الرجل من البرِّ ليذهب إلى المنارة، ولكنه لم يَصِل إلى هناك قط. السؤال هو: إلى أين وصل إذن؟» وبينما كان يتحدث مال على الجثة، وأزاح الشعر من حول الجرح بطرف الملقط، وتابع: «انظر إلى تلك الأشياء البيضاء بين الشعر يا جيرفيز، وبداخل الجرح أيضًا. أعتقد أنها تُخبرنا بشيء.»

فحصتُ الشظايا الطباشيرية التي أشار إليها بواسطة عدساتي وقلتُ: «تبدو كأجزاء من أصداف، وأنابيب لنوع من الديدان البحرية.»

ردَّ قائلًا: «نعم، هذه الأصداف المكسورة من الواضح أنها أجزاء من صدف محار البرنقيل البلوطي، أما الشظايا الأخرى فأغلبُ الظن أنها قِطَع من أنابيب الديدان البحرية

الشائعة. وهذه البقايا تقودنا إلى استنتاج هام؛ وهو أن هذا الجرحَ سببه جسمٌ صلب مغطًّى بأصداف البرنقيل البلوطي والديدان الأنبوبية البحرية الشائعة، أي أن هذا الجرح تسبَّب فيه جسمٌ يغمره الماء على نحوٍ دوري. الآن، أي جسم عساه يكون هذا؟ وكيف يمكن أن يكون قد اصطدم به رأسُ المتوفى؟»

اقترحتُ قائلًا: «قد يكون مقدمة سفينة صدمته.»

قال ثورندايك: «لا أعتقد أننا قد نجد الكثير من الديدان البحرية على مقدمة سفينة. إن وجود الأصداف وأنابيب الديدان معًا يشير إلى شيء ثابت في مكانه بين علامات المد والجزر، كفنارة مثلًا. ولكن من الصعب تخيُّل الكيفية التي قد تصطدم بها رأسُ شخص بفنار، وفي المقابل؛ لا يوجد أيُّ أجسام ثابتة أخرى في الرافد الذي كان الرجل يُبحر فيه سوى العوامات، والعوامات لها سطح مستوٍ يصعب أن يُسبِّب جرحًا كهذا. بالمناسبة، فلنُلقِ نظرةً على ما في جيوبه، على الرغم من أنه ليس من المرجح أن يكون للسرقة أيُّ صلة بموته.»

وافقتُه الرأي قائلًا: «صحيح، وأرى ساعته لم تزل في جيبه، وهي ساعة فضية من نوع جيد.» ثم أخرجتُ الساعة وتفقدتُها وأضفتُ قائلًا: «لقد توقَّفت عند الساعة الثانية عشرة وثلاث عشرة دقيقة.»

قال ثورندايك وهو يدوِّن ملاحظة بذلك: «قد يكون هذا مهمًّا، لكن من الأفضل أن نفحص الجيوب واحدًا تلو الآخر، ثم نُعيد الأغراض إلى أماكنها بعد تفقُّدِها.»

كان أول جيب فتشناه الجيب السفلي الأيسر للسترة. كان من الواضح أنه الجيب نفسه الذي سبق أن فتشه الربان؛ إذ وجدنا فيه خطابَين يحمل كلاهما ختمَ مؤسسة «ترينيتي هاوس»، فأعدناهما دون أن نقرأهما بالطبع، ثم انتقلنا إلى الجيب الأيمن. كانت محتويات هذا الجيب عادية تمامًا، واشتملت على غليون من خشب الشجيرات البرية، وجراب من جلد الخلد، وعدد من أعواد الثقاب المفردة.

قلتُ: «إنه سلوك عفوي نوعًا ما أن يحمل أعواد الثقاب مفردة في جيبه هكذا، وغليون كذلك.»

رد ثورندايك موافقًا: «نعم، خاصة هذه الأعواد الشديدة الاشتعال. لاحِظ أن هذه الأعواد يُغطَّى طرفها العلوي بالكبريت قبل أن توضع عليها رءوسها الحمراء، لذا تشتعل بأقل لمسة، ويصعب إطفاؤها، وهذا بلا شك سبَّب رواج هذا النوع من أعواد الثقاب بين البحارة، الذين يحتاجون لإشعال الغليون في مختلف حالات الطقس.» وبينما هو يتحدث

التقط الغليون وأخذ يتأمل فيه ويقلبه في يده وينظر إلى داخله. وفجأة نقل نظره من الغليون إلى وجه الرجل الميت، وسحب شفتيه بالملقط ليتفقد فمه من الداخل.

وقال: «لنرَ أيَّ نوع من التبغ يدخن.»

فتحتُ كيس التبغ المشبع بالماء فوجدتُ فيه كتلة من التبغ الناعم الداكن، فقلت: «يبدو أنه تبغ اللف.»

وافقني ثورندايك: «بالفعل، والآن لنرَ ما في الغليون. لقد دُخِّن نصف محتواه فقط.» أَدخلَ سكين جيبه في الغليون وأخرج به بواقي التبغ المحترق ووضعها على ورقة، ففحصناها معًا. كان من الواضح أن البواقي ليست من نوع تبغ اللف؛ إذ اشتملت على قِطَع خشنة، وكانت شبهَ سوداء.

قلتُ لثورندايك: «إنها قِطَع من تبغ صلب.» فوافقني ثورندايك وأعاد بواقي التبغ إلى الغليون.

لم يكن في الجيوب الأخرى ما يفيد، عدا سكين جيب، فتحه ثورندايك وفحصه بعناية. ولم نجد الكثير من النقود، وإن كانت في حدود ما كان متوقعًا، وكان كافيًا لاستبعاد فرضية السطو.

سأل ثورندايك وهو يُشير إلى حزام جلدي رفيع: «هل توجد سكين ذات غمد على هذا الحزام؟» فأزحتُ السترة، وتفقدتُ الحزام.

وأجبتُه: «ثمة غمدٌ، لكن بدون سكين. لا بد أن السكين انسلت وسقطت.»

قال ثورندايك: «هذا غريب. فالسكين ذات الغمد التي تحملها البحارة لا تنسل من غمدها بسهولة. فهذه السكين صُمِّمت لاستخدامها في التعامل مع حبال الأشرعة عندما يكون البحار في موضع عالٍ بين الأشرعة والصواري، بحيث يتمكن من سحبها من غمدها بيدٍ وهو متشبث بالصاري أو الشراع بالأخرى. يجب أن يكون ثابتًا ومحكمًا تمامًا في مكانه، وعادة ما يكون كذلك؛ إذ يحمل الغمد النصل ونصف المقبض. اللافت في هذه الحالة أن الرجل كان يحمل سكين جيب كما رأينا، ولما كان هذا السكين يصلح لكل الأغراض العادية، فيبدو أن هذا يعني أنه كان يحمل السكين ذات الغمد للدفاع عن النفس، أي كسلاح في واقع الأمر. ومع ذلك، لا يمكننا المضيُّ قُدُمًا في التحقيق بدون تشريح الجثة لتحديد سبب الوفاة، ها هو الكابتن قادم.»

دلف الكابتن جرامباس إلى السقيفة وألقى على جثة البحَّار نظرةَ رثاء.

تساءل: «هل ثمة أيُّ شيء يُلقي أيَّ ضوء على سبب اختفاء الرجل، يا دكتور؟»

أجاب ثورندايك: «ثمة أمر أو اثنان غريبان في القضية، ولكن أغرب ما في الأمر أن النقطة الوحيدة المهمة حقًّا تتعلق بما ورد في بيان خفر السواحل الذي كنتَ مستاءً منه.»

قال الكابتن متعجبًا: «حقًّا؟!»

رد ثورندايك: «نعم، يقول بيان خفر السواحل إنه في آخر مرة شوهد فيها المُتوفى كان يملأ غليونه من كيس التبغ خاصته. وكيسه يحتوي على تبغ لف ناعم، في حين يحتوي الغليون الموجود في جيبه على نوع آخر مقطوع من كتلة من التبغ الصلب.»

سأل الكابتن: «ألا يوجد في أيٍّ من جيوبه تبغٌ من النوع الصلب؟»

رد ثورندايك: «ولا قطعة صغيرة حتى. من الوارد بالطبع أنه كان يحمل قطعة ووضعها كلَّها في الغليون، ولكننا لم نجد أيَّ أثر لهذا التبغ على سكين جيبه، وأنت تعرف كيف يلطخ هذا النوع الداكن اللزج نصلَ سكين. كما أن سكينه ذات الغمد مفقودة، ولكن ليس من المرجح أن يكون قد استخدمها في قَطْعِ التبغ وهو يحمل سكين جيب.»

وافقه الكابتن: «صحيح، ولكن هل أنت متأكد من أنه لا يحمل غليونًا آخر؟»

رد ثورندايك: «كان هناك غليون واحد، ولم يكن غليونه.»

وقف الكابتن بجانب عوامة ضخمة ذات نقوش مربعة ليتمكن من التحديق في زميلي، وصاح متعجبًا: «ليس غليونه! وكيف عرفت أنه ليس غليونه؟»

قال ثورندايك: «من شكل المبسم المطاطي المقسى. بدَتْ عليها آثارٌ عميقة لأسنان أطبقت عليها بعنف حتى كادت تنتزعها تمامًا. والرجل الذي يُطبق على غليونه إلى هذا الحد عادة ما يتميز بسمات جسمانية معينة، أهمها أن تكون له أسنان قوية، وفمُ المتوفى خالٍ تمامًا من الأسنان.»

فكَّر الكابتن لوهلة، ثم قال: «لا أرى أيَّ مغزًى لذلك تمامًا.»

قال ثورندايك: «حقًّا؟ بل يبدو لي أن وراءه مغزًى كبيرًا. هذا رجل كان يملأ غليونه بنوع محدد من التبغ في آخر مرة شوهد فيها. انتُشل ميتًا، ووُجد غليونه يحوي نوعًا مختلفًا تمامًا من التبغ. فمن أين جاء هذا التبغ الغريب؟ المدلول الواضح هو أن الرجل الْتقَى بشخص ما.»

وافقه الكابتن: «نعم، يبدو الأمر كذلك.»

تابع ثورندايك: «أضفْ إلى ذلك أن سكينه ذات الغمد مفقودة. قد لا يعني ذلك شيئًا، لكن علينا أخْذه في الحسبان. كما أن هناك أمرًا غريبًا آخر: ثمة جرح في مؤخرة رأسه أحدثه اصطدامٌ عنيف بجسم كان مغطًّى بصدف البرنقيل البلوطي وديدان بحرية. ولكن ما من أرصفة أو منصات في المياه المفتوحة للرافد. السؤال هو: بِمَ قد يكون اصطدم؟»

قال الكابتن: «لا يعني ذلك شيئًا. فحين يظلُّ المدُّ يقذف جثة في الأرجاء لما يقرب من ثلاثة أيام ...»

قاطعه ثورندايك: «لا نتحدث هنا عن الجثة. فالجرح حدث والرجل لم يزل حيًّا.»

تعجَّب الكابتن وقال: «يا إلهي! الافتراض الوحيد الذي يمكنني تصوره هو أن الرجل اصطدم حتمًا بأحد الفنارات في الضباب، فاخترقت قاربه وصدمت رأسه، ولكني يجب أن أعترف بأنه تفسير ضعيف.» ووقف لدقيقة يُحدق في أصابع قدميه ويفكر في عبوس، ثم رفع رأسه ونظر إلى ثورندايك.

قال: «خطرتْ لي فكرة. استنادًا لما تقول، يتطلب هذا الأمر تحرِّيًا دقيقًا. سأستقل سفينة الخدمات اليوم للتحقيق في الأمر في موقع الحدث. لمَ لا تأتي معي كمستشار؟ نظيرَ مقابلٍ بالطبع، أنت والدكتور جيرفيز. سأنطلق في حدود الحادية عشرة؛ سنصل إلى المنارة في غضون الثالثة، ويمكنك العودة إلى البلدة الليلة إذا أردت. ما رأيك؟»

سارعتُ بالرد متحمسًا: «لا أرى سببًا يمنعنا.» فقد كان النهر يبدو ساحرًا ومغريًا للغاية في هذا الصباح الصيفي، حتى في مرسى باجزباي هول.

قال ثورندايك: «جيد جدًّا، إذن سنأتي معك. يبدو أن جيرفيز يتوق للذهاب في رحلة بحرية، وأنا كذلك في واقع الأمر.»

قال الكابتن بلهجة اشتراطية: «ولكنها مهمة عمل.»

رد ثورندايك: «ليست كذلك تمامًا. إنها متعة كاملة، متعة الرحلة، ومتعة صحبتك الراقية.»

قال الكابتن ممتعضًا: «لم أعنِ ذلك، لكن إذا كنتم ستأتون كضيوف، فأرسلْ صاحبك يأتِكَ بملابس للنوم وابقَ معنا حتى نعيدَك مساء الغد.»

قال زميلي: «لن نُزعج بولتون، يمكننا أن نستقلَّ القطار من بلاكوول لنجلب أمتعتنا بنفسنا. قلت سننطلق في الحادية عشرة؟»

قال الكابتن جرامباس: «تقريبًا، لكن لا تُرهقَا نفسَيكما.»

وصل مستوى وسائل المواصلات في لندن إلى درجة غير مرغوب فيها من الكمال. فبواسطة القطار و«الجندول» الطنان ذي العجلتين، تمكَّنَّا من الانتقال ذهابًا وإيابًا بين طرفَي البلدة بسرعة؛ حتى إن الساعة كانت قد قاربت الحادية عشرة عندما عدنا إلى رصيف ترينيتي نحمل حقيبة مفصلية من نوع جلادستون بالإضافة إلى حقيبة ثورندايك الخضراء الصغيرة.

كانت سفينة الخدمات قد خرجت من عند باو كريك، وتوقفت الآن أمام الرصيف وتدلَّت من رافعتها عوامةٌ ضخمة مخروطية مخططة، بينما وقف الكابتن جرامباس على الممر المدرج الممتد بين السفينة والرصيف يشعُّ وجهه الأحمر المبهج بالسرور. أُنزلت العوامة بأمان، وسُحبت الرافعة إلى مكانها عند الصاري، ولُملمت حبال التعليق السائبة، ثم أَطلقت السفينةُ أربعَ صافرات تبعث على الابتهاج، واستدارت ودفعت مقدمتها في اتجاه المد القادم.

ظل مجرى نهر لندن لأكثر من أربع ساعات يتسع وينفرج كلما تقدمنا كاشفًا عن مشهده البانورامي المتحرك. ابتعدنا عن حيٍّ وولويتش ريتش بدخانه وروائحه، وغمرنا بدلًا منه الهواء العليل الذي رطبته غلالةٌ خفيفة من ضباب الصيف. ابتلع الأفق المصانع الرمادية المتكتلة وحلَّت محلَّها مراعٍ خضراء امتدت حتى المرتفعات المحيطة بوادي النهر، حيث تناثرت الماشية. ووقفت سفن التدريب المهيبة تستعرض أجسامها ذات النقوش المربعة على الساحل المشجر، وتتهامس بأيام أشجار البلوط والقنب، حين لم تكن السفن الحربية الخشبية العملاقة بما لها من مهابة وجمال، وأشرعة شاهقة كالأبراج العاجية، قد تخلَّت عن مكانتها لتحلَّ محلَّها سفنُ اليوم المصطبغة بلون الطين، التي تُشبه أواني الطهي، والتي تُبحر رافعةً علم البحرية الأبيض وتبتلع أموال دافعي الضرائب ابتلاعًا؛ حين كان البحار بحارًا بحقٍّ وليس مجرد ماكينة تعمل بالبحر. انطلقت سفينة الخدمات شامخةً في مواجهة المد العالي، لتشقَّ طريقها ين الفُلك الممتدة بلا نهاية على مد البصر: صنادل نهرية، وعمال لخدمات، وسفن شراعية وقوارب صيد متعددة الأشرعة، وبحارة سود البشرة كسالى، وسفنٌ صينية جوالة لنقل البضائع تعلوها مداخنُ زرقاء، ومراكب متداعية من البلطيق ذات طواحين هوائية دوَّارة، وسفن ركاب عملاقة تنوء بما عليها من أثقال. مررنا ببلدات إيريث وبورفليت وجرينهايت وجرايز، وكأنها كانت تُحيِّينا. مررنا كذلك بمداخن نورثفليت، وأسطح الأبنية في جريفسيند، والمرسى المكتظ بالسفن والمدافع المتربصة بالعدو. وحين غادرنا لاور هوب، امتدت صفحةُ الماء متسعةً أمامنا كثوبٍ ضخم من الساتان الأزرق.

في حوالي الثانية عشرة والنصف أدركْنا الجزرُ وسهَّل إبحارنا؛ إذ لاحظنا سرعة مرور البر البعيد في مرمى بصرنا، وأحسسنا بالهواء النقي يلفح وجوهنا.

لكن البحر هدأ من تحتنا، وسكنت السماء من فوقنا في حلقة من حلقات الهدوء الصيفي. ووسط زرقة السماء الناعمة انتشرت كراتٌ من سحُبٍ بيضاء ساكنة، وانجرفت

الصنادل النهرية بفعل المد بأشرعة مرتخية متهدلة، وفي دفء الشمس القابعة فوق انعكاسها الساكن، استكانت عوامةٌ مخططة كبيرة ذات جرس حالمة — يعلوها قفصٌ وقائم وتحمل اسم «شيفرنج ساند» — لتستفيقَ من سُباتِها للحظة على اندفاع الماء من جانبنا، فاهتزَّ قفصُها متراخيًا، وأطلقت رنينًا مهيبًا، ثم عادت إلى سُباتِها.

بعدما مررنا بالعوامة بوقت قصير، لاحَ في الأفق هيكلٌ أعجف لمنارة ذات قائم لولبي، تحوَّل لونُها الأحمر الكئيب في شمس العصر إلى قرمزي. ولما اقتربنا أكثر، لاح الاسم «جيردلر» مكتوبًا بحروف كبيرة بيضاء، وظهر رجلان في المنصة المحيطة بمصباح المنارة، يتفحَّصانِنَا من خلال التليسكوب.

سأل قائد سفينة الخدمات الكابتن جرامباس: «هل سنُطيل البقاء في المنارة، يا سيدي؟ لأننا سنتوجه نحو رصيف بان ساند الرملي في الشمال الشرقي لتثبيت هذه العوامة الجديدة ورفع القديمة.»

ردَّ الكابتن جرامباس: «إذن فالأفضل أن توصِّلونا إلى المنارة ثم تعودوا إلينا عندما تنتهون من مهمتكم. فلا أعرف كم من الوقت سنمكث هناك.»

توقفت سفينة الخدمات، وأُنزِل منها قارب، وامتدت بعضُ الأيدي تساعدنا في عبور المسافة الفاصلة بينهما بأمان.

قال الكابتن: «ستتسخ ملابس البحر التي ترتدونها هذه وأنتم تصعدون على المنارة» — وكان هو أيضًا في غاية الأناقة — «ولكن سيسهل تنظيفُها مما سيعلق بها.» رفعنا رءوسنا نتأمل الهيكل الماثل أمامنا. كشف المد المنحسر عن نحو خمس عشرة قدمًا من قوائم المنارة، وكانت القوائم — والسُّلَّم على حدٍّ سواء — مغطاةً بالأعشاب البحرية وأصداف البرنقيل والديدان الأنبوبية. لكننا لم نكن من سكان المدينة المتأنقين الذين تعفُّ نفوسُهم عن تحمُّل هذه الظروف مثلما كان الكابتن يعتقد على ما يبدو؛ إذ تبعناه على السُّلَّم الزلق بسهولة، فيما كان ثورندايك متشبِّثًا بقوة بحقيبته الخضراء الصغيرة التي رفض أن تفارقه ولو للحظة.

قال الكابتن ونحن نضع أقدامنا على قمة السلم: «جئتُ أنا وهذان السيدان لإجراء بعض التحريات عن ذلك الرجل المفقود، جيمس براون. أيٌّ منكما جيفريز؟»

أجابنا رجلٌ طويلُ القامة قويُّ البنية ذو وجه مربع وحاجبين كثَّين بارزَين، ويدُه اليسرى ملفوفة في ضمادة خشنة قائلًا: «أنا يا سيدي.»

سأل الكابتن: «ماذا حدث ليدك؟»

رد الرجل: «جرحتُها وأنا أقشر بعض البطاطا. ليس جرحًا شديدًا يا سيدي.»

قال الكابتن: «حسنًا، لقد انتُشلت جثة براون وأريد أن نعرف بعض التفاصيل في إطار التحقيق. ستُستدعى باعتبارك شاهدًا على ما أظن؛ ادخل وأخبرنا بكل ما تعرف.»

دلفنا إلى غرفة المعيشة وجلسنا إلى الطاولة. فتح الكابتن دفتر جيب كبيرًا، فيما أجال ثورندايك نظره في الغرفة الغريبة الشبيهة بالكابينة بطريقته الفاحصة وكأنه يُجري جردًا ذهنيًّا لمحتوياتها.

لم تُضف أقوال جيفريز شيئًا إلى ما كنا نعرفه بالفعل. فقد قال إنه رأى قاربًا على متنه رجل واحد قادم نحو المنارة. ثم عمَّ الضباب وحجب القارب عن الأنظار. شغَّل إشارة الضباب وظل يراقب الأجواء جيدًا، ولكن القارب لم يَصِل قط. وكان هذا كل ما يعرفه. لقد افترَض أن المنارة فاتت الرجل على الأرجح ثم سحبه الجزر الذي كان شديدًا في ذلك الوقت.

سأل ثورندايك: «كم كانت الساعة عندما رأيتَ القارب لآخر مرة؟»

رد جيفريز: «الحادية عشرة والنصف تقريبًا.»

سأل الكابتن: «وكيف كان شكل الرجل؟»

رد جيفريز: «لا أعلم يا سيدي. كان يجدف. وكان ظهره موجهًا نحوي.»

سأل ثورندايك: «هل كان معه صندوقٌ أو حقيبة أدوات؟»

قال جيفريز: «كان معه صندوق.»

سأله ثورندايك: «ماذا كان شكل الصندوق؟»

رد جيفريز: «صندوق صغير، مطلي باللون الأخضر، وله حبل مزوَّد بعروة تثبيت.»

سأل ثورندايك: «وهل كان به أسلاك؟»

رد جيفريز: «كان به سلك واحد يُحيط به لتثبيت غطائه.»

سأله ثورندايك: «وفي أي جزء من القارب كان الصندوق؟»

رد جيفريز: «عند الشراع الخلفي يا سيدي.»

سأل ثورندايك: «كم كانت المسافة بين القارب وبين المنارة حين رأيتَه لآخر مرة؟»

رد جيفريز: «نصف ميل تقريبًا.»

صاح الكابتن متعجبًا: «نصف ميل! كيف أمكنك أن ترى هذا الصندوق على بُعد نصف ميل؟»

احمرَّ وجه الرجل ورمق ثورندايك بنظرة ارتياب امتزج بالغضب وردَّ في عبوس: «كنت أراقب القارب بالتليسكوب يا سيدي.»

قال الكابتن جرامباس: «مفهوم. حسنًا، هذا يكفي يا جيفريز. سنضطر إلى الترتيب لحضورك التحقيق. أخبر سميث أني أريد لقاءه.»

انتهى التحقيق، وقرَّبتُ أنا وثورندايك كرسيَّينا من النافذة التي كانت تطلُّ على الجهة الشرقية من البحر. لكن زميلي لم يكن منشغلًا بالبحر أو السفن العابرة. فقد كان معلقًا على الحائط، بجوار النافذة، رف غليون بدائي الصنع عليه خمسة غلايين. كان ثورندايك قد لاحظه منذ دخولنا الغرفة، والآن بينما كنا نتحدث لاحظتُه يتأمله من وقت لآخر باهتمام مصاحَب بالفضول.

قال ثورندايك للحارس سميث بعد أن انتهى الكابتن من ترتيبات نقل الكرسيين: «يبدو أنكما مدخنان عتيدان.»

رد سميث: «بالفعل نحب تدخين التبغ يا سيدي بالفعل، هذه حقيقة، الحياة هنا رتيبة والتبغ رخيص.»

سأل ثورندايك: «كيف ذلك؟»

رد سميث: «هذا التبغ يُهدى لنا. السفن الأجنبية الصغيرة، لا سيما الهولندية، عادةً ما يقذف لنا طاقمها بكتلة منه أو كتلتين. لسنا على البر يا سيدي، لذا ليس علينا أن ندفع رسومًا.»

سأله ثورندايك: «إذن فأنتم لا تُزعجون مَن يهدونكم التبغ كثيرًا؟ ألا تحبون التبغ المقطَّع؟»

رد سميث: «كلَّا يا سيدي؛ سنضطر لشرائه، وسينفد سريعًا. نحن هنا نأكل البسكويت المملح وندخن التبغ الصلب.»

قال ثورندايك: «أرى لديكم رفًّا للغليون أيضًا، جميل.»

قال سميث: «نعم، صنعتُه في وقت فراغي. يجعل المكان منظمًا وأكثر ترتيبًا، بدلًا من أن نترك الغلايين مبعثرة في كل مكان.»

قال ثورندايك: «يبدو أن شخصًا ما ترك غليونه مهملًا.» وأشار إلى غليون على طرف الرف يغطيه العفن.

«نعم، هذا غليون زميلي بارسونز. لا بد أنه تركه هنا عندما غادر منذ شهر. إن العفن يتكون على الغليون بفعل الهواء الرطب هنا.»

سأل ثورندايك: «كم من الوقت يستغرق تكوُّن العفن على الغليون إذا تُرك مكانه بدون أن تمتدَّ إليه يد؟»

قال سميث: «هذا يعتمد على حالة الطقس. فحين يكون الطقس دافئًا ورطبًا، يبدأ الغليون في التعفن خلال أسبوع تقريبًا. ها هو الغليون الذي تركه بارنيت — الذي انكسرت ساقه — وقد بدأ يتعفن قليلًا. من المؤكد أنه لم يستخدمه ليوم أو يومين قبل رحيله.»

سأل ثورندايك: «وهل كلُّ هذه الغلايين الأخرى لك؟»

رد سميث: «كلَّا، يا سيدي. هذا الغليون لي، والأخير غليون جيفريز، وأعتقد أن الغليون الموجود في المنتصف له أيضًا. لكني لا أعرفه.»

قال الكابتن وهو يذرع المكان: «أنت تُولي الغلايين اهتمامًا كبيرًا يا دكتور، كما لو كنتَ تُجري دراسة خاصة عنها.»

رد ثورندايك عندما انصرف الحارس: «أفضل ما يمكن للإنسان دراسته هو الإنسان نفسه، ودراسة الإنسان تشمل الأشياء التي تظهر فيها شخصيته. الغليون مثلًا شيء شخصي. انظر إلى صفِّ الغلايين على الرف. كلُّ واحد منها يحمل ملامحه الخاصة التي تعكس تفاصيل شخصية صاحبه نوعًا ما. هاك غليون جيفريز على الطرف على سبيل المثال. ستجد المبسم معضوضًا حتى كاد يفنى، ووعاءَ التبغ مكشوطًا ومحززًا من الداخل والحافة مهترئة. كلُّ شيء يدل على غلظة في الاستعمال. إنه يعضُّ بقوة على المبسم أثناء التدخين، ويكشط وعاء التبغ بعنف، ويضرب الغليون بالحائط بعنف مبالغ فيه عند إفراغ الرماد. وصفات الرجل متماشية مع صفات غليونه بالضبط: قويٌّ، ومربع الفك، وأستطيع القول إنه عنيف في بعض الأحيان.»

وافقه الكابتن: «نعم، يبدو شخصًا عنيفًا جيفريز هذا.»

تابع ثورندايك حديثه: «لدينا بعد ذلك غليون سميث، بجانب غليونه، تجويفُه شبهُ ممتلئ بالتبغ، ومعظم أجزاء حافته محترقة، وهو ما يشي بإفراط صاحبه في الحديث؛ ما يجعله ينطفئ ويُعاد إشعاله باستمرار. ولكن أكثر ما يُثير اهتمامي من بين هذه الغلايين هو الأوسط.»

سألتُه: «ألم يَقُل سميث إن الغليون الأوسط هذا هو غليون جيفريز أيضًا؟»

رد ثورندايك: «نعم، لكن لا بد أنه مخطئ في ذلك. فهذا الغليون يختلف عن غليون جيفريز تمامًا في كل شيء. بداية، على الرغم من أنه غليون قديم، لا توجد على المبسم أيُّ علامات لأسنان. إنه الغليون الوحيد على الرف الذي يخلو من أي علامات، وحافته غير متضررة، أي أن صاحبه يستخدمه برفق، والحلقة الفضية حالكة السواد سوداء تمامًا، في حين أن الحلقة المعدنية لغليون جيفريز فاتحة تمامًا.»

قال الكابتن: «لم ألاحظ أن به حلقةً معدنية. لمَ اسودَّتْ إلى هذا الحد؟»

أخذ ثورندايك الغليون من أعلى الرف وتفحصه بعناية وقال: «كبريتيد الفضة، لا شك أن الكبريت قد امتد إليه من شيء يحمله صاحبه في جيبه.»

قال الكابتن جرامباس وهو يكبح تثاؤبه ويُحدِّث من النافذة نحو سفينة الخدمات البعيدة: «مفهوم. إنه مليء بالتبغ، ماذا تستنتج من ذلك؟»

قلب ثورندايك الغليون ونظر إلى المبسم عن كثب وقال: «أستنتج أنه ينبغي أن يتأكد الشخص من أن غليونه ليس مسدودًا قبل ملئه.» وأشار إلى المبسم الذي كان تجويفه مسدودًا تمامًا بزغب ناعم عَلِق به.

وقف الكابتن وهو يتثاءب مجددًا، ثم قال: «استنتاج رائع أيضًا. أستميحكم عذرًا، سأذهب لأتفقد سفينة الخدمات وسأعود بعد دقيقة. يبدو أنها تعبر إلى إيست جيردلر.» وأخذ التليسكوب من حامله وخرج إلى المنصة.

عندما خرج الكابتن، فتح ثورندايك سكين جيبه، وأدخله في تجويف الغليون، وأخرج به بعض التبغ على يده.

صحتُ متعجبًا: «إنه تبغ اللف الناعم، يا إلهي!»

رد ثورندايك وهو يُعيد التبغ إلى تجويف الغليون: «أجل. ألم تتوقع أن يكون كذلك؟»

أجبتُه معترفًا: «لم أتوقع أيَّ شيء، كنتُ منشغلًا بالحلقة المعدنية.»

قال ثورندايك: «نعم، إنها نقطة مثيرة للاهتمام، لكن دعْنا نرَ ما الذي يسدُّ الغليون.» فتح الحقيبة الخضراء وأخرج إبرة تشريح، واستخرج كرة صغيرة من الزغب من تجويف الغليون بعناية، ووضعها على شريحة زجاجية، وفرق أجزاءها في قطرة من الجلسرين ثم وضع شريحة تغطية، في حين انهمكتُ أنا في إعداد الميكروسكوب.

قال ثورندايك: «يستحسن أن تُعيد الغليون إلى الرف.» ووضع الشريحة تحت المجهر. نفذتُ ما طلب، ثم عدتُ بحماس غير قليل إلى المجهر لأراقبه وهو يفحص العينة. وبعد فحص سريع وقف وأشار بيده نحو الميكروسكوب.

وقال: «ألقِ نظرة يا جيرفيز.»

وضعتُ عيني على الميكروسكوب، وعدلتُ موضع الشريحة، وتعرفت على مكونات كرة الزغب الصغيرة. فوجدتُ الكثير من ألياف القطن، والقليل من ألياف الصوف، ولكن كان أبرز محتوياتها شعرتين أو ثلاث شعيرات؛ كانت دقيقةً للغاية اتخذت شكلًا متعرجًا وكانت انسيابية ومستوية بالقرب من طرفها الحر مثل نصل ريشة.

قلتُ: «هذه شعيرات لحيوان صغير؛ ليس فأرًا أو جرذًا أو أيًّا من القوارض. أظنه حيوانًا صغيرًا يتغذى على الحشرات. نعم! بالطبع! إنها شعيرات حيوان الخُلد.» وقفتُ مع إدراكي لأهمية الاكتشاف، ونظرتُ إلى زميلي في صمت.

قال ثورندايك: «نعم، لا تُخطئها العين، وهي أساس الفرضية.»

سألتُه: «هل تعتقد فعلًا أن هذا غليون الرجل الميت إذن؟»

رد ثورندايك: «وفقًا لقانون الأدلة المتعددة، هذا مؤكد. فكِّر في الحقائق بالترتيب. بما أن الغليون خالٍ من أي أثر لعفن، فهذا يعني أن الغليون ربما كان هنا منذ فترة قصيرة، وهو ما يعني بالضرورة أنه غليون بارنيت أو سميث أو جيفريز أو براون. وهو غليون قديم، لكنه خالٍ من أي آثار للأسنان، وهو ما يعني أن من استخدمه رجل ليس لديه أسنان. لكن بارنيت وسميث وجيفريز جميعًا لديهم أسنان وتترك علامات على الغليون، في حين أن براون ليست له أسنان. والتبغ الموجود في الغليون من تبغ اللف. لكنَّ أيًّا من الرجال الثلاثة الآخرين لا يدخن هذا النوع، في حين أن براون كان يحمل هذا النوع في كيسه. والحلقة الفضية مغطاة بالكبريتيد، وبراون كان يحمل في جيبه بجانب غليونه أعوادَ ثقاب مفردة ذات رءوس من الكبريت. كما وجدنا شعيرات لحيوان الخُلد في تجويف الغليون، وبراون كان يحمل كيسًا من جلد الخُلد في الجيب الذي يبدو أنه يحمل غليونه فيه. وأخيرًا، كان براون يحمل في جيبه غليونًا من الواضح أنه ليس صاحبَه، وكان يُشبه غليون جيفريز كثيرًا، كما كان فيه تبغ مثل الذي يدخنه جيفريز ومختلف عن ذاك الذي كان في كيس براون. يبدو الأمر قاطعًا تمامًا بالنسبة إليَّ، وخاصة إذا أضفنا إلى هذه الأدلة الحقائق التي في حوزتنا.»

سألتُه: «وما هذه الحقائق؟»

رد ثورندايك: «أولًا لدينا حقيقة أن المتوفى اصطدم رأسُه بقوة بجسم يغمر في الماء من وقت لآخر، ومغطًّى بأصداف البرنقيل البلوطي والديدان البحرية. وقوائم هذه المنارة ينطبق عليها ذلك الوصف بالضبط دون أيِّ جسم آخر في الجوار؛ فحتى الفنارات أكبر من أن تتسبَّب في جرح كهذا. والسكين ذات الغمد التي كان يحملها المتوفى مفقودة، ويد جيفريز بها جرح أحدثه سكين. لا بد أن تقرَّ بأن الأدلة الظرفية دامغة.»

في هذه اللحظة دلف الكابتن على عجل إلى الحجرة حاملًا التليسكوب في يده، وقال: «سفينة الخدمات في طريقها إلينا، تقطُر وراءها قاربًا غريبًا. أتوقع أن يكون القارب المفقود، فلو كان هو، فقد يفيدُنا بشيء. يستحسن أن تُجهِّزَا أغراضكما وتستعدَّا للصعود على متنه.»

أعدْنا الأدوات إلى الحقيبة الخضراء وأغلقناها ثم خرجنا إلى المنصة، حيث وجدنا الحارسَين يراقبان سفينة الخدمات القادمة، بدا على سميث اهتمامٌ وفضول صريحان، في حين كان جيفريز متململًا وكثير الحركة وبدا شحوبه جليًّا. وعندما توقفت السفينة أمام المنارة، نزل ثلاثة رجال من السفينة إلى القارب وسحبوه، ثم صعد أحدهم — وهو مساعد ربان سفينة الخدمات — سُلَّمَ المنارة.

سأل الكابتن: «أهذا هو القارب المفقود؟»

رد الربان وهو يصعد على سطح المنارة ويمسح يديه على الجانب الخلفي من بنطاله: «نعم، يا سيدي. وجدناه على بر إيست جيرلدر. لقد كانت ثمة شبهة في هذا الأمر يا سيدي.»

رد الكابتن: «أتظنه عملًا إجراميًّا؟»

«بلا شك سيدي. لقد نُزعت السدادة وتُركتْ قابعةً في القاع بلا تثبيت، ووجدنا سكين غمد مغروزة في الرافدة الطولية الأمامية بين ملفات الحبال. كانت مغروزة بقوة كما لو كانت قد أُسقطت من علٍ.»

رد الكابتن: «هذا غريب. أما بالنسبة إلى السدادة، فربما نُزعت مصادفة.»

قال مساعد الربان: «ولكنها لم تُنزَع مصادفة يا سيدي. لقد نُقلت أجولة الحصى التي تُثبِّت القارب من مكانها لخلع ألواح القاع الخشبية ونزع السدادة. علاوة على ذلك، لم يكن لبحار أن يترك قاربه يمتلئ بالماء، بل كان سيُعيد السدادة ويقفز من القارب.»

رد الكابتن جرامباس: «صحيح، كما أن وجود السكين مثيرٌ للريبة بكل تأكيد. ولكن من أين يمكن أن يسقط في عرض البحر؟ فالسماء لا تمطر سكاكين، لحسن الحظ. ما رأيك يا دكتور؟»

رد ثورندايك: «رأيي أنها سكين براون نفسها، وأنها سقطت من أعلى هذا السطح على الأرجح.»

التفت جيفريز بسرعة، وقد احمر وجهه من الغضب، وسأل: «ماذا تعني؟ ألم أَقُل إن القارب لم يَصِل إلى هنا قط؟»

رد ثورندايك: «بلى، ولكن إن صح ذلك، فكيف تُفسِّر العثور على غليونك في جيب المتوفى ووجود غليونه الآن على رف الغليون الخاص بك؟»

اختفت حمرة الغضب من فوق وجه جيفريز بنفس السرعة التي ظهرت بها وقال متلعثمًا: «لا أعلم عمَّا تتحدث.»

قال ثورندايك: «سأُخبرك. سأروي ما حدث، وصحِّحْ لي أقوالي إن أخطأتُ. وصل براون بقاربه إلى هنا وصعد إلى غرفة المعيشة ومعه صندوقه. ملأ غليونَه وحاول إشعاله، لكنه كان مسدودًا ولم يتمكن براون من سحب الدخان منه. فأعرتَه أنت غليونًا من عندك وملأتَه له. وبعد ذلك بقليل خرجتما إلى هذا السطح وتعاركتما. استخدم براون سكينَه للدفاع عن نفسه، فسقطت السكين من يده إلى القارب. ثم دفعتَه أنت من أعلى المنارة وسقط، واصطدم رأسُه بأحد قوائم المنارة في طريق سقوطه. بعدها نزعتَ سدادة القارب ودفعتَه ليغرق، وبعد ذلك ألقيتَ بالصندوق في البحر. حدث ذلك في الساعة الثانية عشرة وعشر دقائق تقريبًا. صحيح؟»

وقف جيفريز يُحدق في ثورندايك وقد ارتسم على وجهه الذهول والرعب، ولكنه لم يَنبِس بكلمة.

كرر ثورندايك: «صحيح؟»

غمغم جيفريز: «يا لَلعجب! هل كنتَ هنا إذن؟ تتكلم كما لو كنتَ موجودًا هنا حينئذٍ.» وتابع وقد تمالك نفسه بعض الشيء: «على أيِّ حال، يبدو أنك تعرف كلَّ شيء. ولكنك أخطأتَ في أمر واحد. لم يحدث عراك. هذا الرجل براون لم تَرُقْه صحبتي ولم يُرِدِ المكوثَ هنا. كان سينصرف ويعود إلى البر ولكني لم أكن لأدعَه يرحل. فاستلَّ سكينه وهاجمني بها وتمكنتُ من إسقاطه من يده، فترنَّح متراجعًا إلى الخلف حتى سقط من أعلى المنارة.»

سأل الكابتن: «وهل حاولتَ إنقاذه؟»

سأل جيفريز: «وكيف عساي أن أنقذه والمدُّ متسارع وكنت وحدي في المنارة؟ لم أكن سأعود لو حاولت.»

سأل الكابتن: «ولكن ماذا عن القارب يا جيفريز؟ لماذا أغرقته؟»

رد جيفريز: «حقيقة الأمر أنني ارتبكتُ، وظننت أن أبسط خطة هي أن أُغرق القارب وأُنكر معرفتي بأي شيء عنه. ولكني لم أدفع براون. لقد كان حادثًا يا سيدي. أُقسم لك!»

قال الكابتن: «يبدو تفسيرًا منطقيًّا تمامًا. ما قولك يا دكتور؟»

رد ثورندايك: «منطقيٌّ تمامًا، أما عن صحته أو عدمها، فهذا ليس شأنَنا.»

قال الكابتن: «كلَّا. ولكني سأضطر للقبض عليك يا جيفريز وتسليمك للشرطة. هل تفهم ذلك؟»

أجاب جيفريز: «نعم يا سيدي، مفهوم.»

قال الكابتن جرامباس وهو يقضي أمسية معنا بعد ذلك بنحو ستة أشهر: «كانت هذه قضية غريبة، قضية منارة جيردلر، وكانت عقوبةُ جيفريز مخففة. ثمانية عشر شهرًا، أليس كذلك؟»

رد ثورندايك: «بلى، لقد كانت قضيةً في غاية الغرابة بالفعل. لكن كان هناك أمرٌ ما وراء هذا الحادث المزعوم. أغلب الظن أن هذين الرجلين التقيا من قبل الحادث.»

وافقه الكابتن: «هذا ما رجحتُه أيضًا، ولكن أغرب ما في الأمر حينئذٍ الطريقة التي اكتشفتَ بها كلَّ شيء. لقد صرتُ أُكنُّ أشد الاحترام للغلايين المصنوعة من أخشاب أشجار الورد الجبلي منذ ذلك الحين. كانت قضيةً استثنائية. لقد بدتْ لي طريقتُكَ في جعْل الغليون يروي تفاصيل الجريمة كلَّها ضربًا من السحر.»

قلتُ: «نعم، لقد نطق الغليون مثل المزمار المسحور في الحكاية الألمانية الشعبية «العظمة المُغنِّية»، الفرق أن ذاك غليونُ تدخين. هل تتذكرونها؟ إنها تحكي عن فلاح عثر على عظمة رجل مقتول فأخذها وحوَّلها إلى مزمار. ولكن عندما حاول أن يعزف عليه، انطلق المزمار من تلقاء نفسه يُغنِّي:

قتلني أخي ودفن عظامي تحت الرمال والحجر المترامي.»

قال ثورندايك: «قصة جميلة، وبها عبرة مهمة. لكل الجمادات من حولنا أغنية تغنيها لنا إذا كنا مستعدين للإصغاء لها.»

قصة متشرد

الجزء الأول

ضيف العزباوات

كان الشفق الصيفي المتباطئ يُذعن لسطوة الليل سريعًا عندما كان راكبُ دراجة وحيدٌ يقودها على مهل في طريق ريفي مبهج، في حين أخفى البذلة المسائية التي يرتديها بمعطف طويل يكاد لا يُخفي شيئًا منها. ومن حين إلى حين كان يسبقه ما يسلك الطريق من عربات أو سيارات خاصة أو سيارات أجرة مغلقة آتية من البلدة المجاورة، ومن الملابس المبهرجة التي ارتداها شاغلو تلك المركبات، خمَّن راكبُ الدراجة بذكاء وِجهتَهم جميعًا. أما وجهته هو فكانت منزلًا كبيرًا يقوم على أرض واسعة بعضَ الشيء على جانب الطريق، ودفعتْه الظروف الاستثنائية التي جعلته يقصد هذا المنزل إلى أن يُبطئَ أكثر وأكثر كلما اقترب من هدفه.

كان المنزل، الذي يحمل اسم ويلوديل، يشهد الليلة إحياءً مؤقتًا لأمجاده الماضية. فقد ظلَّ خاويًا لشهور عديدة، وثمة لافتة عُلِّقت على غرفة حارس بوابته كانت تُعلن في صمت عما يعمُّه من كآبة ووحشة؛ أما الليلة، فسوف تعود حجراته، بحوائطها الجرداء المغطاة بالأعلام والستائر، وأرضياتها المكسوة بالشمع أو السجاد، لتصدحَ بنغمات الموسيقى وأصوات البهجة مرة أخرى في جنباته، وستهتز من وقْع الأقدام العديدة التي ستَطؤها. فقد كانت عزباوات رينسفورد ستُقيم في هذه الليلة حفلًا راقصًا، وكانت الآنسة هاليويل — مالكة منزل ويلوديل — كبرى أولئك العزباوات.

كان الحفلُ كبيرًا. وكان المنزل فسيحًا وفخمًا، وكانت العزباوات كثيراتٍ وثريَّات. كما كان ضيوف الحفل كُثُرًا ومن ذوي الحيثية، وكانوا يضمون بينهم شخصياتٍ بارزةً، كان أهمهم السيدة جيهو بي تشاتر. كان حضورها بمثابة تتويج لنجاح الحدث؛ إذ كانت الأرملة الأمريكية الحسناء نجمة الموسم. فقد كانت ثروتُها تتجاوز حدود الوحدات

الحسابية البريطانية المألوفة على الأقل، إن لم تتجاوز حدود الجشع البشري. وكانت ألماساتُها مفخرةً لمضيفاتها ومصدرَ رعب لهن في آنٍ واحد.

برغم كلِّ هذه المغريات، اقترب راكب الدراجة من منزل ويلوديل ببطء يشي بتردُّدِه، حتى انعطف الطريق فأصبحت بوابات المنزل في مرمى بصره، فنزل عن الدراجة وتوقف وهو لم يحسم أمرَه بعد. فقد كان موشكًا على أمر خطير. ومع أنه لم يكن واهنَ العزم بأي حال، فلم يزل تردُّدُه يردعه عن المخاطرة والإقدام على ما انتواه.

لم يكن راكب الدراجة من المدعوين للحفل في واقع الأمر.

لِمَ قصده إذن؟ وكيف سيدخل؟ كان وراء هذين السؤالين تفسيرٌ مؤلم.

كان أوجستس بايلي يكسب عيشَه بالحيلة والذكاء، تلك هي العبارة الشائعة ويا لها من عبارة غبية! ألسنا جميعًا نكسب العيش بالحيلة والذكاء، إن كان لدينا أيٌّ منهما؟ وهل يتطلب الأمر درجةً خاصة من الحيلة ليكون محتالًا عاديًّا؟ على أي حال، كان أوجستس بايلي يتعيش بما أوتي من الحيلة، بصرف النظر عن درجتها، ولكنه لم يكن قد جنَى منها ثروة إلى ذلك الحين.

كانت بذرةُ مغامرته الجديدة محادثةً سمعها بالمصادفة على طاولة مطعم، وبطاقة دعوة تُركت مهملةً عليها، وغُطيت بقائمة الأطعمة ببراعة. قَبِل أوجستس الدعوةَ التي لم تُوجَّه إليه (إذ أرسل رسالة تفيد بقبوله الدعوةَ على ورقة تحمل اسم فندق سيسيل كانت بين قرطاسيته) تحت اسم جيفري هارينجتون بايلي؛ وكان السؤال الذي شغل فكره في تلك اللحظة، ما إذا كان أمره سيُكتشف أم لا. كان يعوِّل على كثرة الضيوف واحتمال قلة خبرة المضيفات. كان يعرف أن إبراز بطاقات الدعوة ليس ضروريًّا، ولكن ساوره قلقٌ من اللحظة العسيرة للإعلان عن نفسه.

ولكنه قد لا يصل إلى هذه اللحظة؛ إذا اكتُشف أن رسالة قبول الدعوة جاءت من غريب غير مدعو.

سار ببطء نحو البوابات بقلق متصاعد. وراودته بعضُ الذكريات زادته توترًا على توتره. كان يومًا ما ضابطًا في كتيبة عسكرية، ولكنْ لم يَدُم ذلك طويلًا في الواقع؛ فقد فاق «ذكاؤه» قدرةَ رفاقه الضباط على التحمل، ولكنه في وقت ما كان يحضر مثل هذه التجمعات بصفته ضيفًا مدعوًّا. أما الآن بعد أن أصبح لصًّا عاديًّا، بات يتسلل إلى الحفل باسم مزيف، مع احتمال لا يستهان به أن يُكتشف أمره ويُلقي به الخدم إلى الخارج مذلولًا مهينًا.

وبينما كان يقف مكانه مترددًا، سمع صوت سنابك خيل على الطريق يتبعها زئيرُ بوق سيارة. ظهر الوميض المتواضع لمصابيح العربة من منعطف الطريق ثم الضوء المبهر الذي أرسلتْه المصابيح الأمامية الكربيدية للعربة. خرج رجل من غرفة الحراسة وفتح البوابات، فاستجمع السيد بايلي شجاعته، وأخذ يدفع دراجته عبر المدخل بجسارة وجرأة.

لم يكد يقطع نصف المدخل الشديد الانحدار حتى مرت بجواره السيارة منطلقة؛ كانت سيارةً كبيرة من طراز نابيير تكدَّس بداخلها عددٌ من الشباب، جالسين خلف المقاعد أو أحدهم على رُكبتَي الآخر؛ كي تستوعبَهم السيارة. نظر بايلي إليهم، وقرر أن هذه هي فرصته، فظل يدفع دراجته ورأى سيارته وقد أودِعت في مرآب فارغ مخصص للعربات، ثم ذهب إلى غرفة الأمتعة. كان الشباب الذين وصلوا قبله يخلعون عنهم معاطفهم بابتهاج ويُلقون بها على إحدى الطاولات. فعل بايلي مثلما فعلوا، وفي غمرة لهفته لدخول قاعة الحفل مع الجمع، ترك ذهنَه يشرد عما حوله في تلك اللحظة، ووضع البطاقة في جيبه وأسرع إلى الداخل بدون أن يلاحظَ أن الخادم المرتبك وضع قبعته مع معطف رجل آخر وثبَّتهما معًا.

أُعلنت أسماء المدعوين تباعًا: «ميجور بودبيري، الكابتن باركر جونز، الكابتن سباركر، السيد واطسون، السيد جولدسميث، السيد سمارت، السيد هارينجتون بايلي!»

بينما كان أوجستس يسير عبر الغرفة مختالًا يعانق الضباط وهو يرتعد بداخله، لاحظ أن مضيفاتِه كنَّ ينقلن نظرهن بين الرجال باهتمام زائد.

ولكن في تلك اللحظة انطلق صوت الخادم مجلجلًا:

«السيدة تشاتر والكولونيل كرامبلر!» وفيما التفت الأعينُ كلُّها نحو الوافدَين الجديدَين، انحنى أوجستس في احترام ثم اندسَّ وسط الجمع المحتشد. لقد نجحت حيلتُه البسيطة في النهاية.

انسحب متمهلًا إلى ركن الغرفة الأكثر ازدحامًا، وهناك اتخذ موقعًا يحجبه عن نظر مضيفاته. خطر بباله أنهن سيَنْسَينَه سريعًا، هذا إن كنَّ قد فكَّرْن فيه أصلًا، وحينئذٍ سيرى ما يمكن فعله على صعيد عمله. لم يَزَل مرتعدًا بعض الشيء، وتساءل عن الوقت المناسب لتناول مشروب يساعده على تمالك أعصابه. وفي الوقت نفسه أبقى عينيه مفتوحتين تراقبان الوضع من فوق أكتاف الضيوف المجاورين له، إلى أن حدثت حركةٌ وسط جمعِ الضيوف فرأى السيدة تشاتر تصافح العزباء المترئسة للحفل. عندئذٍ تلقَّى أوجستس مفاجأة لم يحسب حسابًا لها.

عرَفها من النظرة الأولى، إذ كان بارعًا في تذكُّر الوجوه، خاصة إذا كان وجهًا لا يُنسى مثل وجه السيدة تشاتر. تذكَّر جيدًا هذه الفتاة الأمريكية الجميلة الصريحة التي راقصها في الحفل الراقص الذي نظمته الكتيبة منذ عدة سنوات. كان ذلك في الأيام الخوالي عندما كان ضابطًا صغيرًا، وقبل قضية أوراق اللعب المثقوبة التي أنهت حياتَه العسكرية. تذكَّر كيف كان الإعجاب متبادلًا بينه وبين تلك الفتاة الأمريكية ذات الوجه الصبوح، وتذكَّر رقصات كثيرة رقصاها معًا، ورقصات جلسَا يشاهدانها فيما تحدثَا عن خرافات تافهة جعلتْهما براءتُهما حينئذٍ يُعدَّانها نوعًا من الفلسفة. لم يرَها منذ ذلك الحين مطلقًا. دخلت حياتَه ثم خرجت منها ونسيَ اسمها، إن كان قد عرفه يومًا أصلًا. ولكن ها هي الآن وقد بلغت منتصف العمر ولم تَزَل جميلة وذات شخصية بارزة. يا لروعة الألماسات التي تجمَّلت بها! أما هو فقد أصبح لصًّا تافهًا، يتربص بين الحشد علَّه يتمكن من انتزاع قلادة أو دبوس زينة غير محكم في موضعه.

ربما تعرفت عليه، لِمَ لا؟ فقد تعرف هو عليها. ولكن هذا لن يُجديَ. ظل السيد بايلي يفكر في الأمر فيما انسل للتمشية في الحديقة وتدخين سيجارة. كان رجل آخر يكبره سنًّا، يذرع الحديقة جيئة وذهابًا متفكرًا، وينظر من وقت لآخر عبر النوافذ المفتوحة إلى الغرف ذات الإضاءة المبهرة. وبعد أن مرَّ أحدُهما بالآخر مرة أو مرتين، توقَّف الغريب وخاطبه.

قال الغريب: «هذا أفضل مكان في ليلة كهذه؛ فالجو يزداد حرارة في الداخل. لكن ربما كنتَ مولعًا بالرقص.»

رد بايلي: «ليس كقدر ولعي به في الماضي.» وهنا لاحظ بايلي النظرة الجائعة التي ألقاها الرجل على السيجارة التي في يده، فأخرج علبة السجائر وقدَّم له واحدة.

صاح الغريب وهو ينقضُّ بنهمٍ على العلبة المفتوحة: «أشكرك بشدة! يا إلهي! لقد أنقذتني. فقد تركتُ علبتي في المعطف. لم أكن لأتجرأ على طلب سيجارة، رغم أني كنت أتوق لواحدة.» وسحب نفَسًا عميقًا، ونفخ سحابة من الدخان، وتابع: «يبدو أن أولئك النسوة يُدرنَ الحفل على ما يرام، أليس كذلك؟ لم تشاهد المنزل بعد، صحيح؟»

رد بايلي: «لم أرَه تقريبًا؛ فقد وصلت لتوي.»

قال الغريب الودود: «سنأخذ جولة حوله، إذا أردتَ، بعد أن نفرغ من التدخين. ولنحتسِ مشروبًا كذلك؛ فقد ينعشنا بعضَ الشيء. أتعرف الكثير من الأشخاص هنا؟»

أجابه بايلي: «لا أعرف أحدًا. يبدو أن مضيفتي لم تأتِ بعد.»

قال الغريب: «يسهل علاجُ ذلك، ابنتي إحدى العزباوات. اسمي جرانبي؛ عندما ننتهي من شرابنا، سأجعلها تجد لك رفيقةً، إذا كنتَ تهوى الرقص الهادئ.»

قال بايلي: «أرغب برقصة أو اثنتين، وإن كنتُ لا أظن أنني ما زلت بالقدر نفسه من البراعة فيه الآن. ولكن لا ينبغي أن أستسلم لليأس قبل الأوان.»

وافقه جرانبي ببشاشة: «بالطبع، الشباب شباب القلب. حسنًا، تعالَ نحتسِ شرابًا ثم نبحث عن ابنتي.» ألقى الرجلان بعقبَي سيجارتَيهما وتوجَّها لاحتساء الشراب.

كانت الشامبانيا التي قدمتها العزباوات خفيفة في تأثيرها، ولكنها كانت تفي بالغرض إذا احتُسِيَ منها قدرٌ كافٍ، وهو ما توخَّى أوجستس — وجرانبي كذلك — الحذرَ منه؛ وعندما احتسى السيد بايلي الشراب وأتبعه ببعض الشطائر، شعر بتحسن ملحوظ. فقد كان نظامه الغذائي هزيلًا في الآونة الأخيرة. عند العثور على الآنسة جرانبي، وجدها مراهقة شقراء ساذجة، في السابعة عشرة من عمرها، يغمرها حماسٌ طفولي للعب دور المضيفة بما له من وقار وجلال. لم يكد بايلي يلتقي بها حتى وجد نفسه يرقص في حركة دائرية وسط الحشد الراقص مع حسناء في الثلاثين أو نحو ذلك.

فاجأته المشاعرُ التي أثارتْها في نفسه هذه التجربة الجديدة. فقد كانت حياتُه لسنوات مضت حياةً مضطربة ومحفوفة بالمخاطر؛ مضت وسط تقلبات من الدناءة والخسة، ما بين الخدع البالية والجرائم المكتملة الأركان؛ فأحيانًا يحتال على أحد الأشخاص بخدعة يكاد فيها أن يتخطَّى حدود القانون، وإذا أصابته عسرةٌ لجأ تارة إلى السطو الفعلي أو التآمر مع المشبوهين والمحتالين والفاسدين وأسافل الأشقياء من أمثاله، وتارة إلى المقامرة أو الاقتراض أو التسول، ولا يتورع عن السرقة إذا اقتضى الأمر، ويظل دائمًا حذرًا من الوقوع في يد الشرطة أينما غدا أو راح.

أما الآن فقد وجد نفسه وسط أجواء كاد ينساها، بعد أن كان معتادًا عليها يومًا ما؛ الغرف المزدانة بالزخارف المبهجة، والموسيقى الحالمة، وبريق الجواهر، وصوتُ الخُطَى المتراقصة، والثياب الفاخرة، والخيالات المتحركة للرجال الشرفاء والنساء الحسناوات؛ بدت سنين الإجرام المخزية تتلاشى تاركة إياه ليعود إلى حياته السابقة من حيث انتهت على نحوٍ كارثي. فقد كان هؤلاء القوم في نهاية المطاف هم قومه الذين ينتمي إليهم. أما المجرمون الذين سار في ركبهم في السنوات الأخيرة فلم يكونوا سوى غرباء عنه شاءت الأقدار أن يدخلوا حياته.

في النهاية أنهى رقصته مع رفيقته على مضض — كان متبادلًا — لتُواصلَ الحسناء الثلاثينية الرقص مع ضابط صغير قليل اللباقة، وكان يفكر في الذهاب إلى غرفة الشراب

مجددًا، عندما أحس بلمسة حانية على ذراعه، فالتفت بسرعة. فقد عنت له تلك اللمسة على ذراعه أكثر مما تعني لبعض الرجال. ولكنه لم يجد أمامه رجلًا متجهمًا في ملابس عادية، بل كانت السيدة تشاتر، تبتسم له في توتر وخجلة بعض الشيء من جرأتها.

قالت له في لهجة اعتذار: «أظنك نسيتني؟» ولكن أوجستس قاطعها بنفي حماسي.

قال: «بالطبع لا، وإن كنتُ قد نسيتُ اسمك، ولكني أذكر رقصتنا في بورتسموث كما لو كانت أمس، على الأقل لحظة معينة فيها، اللحظة الوحيدة التي تستحق التذكر. لطالما تمنيت أن ألقاكِ مجددًا، وها قد التقيتكِ أخيرًا.»

ردت: «لطفٌ منك أن تتذكر. لَكَمْ راودتني تلك الأمسية، وكل الأشياء الرائعة التي تحدثنا عنها حينها. لقد كنتَ فتًى لطيفًا في ذلك الحين، أتساءل كيف صرتَ الآن. لقد مرَّ وقت طويل.»

وافقها أوجستس في أسًى: «نعم، مر وقت طويل. أعرف ذلك؛ ولكن عندما أنظر إليك، يُخيل لي أن تلك الأمسية كانت منذ أشهر قليلة فقط.»

صاحت قائلة: «يا إلهي! لم تَعُد بريئًا كما كنت. لم تعتد المجاملة حينئذٍ، ولكن ربما لم يكن ثمة حاجة لها.» كانت تتحدث وفي صوتها نبرة تأنيب رقيقة، ولكن وجهها كان متوردًا من السعادة مما سمعت، وخرجت جملتها الأخيرة بنبرة بها قدرٌ من الأسى.

قال أوجستس بصدق شديد: «لم أكن أجاملك. لقد عرفتُكِ منذ دخلتِ الغرفة، وتعجبت لمدى ترفق الزمن بك. لم يكن الزمن بالرفق نفسه معي.»

ردت عليه: «لقد ظهر في رأسك بعضُ الشعر الأبيض، كما أرى، ولكن ماذا يمثل الشعر الأبيض للرجل في النهاية؟ هو أشبه بشارات الرتبة العسكرية، يدل على المناصب التي ارتقيتها، مثل التاج على ياقة القميص أو الشرائط الملونة على طرف الكم؛ أظنك الآن تحمل رتبة كولونيل.»

أجاب أوجستس بسرعة بحمرة خفيفة على وجهه: «كلَّا، تركت العسكرية منذ بضع سنوات.»

ردت السيدة تشاتر متعجبة: «يا للأسف! عليك أن تُخبرَني بكل تفاصيل ذلك، ولكن ليس الآن. فشريكي يبحث عني. لنجلس لمشاهدة إحدى الرقصات ونتحدث عن ذلك بالتفصيل. لكني نسيتُ اسمك، لم أستطع تذكره تمامًا في الواقع، وإن كان ذلك لم يَحُل دون أن أتذكرك، ولكن كما يقول ويليام شيكسبير: «ما أهمية الاسم؟»»

قال السيد هارينجتون بايلي: «نعم، بالفعل.» وعلى أثر رؤيتها هذه، أضاف قائلًا: «اسمي رولاند، الكابتن رولاند. ربما تذكرتِه الآن.»

لم تتذكر السيدة تشاتر الاسم، وصرحت بذلك. فتحت برنامج الحفل، وسألته: «هل الفقرة السادسة مناسبة؟» فردَّ أوجستس بالإيجاب، فكتبت اسمه الذي أخبرها به، وقالت بنبرة رضا: «سنجلس معًا ونتحدث طويلًا، وستُخبرني بكل شيء عنك، وعما إذا كانت أفكارك لم تتغير عن الإرادة الحرة والمسئولية الشخصية. أذكر أنه كان لديك مُثُلٌ بالغة النُّبل في تلك الأيام، أتمنى ألا تكون قد اهتزت. ولكنَّ مُثُلَ الإنسان تتلاشى شيئًا فشيئًا في معترك الحياة. أليس كذلك؟»

وافقها أوجستس في تجهم: «بلى، أنتِ محقة في ذلك للأسف. إن التدهور الطبيعي بحكم العمر سرعان ما ينزع عن الأشياء بهرجتَها. حتى نصل إلى منتصف العمر فلا نكاد نجد من تلك الزينة شيئًا إن وجدناه من الأساس.»

ردت السيدة تشاتر: «لا تكن متشائمًا؛ تتحدثُ كساعٍ للمثالية أحبطه واقعُ الحياة، وأنا على ثقة أنه لا سبب لديك حقًّا لتشعر بالإحباط من نفسك. عليَّ الانصراف الآن. فكِّر في الأشياء التي ستخبرني إياها، ولا تنسَ أن موعدنا الفقرة السادسة.» وتركته بابتسامة براقة وإيماءة ودودة برأسها، فبدت كلوحة حية تنطق ببريق وهاج من العظمة والتألق يتضاءل أمامه كنوزُ أعظم ممالك الدنيا.

لم يكن الحديث، الذي غلب عليه الودُّ والألفة بوضوح، والذي دار بين الضيف المجهول والأرملة الأمريكية ليمرَّ مرورَ الكرام بأي حال؛ وفي ظروف أخرى ربما كان بايلي سيستغل هالة العظمة التي صنعها حوله هذا الحديث. ولكنه لم يكن يسعى للفتِ الأنظار، وحدَتْ به غريزةُ المراوغة نفسها التي جعلته يخترع اسم الكابتن رولاند بدلًا من هارينجتون بايلي إلى أن يتوارى بشخصيته التي باتت الآن مزدوجة عن النظرات المتفحصة. لقد جاء إلى هنا في مهمة محددة تمامًا؛ إذ كان قد أفلس تمامًا للمرة المائة، فجاء على أمل التقاط أيِّ نفائس تركها أصحابها مهملةً. ولكن، على نحو ما، بدت أجواء المكان غير مناسبة. فقد انعدمت الفرص، أو سنحت دون أن يتمكن من اغتنامها. على أي حال، لم يزل الجيب الكبير الذي شكَّل سمة غير تقليدية لمعطفه عن المعاطف الأخرى خاليًا، وبدا كما لو أن كل ما سيحصل عليه هو أمسية سعيدة ووجبة عشاء دسمة. ومع ذلك، ورغم أن سلوكه لم يكن بهذه البراءة والنزاهة في أي وقت مضى، فلم يزل ضيفًا غيرَ مدعوٍّ، ولم يزل معرَّضًا للطرد في أي لحظة بوصفه محتالًا، ولم يُسهِم تعرُّف الأرملة عليه في دحض هذه الاحتمالية بأي حال.

خرج إلى الحديقة، حيث الأرض مرتفعة في المنتصف ومنحدرة إلى الأسفل من كل الجوانب. ولكنَّ ضيوفًا آخرين كانوا هناك خرجوا يتنسمون الهواء بعد الرقصة الأخيرة،

وكان ضوء الغرف ينبعث عبر النوافذ، فيُظهر أشكالهم، وكان من بينهم جرانبي ذو الطابع الاجتماعي المبالغ فيه. انسحب أوجستس مسرعًا من المنطقة المضيئة، حتى وجد ممرًّا ضيقًا، فسلكه متوجهًا نحو تجمُّعٍ من الأشجار والشجيرات رآه أمامه. وبعد قليل وصل إلى قوس يغطيه اللبلاب، يُضيئه مصباح أو مصباحان ملونان يُضاءان بالشموع، وعندما مرَّ من تحته، دخل ممرًّا متعرجًا تحدُّه صفوف من الأشجار والشجيرات ولا يضيئه سوى مصباح ملوَّن خافت الإضاءة يتدلَّى من أحد الأغصان.

كان قد ابتعد بالفعل عن الحشد، واستغرب ترْكَ هذا المكان المبهج المنعزل مهجورًا هكذا، حتى أدرك وجود الكثير من الغرف والأروقة الشاغرة في المنزل الفسيح للعشاق الباحثين عن الخلوة.

ظل الممر ينحدر إلى الأسفل بالتدريج لمسافة ما، ثم ظهر دَرَجٌ ريفيُّ الشكل في أسفله مقعدٌ بين شجرتين. امتد الممر أمام المقعد في خط مستقيم كشُرفة ضيقة، كانت الأرض على يمين الامتداد المستقيم تصعد إلى الأعلى باتجاه الحديقة، فيما انحدرت بصورة أشد إلى الأسفل على اليسار نحو السور المطوق للأرض، وكانت الأشجار والشجيرات منتشرة على الجانبين.

جلس بايلي على المقعد يفكر في القصة التي يجب أن يُخبر بها السيدة تشاتر عن نفسه. كان المقعد مريحًا، منحوتًا في جذع شجرة دردار، فكان الجذع أحدَ طرفَي المقعد وجزءًا من مسند الظهر. استند إلى الشجرة، وأخرج علبة السجائر الفضية فأخذ منها سيجارة. ولكنه أبقاها بين أصابعه بدون أن يُشعلَها فيما جلس يفكر في ماضيه المشين والقصة الحزينة لما آلت إليه أحوالُه. شرد ذهنُه عن أجواء الترف والبذخ التي عمَّت غرف الرقص، وعن حشود الرجال المتأنقين والنساء الحسناوات، وعاد بفكره إلى شقته البائسة الصغيرة في بيرمونديزي، وفي مظاهر الفقر والقذارة الناضحة منها، والمصانع الشاهقة المزاحمة لها، وجدرانها التي اكتست السواد من الأدخنة المنبعثة من النهر ورائحة الدخان الكريهة المنبعثة من مداخنها الضخمة. كان البون شاسعًا. لم يكن طريق الإجرام يومًا مفروشًا بالورود.

في هذه اللحظة من تأملاته تناهت إلى سمعه أصوات أشخاص وخُطًى مقبلة من فوقه على الممر، فهمَّ بالسير عبر الممر الممتد أمامه. لم يُرد أن يراه أحدُهم يتجول وحيدًا بين الشجيرات. ولكن عندئذٍ صدر صوت ضحك امرأة في مكان ما في الممر. كان ثمة أشخاص قادمون من الاتجاه الآخر كذلك. أعاد السيجارة إلى العلبة واختبأ خلف المقعد

منتويًا الانسحاب من ذاك الاتجاه، ولكن الممر انتهى هنا، ولم يكن يوجد بعد هذه النقطة سوى منحدر وعر نحو السور تُغطيه الكثيرُ من الشجيرات بكثافة. وفي خضمِّ تردُّدِه جاء صوتُ الأقدام وهي تهبط على الدرج وحفيفُ فستان امرأة، فأصبح أمامه خياران، إما أن يبقى مكانه، أو أن يخرج لمواجهة الوافدين الجدد. ووقع اختيارُه على الخيار الأول؛ إذ انسلَّ وراء الشجرة ظل ملتصقًا بها ريثما يمرون.

لكنهم لم ينووا المرور، بل جلس أحدهم — وكانت امرأة — على المقعد، ثم وقع على أذنه صوتٌ مألوف يقول: «سأستريح هنا في هدوء لبعض الوقت؛ إن سنِّي تؤلمني بشدة؛ أريد منك أن تذهب وتجلب لي شيئًا. خذْ هذه البطاقة إلى غرفة الأمتعة، واطلب من المسئولة عنها أن تعطيَك حقيبتي المخملية الصغيرة. ستجد فيها زجاجة من الكلوروفورم وحزمة من القطن الطبي.»

فقال رفيقها محتجًّا: «لكن لا يمكنني أن أتركَك هنا وحدك، يا سيدة تشاتر.»

ردت السيدة تشاتر: «لا أتوق إلى الصحبة الآن. أريد الكلوروفورم. كُن لطيفًا وأسرع بإحضاره. هاك البطاقة.»

تراجع صوتُ خُطَى الضابط الشاب بسرعة، وتعالَى صوت الثنائي القادم عبر الممر. لعن بايلي الصدفة التي أدت به إلى هذا الوضع السخيف وغير المريح، وسمعهما يقتربان ويصعدان الدرج، ثم عمَّ الصمت المكان ولم يقطعه سوى تأوهات السيدة تشاتر من وقت لآخر والإيقاع الموزون لصرير المقعد وهي تتأرجح عليه جيئة وذهابًا من الألم. ولكن الشاب أنجز المهمة بسرعة فاقت المعتاد؛ إذ لم تمرَّ دقائق معدودة حتى سمعه يقترب راكضًا عبر الممر من فوقه ثم يهبط الدرج.

قالت الأرملة في امتنان: «هذا لطف حقيقي منك. لا بد أنك انطلقت كالريح. اقطع الخيط لفتح الحزمة ودعْني أتعامل مع هذه السن.»

رد الشاب: «لكن لا يمكنني أن أتركك هنا و...»

قاطعته السيدة تشاتر: «بلى، يمكنك. فلن يأتيَ أحد إلى هنا؛ فالرقصة القادمة هي الفالس. كما أن عليك الذهاب للعثور على شريكة لك.»

قال الضابط: «حسنًا، إذا كنتِ فعلًا تفضلين البقاء وحدك ...» ولكن السيدة تشاتر قاطعته مجددًا.

«بالطبع أفضِّل ذلك وأنا أعالج أسناني. انصرف الآن، وشكرًا جزيلًا على لطفك.»

انصرف الضابط الشاب ببطء مغمغمًا بكلمات احتجاج، وسمع بايلي صوت قدميه تصعدان الدرج في تردُّدٍ. عمَّ المكانَ صمتٌ مطبق من جديد حتى بدا صوت حفيف الأوراق

وصوت فتح سدادة زجاجة عاليَين وواضحَين. استدار بايلي فأصبح مواجهًا للشجرة، واستند إليها فاغرًا فاه لا يكاد يتنفس. أخذ يلعن نفسه مرارًا وتكرارًا؛ لأنه من تسبَّب في الإيقاع بنفسه في هذا الموقف بدون سبب واضح، وظل يتحرق شوقًا للخروج من مخبئه. لكنْ لم يكن أمامه مهربٌ الآن دون أن يكشف عن نفسه. كان عليه أن ينتظر انصراف هذه المرأة.

وفجأة، من خلف حافة الشجرة، لاحت يدٌ تحمل حزمة مفتوحة من القطن الطبي. وضعت اليدُ القطنَ الطبي على المقعد، ثم انتزعت منه قطعة صغيرة ولفَّتها في شكل كرة صغيرة. كانت أصابع اليد مزدانةً بالخواتم، وكان المعصم مطوقًا بسوار عريض. أسقط المصباحُ الوحيد المعلق على أحد أغصان الشجرة ضوءَه الخافت على الخواتم والسوار فالتمعت في تألق جذاب. انسحبت اليد، في حين ظل بايلي يحدق شاردًا في قطعة القطن الطبي المربعة. ثم ظهرت اليد مرة أخرى تحمل قارورة صغيرة هذه المرة، ووضعتها برفق على المقعد وبجوارها السدادة. ومجددًا انعكس الضوء على الجواهر الثمينة في ومضات متعددة الألوان.

بدأت ركبتَا بايلي في الارتعاد، وتفصد جبينه عرقًا باردًا.

انسحبت اليد مرةً أخرى واختفت، ولكن بايلي هذه المرة حرك رأسه دون صوت حتى ظهر وجهُه من وراء الشجرة. كانت المرأة مستندة إلى الشجرة، وتُريح رأسها على جذع الشجرة على بُعد بوصات قليلة فقط من وجهه. التمعت الجواهر الثمينة المرصَّع بها التاج الذي كان فوق رأسها في عينيه. واستطاع أن يرى من فوق كتفها قلادتها الفائقة الجمال ترتفع وتنخفض على صدرها مع كل شهيق وزفير، وينبعث منها أضواءٌ متوهجة ذات ألوان متجددة، وكانت يداها المرفوعتان عبارة عن كتلة من البريق المتألق في الضوء الخافت.

خفق قلبُه بنبضات مسموعة دوت عاليًا في أذنيه. وراح العرق ينساب باردًا على وجهه بغزارة، وأطبق أسنانه ليمنعها من الاصطكاك بعضها ببعض. داهمه رعبٌ كاسح مميت هزَّ كيانه من النية المندفعة المخيفة التي كانت تتسلل إلى عقله وإرادته.

كان الصمت مطبقًا. كانت أنفاس المرأة الخافتة، وحفيف صدرها، مسموعين بوضوح — بل بوضوح صارخ — وكتم أنفاسه حتى كاد يختنق.

فجأة حمل نسيم الليل صوت موسيقى الفالس الحالمة الخافتة. لقد بدأت الرقصة. عمَّق الصوت القادم من بعيد إحساسه بالوحدة في هذه البقعة المهجورة.

أصاخ بايلي السمع، ولم يُطِق صبرًا للفرار من براثن تلك القوة الخفية التي شعر كأنها تُطبق على معصميه وتجرُّه جرًّا إلى هلاكٍ محتوم.

حدق في المرأة بانبهار مخيف. أخذ يصارع للاختفاء عن الأنظار، ويا ليته استطاع.

وأخيرًا، حزم أمره، وبتأنٍّ شديد مسترق، تسللت يدٌ متعرقة مرتجفة خلسةً نحو المقعد وقبضت على القطن في سكون، ثم سحبته ببطء بلا أيِّ ضجيج. ومن جديد امتدت اليد إلى الأمام، فالتفت أصابعها حول القارورة كحيات خبيثة، وسحبتها من فوق المقعد في الظلام.

بعد ذلك بثوانٍ معدودة، ظهرت اليد مجددًا فأعادت القارورة برفق إلى مكانها وقد فرغت من نصف محتواها. عمَّ سكونٌ مؤقت. تسللت إيقاعات الفالس المنتظمة قاطعة سكون الليل، وبدت متزامنة مع أنفاس المرأة. ولم يكن في الجوار أيُّ صوت آخر. لف المكان صمت كصمت القبور.

وفجأةً، مال بايلي إلى الأمام من مخبئه نحو مؤخرة المقعد. وكانت قطعة القطن الطبي في يده.

كانت المرأة في تلك اللحظة متكئة إلى الخلف كمن غلبها النعاس، واستقرت يداها في حِجرها. وبحركة سريعة، ضُغط على وجهها بقطعة القطن الطبي، وسُحب رأسها إلى الخلف على صدر المعتدي الخفي. انطلقت شهقة مكتومة من بين شفتيها المكتومتين في حين ارتفعت يداها تقبضان على ذراع مهاجمها، وحدثت مقاومة عنيفة من جانبها، أضفى عليها رنين الجواهر الثمينة التي ارتجت مع تلوِّي الضحية مزيدًا من الشراسة. ومع كل ذلك لم يكد يَصدُر أيُّ صوت فيما عدا الشهقات المكتومة، وحفيف الفستان الحريري، وصرير المقعد، وصوت القارورة التي سقطت أرضًا، بالإضافة إلى موسيقى الفالس البعيدة التي أضافت إلى المشهد مفارقة مخيفة.

لم يستمرَّ الصراع طويلًا. فسقطت اليدان المرصعتان بالجواهر فجأة، واستند الرأس بلا مقاومة على مقدمة قميص المهاجم المغضن، وخمد الجسم وتخدر فانزلق من فوق المقعد. تسلق بايلي من فوق مؤخرة المقعد وهو لم يزل ممسكًا بالرأس المستسلم. وبينما أخذت المرأة تنزلق برفق إلى الأرض، رفع قطعة القطن الطبي ومال فوقها. انتهت المقاومة الآن، وخبت ثورة المشهد ولم يبقَ إلا رعدة الخوف المميت.

حدق برعب في الوجه المنتفخ الذي لم يزل على جماله، وإلى العينين اللتين انطفأ نورُهما وكانتا منذ وهلة تبتسمان في رقة إلى عينيه.

هذا ما اقترفت يداه! ذلك الفاشل الخبيث، الذي نبذه العالم بأكمله فمدت إليه هذه المرأة الجميلة يدَ الصداقة. ظلت معتزة بذكراه، في حين تركه الجميع في قاع بحر النسيان السحيق. وها قد قتلها؛ إذ لم يسمع صوتًا لنفس يخرج من بين شفتيها القرمزيتين.

دهمه شعورٌ مفاجئ وشنيع بالندم على فعلته التي لا يمكنه العدول عنها الآن، فوقف يقبض بشدة على شعره الرطب، وينشج ببكاء مرير كملعون يعض أنامل الندم.

نسي أمر الجواهر تمامًا. نسي كل شيء فيما عدا الرعب الذي أصابه بسبب فعلته المريعة المستعصية على الوصف. لم يبقَ له إلا خوف داهم وندم لا مناص منه.

انتشله من طوفان مشاعره أصوات أناس قادمين على الطريق من بعيد، وتحوَّل الرعب الغامض الذي تملَّكه إلى خوف مادي بغيض سيطر على أوصاله. فرفع الجسد الخامد إلى حافة الطريق، وتركه ينزلق عبر المنحدر بين الشجيرات. ندت عن الشفتين المفتوحتين تنهيدة مرتعدة خافتة عندما انقلب الجسد، فتوقف للحظة ليستمع. لكنه لم يسمع صوتًا آخر يدل على الحياة. لا بد أن هذه التنهيدة لم تكن سوى نتاج لحركة الجسد.

مرةً أخرى، وقف لوهلة كأنه في حلم، وأخذ يحدق في الجسد المتكوم الذي غطت الشجيرات نصفه، ثم عاد إلى الطريق، وحتى في هذه اللحظة ألقى نظرةً أخرى، لكنه لم يجد الجسد في مرمى بصره. ومع اقتراب الأصوات أكثر، التفت وصعد الدرج الريفي راكضًا.

عندما وصل إلى طرف الحديقة توقفت الموسيقى، وعلى الفور اندفع طوفان من الناس من المنزل. ورغم الرعدة التي كانت تسري في أوصال بايلي، كان لديه بقايا من الوعي ليدرك أن شعره أشعث وملابسه غير مهندمة وأن مظهره مبعثر لا محالة. فتحاشى الراقصين، ولزم حافة الحديقة، وتوجه إلى غرفة الأمتعة من أقل الطرق ارتيادًا. لو كانت لديه الجرأة لذهب الآن إلى غرفة الشراب؛ إذ كان يشعر بدوار وكانت أطرافه ترتعد بشدة أثناء مشيه. ولكن ثمة خوفًا عنيدًا كان يتبعه ويلازمه في كل خطوة يخطوها، وكان يتزايد في كل لحظة. ووجد نفسه يسترق السمع ترقبًا لأي شائعة عن الاكتشاف الذي سيحدث لا محالة.

وصل إلى غرفة الأمتعة يترنح، وألقى ببطاقته على الطاولة، وتفقد ساعته. نظر إليه حارس غرفة الأمتعة في فضول، فتوقف والبطاقة لا تزال في يده وسأل في تعاطف: «ألست على ما يرام يا سيدي؟»

رد بايلي: «كلا. فالجو هنا حار للغاية.»

قال الرجل: «فلتشرب كأسًا من الشامبانيا يا سيدي، قبل أن تنصرف.»

رد بايلي: «ليس لديَّ وقت لذلك.» ثم مدَّ يدًا مرتجفةً نحو معطفه وتابع: «سيفوتني القطار إذا لم أصل في الموعد.»

فهم حارس الأمتعة التلميح، فأخذ المعطف والقبعة، وأمسك المعطف محاولًا مساعدة بايلي في إدخال ذراعيه في كميه. لكن بايلي خطفه منه وألقاه على ذراعه، واعتمر قبعته وأسرع إلى مرأب العربات. وهناك حدق فيه الحارس باستغراب مجددًا، وازداد استغرابه عندما لم يقبل بايلي مساعدته في ارتداء المعطف، وكومه تحت إبطه، ثم دفع دراجته وركبها مسرعًا وانطلق بها في مسار متعرج عبر المدخل المنحدر، وذيل معطفه يتطاير من خلفه في مشهد غريب.

صاح الحارس: «لم تُضئ مصباح الدراجة يا سيدي.» ولكنَّ أُذنَي بايلي صمتتا عن كل شيء عدا صخب المطاردة الوشيكة.

لحسن الحظ التحم مدخل المنزل بالطريق بانحراف، وإلا لاندفعت دراجة بايلي بقوة واصطدمت بالسياج الشجري الذي يحدُّ الطريق من الجانب الآخر؛ وحتى في تلك اللحظة لم تُبطأ سرعة الدراجة؛ إذ كان راكبها، بدافع من خوفه الشديد، يضغط على دواسات الدراجة كالمجنون. ورغم انطلاقه السريع في الطريق المظلم الساكن، أخذ بايلي يصيخ السمع، لعل أذنيه تلتقط صوت سنابك حصان أو هدير محرك سيارة تلاحقه.

كان يعرف المناطق الريفية المحيطة جيدًا، وكان في اليوم السابق، كإجراء احترازي، قد تجول بدراجته في أنحاء المنطقة، وكان مستعدًّا الآن للفرار عبر أيِّ زقاق أو طريق فرعي فور سماعه أيَّ صوت مثير للريبة، فكان واثقًا أنه لن يضلَّ طريقه. ومع ذلك فقد ظل يُسرع ويُسرع، ولم يأته أيُّ صوت من خلفه ينبئ بوقوع الاكتشاف المحذور.

بعد أن قاد دراجته لنحو ثلاثة أميال، وصل إلى سفح تل شديد الانحدار. وهنا اضطر إلى النزول عن دراجته ودفعها لصعود التل بسرعة شديدة؛ حتى إنه عندما وصل إلى قمته كان يلتقط أنفاسه بصعوبة. وقبل أن يعتليَ الدراجة مجددًا قرر ارتداء معطفه؛ فقد خمن أن مظهره يجذب الانتباه، أو ما هو أخطر من الانتباه. كانت الساعة الحادية عشرة والنصف فقط، وكان حينئذٍ يوشك على المرور من شوارع بلدة صغيرة، وسيضيء مصباح دراجته أيضًا. وإذا استوقفته دوريةٌ أو ضابطٌ ريفي حينئذٍ، فستكون العواقب وخيمة.

بعد أن أضاء مصباحه وارتدى المعطف بسرعة، عاد يتسمع الأصوات مجددًا بانتباه، وينظر من قمة التل إلى المنطقة الريفية المحيطة التي عمَّها الظلام. لم يرَ أيَّ أضواء

متحركة، ولم يسمع سنابك خيل أو هدير محركات، فهمَّ بركوب الدراجة، ومدَّ يده يبحث عن قفازاته في جيب المعطف.

أمسكت يده بقفازين، ولكنه أدرك على الفور أنهما ليسَا قفازيه. كما وجد وشاحًا حريريًّا أبيض بدلًا من وشاحه الأسود.

أصابه رعبٌ مفاجئ، ودس يده في الجيب الذي يحتفظ فيه بالبطاقات، وكان يحتفظ فيه أيضًا بمفتاح الباب الخارجي لمنزله. ولكنه لم يجد المفتاح، بل وجد حامل سيجار من الكهرمان لم يره من قبل. وقف للحظات قليلة في ذعر تام. لقد أخذ المعطف الخطأ وترك معطفه هو في منزل الحفل. انسال على وجهه عرقٌ بارد من فرط الخوف حين أدرك ذلك. كان مفتاحه في جيب معطفه، ولم يكن ذلك بالأمر المهم للدرجة. فقد كانت لديه نسخةٌ أخرى في المنزل، أما بالنسبة إلى الكيفية التي سيدخل بها منزله، فقد كان يعرف باب منزله الخارجي جيدًا، وكان يحمل في حقيبة أدواتِه بعضَ الأدوات الإضافية التي لم يَعتَدْ راكبو الدراجات حملها. كان التساؤل الذي شغله هو ما إذا كان في معطفه أيُّ شيء من شأنه أن يكشف عن هويته. ثم أطلق تنهيدة ارتياح؛ إذ تذكَّر فجأة أنه كان قد أفرغ جيوب المعطف تمامًا قبل الانطلاق.

سيكون بمأمن ما إن يدخل شقته الصغيرة القذرة المحشورة بين المصانع الكبيرة وضفة النهر؛ سيكون بمأمن من كل شيء عدا الرعب الذي امتلأت به نفسُه، ومن الصورة التي تطارده لهذا الجسد الملفوف بالحرير والمرصع بالجواهر متكومًا وسط الشجيرات.

نظر حوله نظرة أخيرة، ثم ركب دراجته، وقادها أعلى التل، حتى غاص بها في الظلام.

الجزء الثاني

عطايا القدر

يرويها الدكتور كريستوفر جيرفيز

من مساوئ مهنة الطب أن أصحابها لا يتحررون أبدًا من أعباء مسئولياتهم. فالتاجر والمحامي والموظف العمومي كلٌّ يُغلق مكتبه في الموعد المحدد له، ويعتمر قبعته، وينطلق كرجلٍ حرٍّ، لقضاء فترة متواصلة من المتعة واللهو لا يُكدر صفوه خلالها شيء. أما الطبيب فلا يمكنه التمتع بذلك، فهو خادم للإنسانية في كل وقت؛ في وقت عمله أو لهوه، وفي يقظته ونومه. يقدِّم خدماتِه على الفور لمن يحتاجه على وجه الضرورة، وللصديق والغريب على حدٍّ سواء.

عندما وافقتُ على مرافقة زوجتي إلى الحفل الراقص الذي أقامته العزباوات في رينسفورد، تخيلتُ أني سأتحرر من واجبات العمل بكل تأكيد في تلك الأمسية على الأقل، وظللت على اعتقادي هذا حتى ختام الرقصة الثامنة. وإحقاقًا للحق، لم آسف عندما خالف الواقعُ طموحي. فقد كانت رفيقتي الأخيرة شابة تتحدث بلهجة مفرطة في العامية حتى كادت تخلو من الوضوح، لم يكن من السهل تبادلُ الأفكار بهذه اللغة الركيكة، ولم تكن المحادثة مع شخص لا يستخدم إلا أضعف المفردات لتتسم بالرقي. في الحقيقة، أصابني الضجرُ، وفكرتُ في تناول شطيرة متواضعة لعلها تمدُّ جسورًا جديدة للحوار، وهممت بدعوة رفيقتي للذهاب إلى غرفة المشروبات فإذا بأحدهم يجذب كمَّ قميصي. التفتُّ سريعًا لأجد زوجتي تنظر إليَّ وقد ارتسم على وجهها القلق والرعب.

قالت لي: «الآنسة هاليويل تبحث عنك. ثمة سيدة مريضة. هلَّا أتيت لفحصها؟» وأمسكتْ بذراعي، فاعتذرتُ لرفيقتي، وجذبتني زوجتي بسرعة نحو الحديقة.

تابعت زوجتي: «الأمر غامض. المريضة هي السيدة تشاتر، أرملة أمريكية فاحشة الثراء. عثرت إيديث هاليويل والميجور بودبيري عليها مستلقية بين الشجيرات وحدها ولا يمكنها الحديث. إيديث المسكينة في غاية الانزعاج لا تفهم ما الأمر.»

رددتُ عليها: «ماذا تقصدين؟» ولكن في تلك اللحظة لمحتنا الآنسة هاليويل التي كانت تنتظر بالقرب من قوس مغطًّى باللبلاب، وهرعت نحونا.

قالت الآنسة هاليويل: «أسرع، رجاءً، يا دكتور جيرفيز. حدث أمرٌ صادم، هل أخبرتك جولييت؟» ودون أن تنتظر إجابتي، انطلقتْ مسرعة عبر القوس وسبقتنا عبر طريق ضيق تهرول بالإيقاع المتثاقل الخالي من أي تكلف المألوف بين أغلب السيدات الراشدات. وبعد قليل هبطنا درجًا ريفيًّا قادنا إلى مقعد امتد أمامه ممرٌّ مستقيم فبدا كشرفة صغيرة تطل على جرف شديد الانحدار ترتفع الأرض عن يمينه وتنحدر عن يساره. وجدنا في الأسفل رجلًا برز رأسه وكتفاه من فوق الشجيرات يُمسك بمصباح كان من الواضح أنه أخذه من أعلى شجرة. نزلت المنحدر باتجاهه، وعندما وصلت إلى الشجيرات، رأيت امرأة في ملابس تنمُّ عن الثراء مكومة على الأرض. لم تكن غائبةً عن الوعي تمامًا؛ إذ ندت عنها حركة طفيفة عند اقترابي، وتمتمت ببعض الكلمات بلهجة ثقيلة غير واضحة. أخذت المصباح من الرجل الذي افترضت أنه الميجور بودبيري، وبينما كان يناولني المصباح نظر إليَّ نظرةً ذات مغزًى ورفع حاجبيه قليلًا، ففهمت سبب اضطراب الآنسة هاليويل.

للحظة مرعبة عابرة، ظننت في الواقع أنها كانت محقة في ظنها بأن المرأة القابعة في الأسفل مخمورة. ولكن عندنا اقتربت أكثر، أظهر ضوء المصباح المتراقص على وجهها بقعة مربعة حمراء اللون تغطي الأنف والفم، كالعلامة التي تتركها لصقة الخردل، وحينها شممت رائحةَ أمر خطير.

قلتُ وأنا أناول المصباح للآنسة هاليويل: «من الأفضل أن نحملها إلى المقعد، بعدها يمكننا أن نرى ما إذا كان من الممكن أن ننقلها إلى داخل المنزل.» تعاونتُ أنا والميجور في حمل السيدة المسكينة وبعد أن صعدنا بحرص إلى الطريق، مددنا جسدها على المقعد.

همست الآنسة هاليويل: «ما الأمر يا دكتور جيرفيز؟»

أجبتها: «لا يمكنني الجزم الآن، ولكن الأمر ليس ما كنت تخشين منه.»

قالت متلهفة: «أشكر الرب على ذلك، وإلا لكانت فضيحة مدوية.»

أخذتُ المصباح الخافت وانحنيت مجددًا فوق السيدة التي لم تكن بكامل وعيها. حيَّرني مظهرُها كثيرًا. فقد بدت كمن يفيق من التخدير، لكن الرقعة الحمراء المربعة على

وجهها، التي ذكَّرتني بجرائم بيرك، كانت تُوحي بأنها محاولة للخنق. وبينما كنت أفكر في ذلك، سقط ضوء المصباح على شيء أبيض اللون على الأرض خلف المقعد، وعندما قرَّبتُ المصباح منه، وجدتُه قطعة مربعة من القطن الطبي. خطر لي على الفور وجود تطابق في شكلها وحجمها مع البقعة الحمراء الموجودة على وجه المرأة، وانحنيتُ لالتقاطها، وعندئذٍ وجدتُ تحت المقعد قارورة صغيرة. التقطتُ القارورة وأخذت أتفحصها هي الأخرى على ضوء المصباح. كانت قارورة سعة أونصة واحدة، فارغة تمامًا، ومكتوب عليها «كلوروفورم ميثيلي». هنا بدا لي ذلك تفسيرًا متكاملًا ما كانت عليه السيدة من صعوبة في النطق وهيئة ثملة؛ ولكن هذا التفسير في حد ذاته استلزم تفسيرًا. من الواضح أنه لم تحدث أي سرقة؛ إذ كانت المرأة تشعُّ بريقًا من كثرة ما ترتديه من ألماس. كما كان من الواضح أنها لم تضع الكلوروفورم على وجهها بنفسها.

لم يكن أمامنا شيءٌ نفعله سوى حملها إلى الداخل وانتظار تعافيها بصورة أكبر؛ فساعدني الميجور على حملها بين الشجيرات وعبر حديقة المطبخ إلى باب جانبي، ثم وضعناها على أريكة في غرفة لم يكتمل تأثيثها.

في هذه الغرفة، استفاقت سريعًا جراء رش بعض الماء على وجهها وقُرِّبت بعض الأملاح ذات الرائحة النفاذة بقدر كبير من أنفها فاستفاقت سريعًا، وسرعان ما تمكنت من رواية ما حدث.

كان الكلوروفورم والقطن الطبي يخصانها. استخدمتهما لتسكين ألم أسنانها، وكانت تجلس وحدها على المقعد، بجانبها القارورة والقطن، عندما حدث ذلك الأمر الذي ما تعذر تفسيره. فعلى حين غرة وبدون سابق إنذار امتدت يدٌ من خلفها وضغطت قطعة القطن الطبي على أنفها وفمها. وكان القطن مشبعًا بالكلوروفورم، فغابت عن الوعي في لمح البصر تقريبًا.

سألتُها: «ألم ترَي الشخص إذن؟»

ردت: «كلَّا، لكنني أعرف أنه كان يرتدي بذلة مسائية؛ لأن رأسي كان على مقدمة قميصه.»

قلتُ: «إذن، فإما أنه لم يزل هنا، أو أنه قصد غرفة الأمتعة. لا يمكن أن يكون قد غادر بدون معطف.»

صاح الميجور: «بالطبع، هذا صحيح. سأذهب لتقصي الأمر.» خرج في حماس شديد، ثم تبعتُه على الفور بعد أن اطمأننت أن السيدة تشاتر ستكون في أمان بمفردها.

توجهت مباشرة إلى غرفة الأمتعة، فوجدت الميجور وواحدًا أو اثنين من رفاقه الضباط يرتدون معاطفهم في حماس مشوب بالجذل.

قال بودبيري فيما كان يحاول ارتداء معطفه بصعوبة: «لقد غادر المكان منذ ساعة تقريبًا على دراجة، وبدا مضطربًا للغاية وفقًا لقول الحارس، ولا عجب في ذلك. سنلاحقه بسيارتنا. هل تودُّ الانضمام إلينا في المطاردة؟»

رددت قائلًا: «كلا، شكرًا لك. عليَّ البقاء مع المريضة. ولكن كيف ستعرف أن من تطارده هو الفاعل؟»

قال بودبيري: «لم يفعلها غيره. صاحب المعطف الوحيد المتبقي. بالإضافة إلى ذلك ... بئسًا! لقد أعطيتني معطفًا غير معطفي!» وخلع المعطف وأعطاه للحارس، فنظر إليه في خوف.

سأله: «هل أنت متأكد، يا سيدي؟»

رد الميجور: «متأكد تمامًا. هيا، أسرع يا صديقي.»

سأل الحارس: «يؤسفني يا سيدي أن أخبرك بأن السيد الذي غادر قد أخذ معطفك. كان المعطفان معلَّقَين على المشجب نفسه. أنا في غاية الأسف، يا سيدي.»

وقف الميجور صامتًا وقد اشتد به الغضب. فما فائدة الاعتذار؛ وكيف له أن يستعيد معطفه.

وهنا تدخلت قائلًا: «ولكن، إذا كان الغريب قد أخذ معطفك، فلا بد أن هذا معطفه.»

رد بودبيري: «أعرف، ولكني لا أريد معطفه الرديء هذا.»

قلت له: «ولكنه قد يفيدنا في تحديد هويته.»

هوَّن ذلك قليلًا على الضابط المكلوم في معطفه، ولكن كانت السيارة قد أصبحت جاهزة، فانطلق من فوره، وبعد أن كلفتُ الحارس بالاحتفاظ بالمعطف في مكان آمن، عدتُ إلى مريضتي.

كانت السيدة تشاتر قد تعافت إلى حدٍّ كبير الآن، وكانت متحمسة لمعرفة مهاجمها لتقتصَّ منه. بل إنها أبدت أسفها أنه لم يأخذ بعض ألماساتها على الأقل، حتى يمكن توجيه تهمة السرقة إليه بالإضافة إلى تهمة الشروع في قتلها، وأعربت عن أملها الشديد في ألا يتحامقَ الضباط ويرفقوا به عندما يقع تحت أيديهم.

قالت الآنسة هاليويل: «بالمناسبة يا دكتور جيرفيز، أعتقد أنه يجدر بي ذكرُ أمر غريب نوعًا ما حدث فيما يتعلق بالحفل الراقص. لقد تلقينا خطابًا يفيد بقبول سيد

يُدعى هارينجتون بايلي للدعوة، وكان مصدر الخطاب فندق سيسيل. ولكني متأكدة الآن أن أيًّا من العزباوات لم تقترح إرسال دعوة إلى شخص بهذا الاسم.»

تساءلتُ: «لكن هل سألتِهن؟»

أجابت: «في واقع الأمر، اضطُرَّت إحداهن — وهي الآنسة واترز — إلى السفر خارج البلاد فجأة، ولم نكن قد عرفنا عنوانها بعد، ولما كان من الوارد أن تكون هي من وجَّهت إليه الدعوة، لم أُرِدْ أن أتخذ قرارًا في هذا الشأن. وليتني فعلت. ربما سمحنا لمجرم عتيد الإجرام بدخول الحفل، على الرغم من أني لا يمكنني تصور السبب الذي دفعه لمحاولة قتل السيدة تشاتر.»

كان الأمر غامضًا بكل تأكيد، ولم يُفلح مطاردو الفاعل في كشف هذا الغموض؛ إذ عادوا خالي الوفاض بعد ساعة. يبدو أنهم تتبعوا أثر الدراجة لبضعة أميال باتجاه لندن، ولكن عندما وصلوا إلى مفترق الطرق، اختلطت آثار الدراجة تمامًا مع آثار المركبات الأخرى، فحام الضباط حول المكان لبعض الوقت بلا هدف، ثم يأسوا وعادوا أدراجهم.

قال الميجور بودبيري موضحًا في لهجة اعتذار: «المشكلة يا سيدة تشاتر أن الرجل كانت لديه ساعة كاملة للهرب، ولا بد أن هذه الساعة جعلته قريبًا إلى حدٍّ كبير من لندن.»

رمقت السيدة تشاتر الميجور بنظرة ازدراء فشلت في إخفائها وصاحت قائلة: «أتقصد أن تُخبرني أن المجرم هرب ونجا بفعلته؟»

رد بودبيري: «يبدو كذلك، ولكن لو كنتُ مكانك، لأخذتُ أوصاف الرجل من حارسَي المرأب وغرفة الأمتعة اللذين رأياه، ومن ثَم توجهتُ إلى مقر الشرطة في سكوتلاند يارد غدًا وأبلغتهم بها. فلربما تعرفوا عليه، وقد يتعرفون على معطفه كذلك إذا أخذته معك.»

قالت السيدة تشاتر: «لا يبدو ذلك ممكنًا.» وبالفعل لم يكن ذلك ممكنًا على الإطلاق، ولكنها قررت قبول الخطة المقترحة؛ إذ لم يُقترح بديل أفضل، وعندئذٍ ظننتُ أنني لن أسمع المزيد بهذا الشأن.

لكنني كنت مخطئًا في ظني. فقبيل ظهيرة اليوم التالي، وبينما النعاس لم يزل يثقل جفوني، كنت أدرس النقاط الواردة في مذكرة تتناول مسألة حق الوراثة، بينما كان ثورندايك يكتب مسودة محاضرته الأسبوعية، فإذا بطرق إيقاعي متكرر على باب مسكننا يُعلن عن قدوم زائر. قمت لفتح الباب متعَبًا؛ إذ لم أحظَ إلا بأربع ساعات فقط من النوم في الليلة الماضية، فإذا بالسيدة تشاتر بنفسها تدلف إلى المنزل، يتبعها المفتش ميلر مبتسمًا ابتسامة عريضة وحاملًا تحت ذراعه طردًا ملفوفًا بورق بُنِّيٍّ.

لم تكن السيدة تشاتر في أفضل حالاتها المزاجية، ومع ذلك بدت عليها الحيوية والتيقظ على نحو مذهل رغم الصدمة القاسية التي تعرضت لها في الليلة الماضية، وكان امتعاضها من ميلر واضحًا تمام الوضوح.

قالت بينما كنت أعرِّفها بزميلي: «لعل الدكتور جرفيز قد أخبرك بمحاولة القتل التي تعرضتُ لها الليلة الماضية. هل تصدق ما جرى بعد ذلك؟ ذهبت إلى الشرطة وأعطيتهم وصفًا للقاتل المجرم، وأريتهم المعطف الذي كان يرتديه، فقالوا لي إن ما بيدهم حيلة. باختصار، هذا المجرم الوغد سيُترك مطلق السراح بدون عقاب.»

قال ميلر: «ستلاحظ يا دكتور أن الأوصاف التي أدلت بها السيدة تنطبق على نصف رجال الطبقة المتوسطة في المملكة المتحدة، وأنها أعطتنا معطفًا ليس به علامة واحدة من أي نوع تساعد في تحديد هوية صاحبه، ومع ذلك تتوقع منَّا أن نوقع بصاحب المعطف بدون دليل واحد يرشدنا. لسنا سحرة في سكوتلاند يارد، بل مجرد رجال شرطة. لذا سمحتُ لنفسي بأن أحيل السيدة تشاتر إليك.» وابتسم بخبث ووضع الطرد على الطاولة.

سأل ثورندايك بهدوء: «وما المطلوب مني؟»

رد ميلر: «سيدي، لدينا معطف كان في جيبه قفازان ووشاحٌ وعلبةُ ثقاب وتذكرة ترام ومفتاحٌ مكتوب عليه ييل. وتُريد السيدةُ تشاتر أن تعرف من هو صاحب المعطف.» وفتح الطرد وعيناه مثبتتان على عميلتنا المضطربة، في حين تابعه ثورندايك بابتسامةٍ خفيفة.

قال ثورندايك: «هذا لطف كبير منك يا ميلر، ولكني أعتقد أنك بحاجة إلى مستبصر، سيكون أقدرَ مني على المهمة.»

زالت عن وجه المفتش الابتسامة الساخرة في لمح البصر.

قال: «بعيدًا عن الهزل يا سيدي، سأكون سعيدًا لو ألقيتَ نظرة على المعطف. ليس لدينا أيُّ أدلة نسترشد بها مطلقًا، ولكننا لا نريد حفظ القضية. لقد تفحصتُ المعطف بعناية فائقة فلم أجد دليلًا واحدًا نهتدي به. لكني أعلم أن لا شيء يفوتك، وربما تلاحظ شيئًا لم أنتبه أنا له؛ من شأنه أن يُرشدنا إلى نقطة نبدأ منها تحقيقَنا.» ثم ابتسم في استنكار وأضاف: «ألا يمكنك فحصه تحت الميكروسكوب على سبيل المثال؟»

فكر ثورندايك وهو يرمق المعطف بنظرة متفحصة. لاحظتُ أن القضية قد أثارت حماسه، وعندما كررت السيدة طلب ميلر بحماس مقنع، حدثت النتيجة الحتمية.

قال ثورندايك: «حسن جدًّا. اتركا المعطف معي لساعة أو نحو ذلك، وسوف أفحصه. المؤسف أنه لا توجد أدنى فرصة لاكتشاف أيِّ دليل منه، ومع ذلك فالفحص لن يضرَّ. عودَا في الساعة الثانية، عندئذٍ سأكون مستعدًّا لإخباركما بفشلي المتوقع.»

انحنى ثورندايك يودع الزائرين، ثم عاد إلى الطاولة ونظر بابتسامةٍ حائرة إلى المعطف والطرد الرسمي الكبير الذي يحوي الأغراضَ التي كانت في الجيوب.

ثم نظر إليَّ وسألني: «وماذا يقترح أخي الخبير المطلع؟»

أجبتُه: «أقترح فحص تذكرة الترام أولًا، ثم ... حسنًا، اقتراح ميلر ليس سيئًا؛ لنفحص سطح المعطف بالميكروسكوب.»

قال ثورندايك: «أرى أن نفحص المعطف بالميكروسكوب أولًا. إن تذكرة الترام قد تُولد لدينا نزعة مضللة. فقد يستقل أيُّ شخص الترام إلى أي مكان، في حين أن ما قد يعلق بمعطف شخص من أتربة ينتمي إلى مكان محدد.»

رددت عليه: «نعم، ولكن المعلومات التي قد تأتي منه ستكون بالغة الغموض.»

قال موافقًا وهو يأخذ المعطف والطرد ليحملهما إلى المختبر: «هذا صحيح، ولكن كما تعلم يا جيرفيز، وكما أشرتُ كثيرًا من قبل، فالبعض يستهين بقيمة الأتربة بوصفها دليلًا. إن المظاهر العادية التي تراها العين المجردة — والتي هي المظاهر العادية — مضللة. فإذا جمعتَ بعض الأتربة، مثلًا، من فوق سطح طاولة، ماذا سيكون لديك؟ مسحوق ناعم رمادي لا سمة مميزة له، مثل أيِّ أتربة تجدها على أي طاولة أخرى. ولكن تحت الميكروسكوب، يتحلل هذا المسحوق الرمادي إلى جزيئات يمكن تمييزها لمواد محددة، وهذه الجزيئات غالبًا ما يمكن الربط بينها وبين الكتل الأكبر التي انفصلت عنها على نحوٍ يقيني. وأنت تعرف كلَّ ذلك مثلما أعرفه.»

قلت له: «إنني أقدِّر تمامًا قيمة الأتربة كدليل في ظروف محددة، ولكن لا شك أن المعلومات التي يمكن التوصل إليها من الأتربة التي تغطي معطف رجل مجهول تكون عامة لدرجة لا تفيد في تقفِّي أثر صاحبه.»

قال ثورندايك وهو يضع المعطف على طاولة المختبر: «أخشى أنك محقٌّ، ولكنْ قريبًا سنرى ما إذا كان بولتون سيعطينا جهاز استخلاص الأتربة الذي اخترعه.»

كان الجهاز الصغير الذي أشار إليه زميلي من اختراع زميلنا مساعد المختبر العبقري، وكان يُشبه في فكرته فكرةَ عمل «المكانس الكهربائية» المستخدمة في تنظيف السجاد. ولكنه كان يتميز بخاصية فريدة: كان الجزء الذي يستقبل الأتربة مزودًا بمكان توضع فيه شريحة ميكروسكوب، بحيث يسقط على هذه الشريحة الهواء المحمَّل بالأتربة.

بعد أن ثبت مخترع «المستخلِص» في الطاولة في فخر، وأدخل شريحة مبللة في الجزء الذي يستقبل الأتربة، وضع ثورندايك فوهة الجهاز على ياقة المعطف في حين شغل بولتون المضخة. بعد ذلك سُحبت الشريحة ووضعت أخرى مكانها، ووُجهت الفوهة إلى الكُمِّ الأيمن بالقرب من الكتف، ثم شغل بولتون الجهاز. وكُررت العملية حتى صار لديهم ستُّ شرائح محملة بالأتربة من أجزاء مختلفة من المعطف، ثم جهَّز كلٌّ منا ميكروسكوبًا وشرعنا نفحص العينات.

من خلال فحص سريع للغاية، لاحظتُ أن هذه الأتربة كانت تحتوي على مواد لا نجدها في المعتاد، بأي حال من الأحوال، بكميات معتبرة. بالطبع وجدتُ بقايا من أنسجة الصوف والقطن والأنسجة الأخرى العادية التي تتركها الملابس أو قطع الأثاث، وكذلك جزيئات من القش والقشور والشعر، والعديد من الجزيئات المعدنية، بل المكونات عادية للأتربة التي تعلق بالملابس. ولكني وجدت معها عددًا من أجسام أخرى بكميات أكبر بكثير، ومعظم هذه الأجسام من أصل نباتي وتظهر بشكل واضح ومحدَّد وبتنوع كبير، كما وجدتُ الكثير من حبيبات النشا.

نظرتُ إلى ثورندايك فوجدته منهمكًا بالفعل في الكتابة بقلم رصاص على ورقة صغيرة، وكان يبدو أنه يكتب قائمة بالمواد التي رآها تحت الميكروسكوب. سارعت أحذو حذوه، وظللنا نعمل لبعض الوقت في صمت. وبعد فترة اتكأ زميلي إلى الخلف في كرسيِّه وقرأ قائمته.

قال لي: «هذه مجموعة مثيرة جدًّا للاهتمام يا جيرفيز. ماذا وجدتَ على شرائحك مما يخرج عن المألوف؟»

رددتُ عليه أُخبره بقائمتي: «لديَّ متحفٌ صغير هنا. بالطبع يوجد كلس مصدرُه الطريق المؤدي إلى رينسفورد. بالإضافة إلى ذلك، وجدتُ أنواعًا مختلفة من النشويات، معظمها قمح وأرز، وخاصة الأرز، ووجدت شظايا من لُب الكثير من البذور، والكثير من الخلايا الصلبة المتنوعة، وكتلًا صفراء تُشبه الكركم، وخلايا صمغية للفلفل الأسود، وخلية فلفل أحمر، وواحدًا أو اثنين من جسيمات الجرافيت.»

صاح ثورندايك متعجبًا: «جرافيت! لم أجد أي جرافيت، ولكني وجدت بقايا كاكاو، عبارة عن أوعية حلزونية وحبيبات نشوية، وبقايا من عشبة حشيشة الدينار، عبارة عن جزء من ورقة النبات والعديد من غدد اللوبولين. هلا أريتني الجرافيت؟»

أعطيتُه الشريحة ففحصها باهتمام شديد وقال: «نعم، هذا جرافيت بلا شك، ويوجد منه ستة جسيمات على الأقل. من الأفضل أن نفحص المعطف على نحو ممنهج. هل تفهم أهمية ذلك؟»

رددتُ عليه: «أفهم أن هذه الأتربة من الواضح أن مصدرها أحدُ المصانع، وقد يرشدنا ذلك إلى موقع ما، ولكني لا أعتقد أنه سيفيدنا بأكثر من ذلك.»

قال: «لا تنسَ أن لدينا دليلًا آخر.» وعندما رفعت حاجبيَّ مستفهمًا، أضاف قائلًا: «المفتاح الذي يحمل اسم ييل، إذا ضيقنا نطاق البحث عن الموقع بالقدر الكافي، يمكن لميلر أخذ جولة على الأبواب الأمامية.»

قلت في عدم تصديق: «لكن أيمكننا ذلك حقًّا؟ أشك في ذلك.»

أجاب ثورندايك: «يمكننا المحاولة. من الواضح أن بعض المواد موزعة على المعطف بأكمله من الداخل والخارج، في حين يوجد البعض الآخر كالجرافيت على أجزاء محددة دون غيرها. علينا تحديد هذه الأجزاء بدقة ثم التفكير في دلالة هذا التوزيع.» وسريعًا رسَمَ شكلًا تقريبيًّا للمعطف على ورقة، وميَّز كلَّ جزء فيه بحرف، ثم أخذ عددًا من الشرائح المزودة بملصق، وكتب حرفًا على كل شريحة، بحيث يمكن بسهولة تحديدُ المكان الذي أُخذت منه كل عينة من عينات الأتربة ثم فحصها على الشرائح.

عدنا إلى الميكروسكوب مجددًا، وأخذنا نضيف بندًا جديدًا إلى قائمتنا من الاكتشافات من حين إلى حين، وبعد نحو ساعة من البحث المضني، كانت كلُّ الشرائح قد فُحصت وقورنت القائمتان.

قال ثورندايك: «النتيجة النهائية للفحص هي كالتالي. يتناثر على المعطف بأكمله، من الداخل والخارج، وبتوزيع متساوٍ المواد التالية: الكثير من نشا الأرز، ونشا القمح بكمية أقل، وكميات أقل من نشا الزنجبيل والفلفل، وألياف لحاء القرفة، ولُب الكثير من البذور، وخلايا صلبة للفلفل الأحمر والقرفة الصينية والفلفل الأسود، وشظايا أخرى من مصدر مشابه، مثل الخلايا الصمغية وصبغة بُنِّيَّة ليس مصدرها الكركم. وبالإضافة إلى ذلك يوجد على الكتف اليمنى والكم آثار للكاكاو وحشيشة الدينار، وعلى الظهر تحت الكتفين يوجد بعض من بقايا الجرافيت. هذه هي البيانات؛ والآن ما هي الاستنتاجات؟ تذكَّر أن هذه ليست مجرد أتربة سطحية فحسب، ولكنها ركام شهور وتوغلت النسيج في نتيجة للفرك المتكرر بفرشاة الملابس؛ أتربة لا يمكن استخلاصها إلا بجهاز شفط.»

قلتُ: «من الواضح أن الجسيمات المنتشرة عبر أجزاء المعطف بالكامل تمثِّل مكونات الغبار العالق بهواء المكان الذي يُعلَّق فيه المعطف في المعتاد. يبدو أن المعطف التقط

الجرافيت من فوق مقعد ما، أما الكاكاو وحشيشة الدينار فمصدرهما بعض المصانع التي يمرُّ بها الرجل كثيرًا، وإن كنت لا أفهم لماذا وُجدت على الجانب الأيمن فقط.»

قال ثورندايك: «تلك مسألة تتعلق بالوقت، والمصادفة أنها تُسلِّط بعض الضوء على عادات صديقنا. فعندما يغادر منزله، يمرُّ بمصانع تكون على يمينه، وفي طريق عودته تكون المصانع نفسها على يساره، ولكنها تكون قد توقفت عن العمل حينئذٍ. ومع ذلك، فالمجموعة الأولى من المواد هي الأكثر أهمية؛ إذ تشير إلى موقع مسكنه، فمن الواضح أنه ليس حِرفيًّا أو موظفًا في مصنع. أما عن نشا الأرز ونشا القمح والمواد الأخرى التي تُصنَّف معًا تحت فئة «التوابل»، فهي تدل على وجود مضرب أرز أو مطحن دقيق أو مصنع توابل بالجوار. هلا ناولتني دليلَ مكتب البريد يا بولتون؟»

أخذ يُقلِّب في صفحات قسم «المهن» في الدليل وتابع: «أرى أن في لندن أربعةَ مضارب للأرز، أكبرها هو مضرب «كاربوت» في دوكهيد. لنبحث الآن عن مصانع التوابل.» وعاد يقلب في الصفحات من جديد وقرأ قائمة الأسماء، ثم قال: «توجد في لندن أربعة مطاحن توابل، أحدها موجود أيضًا في دوكهيد، وهو مطحن «توماس ويليامز آند كو»، أما المطاحن الأخرى فليست على مقربة من أي مضرب أرز. الأمر التالي يتعلق بمطحن الدقيق. دعونا نرَ. ها هي أسماء عدة مطاحن دقيق، ولكنَّ أيًّا منها ليس على مقربة من مضرب أرز أو من مطحنة توابل، باستثناء واحدة، وهي مطاحن دقيق «سانت سافيور» في دوكهيد.»

قلتُ: «الأمر يزداد إثارةً.»

رد ثورندايك: «لقد بات مثيرًا بالفعل. لاحظ أن في دوكهيد توجد مجموعة المصانع التي يمكن أن تخرج منها مكونات الأتربة التي وجدناها عالقة على هذا المعطف، ودليل البريد يشير إلى أن هذه المجموعة الخاصة من المصانع لا توجد في أي مكان آخر في لندن. ثم لدينا الجرافيت والكاكاو وحشيشة الدينار التي تميل إلى تأكيد الاستنتاجات الأخرى. كلُّ شيء يتعلق بصناعات المنطقة. وعربات الترام التي تمر بدوكهيد، حسب علمي، تمر أيضًا بالقرب من «مصانع بيرس داف آند كو» للرصاص الأسود الموجودة في طريق رويل، ومن المرجح أن يعلق بمقاعدها بعضٌ من جسيمات الرصاص الأسود عند هبوب الرياح في اتجاهات معينة. أرى كذلك أنه يوجد مصنع كاكاو، يدعى «باين»، في شارع جوت في هورسلي داون، يقع على يمين خط الترام المتجه غربًا، كما لاحظت وجود العديد من مخازن حشيشة الدينار على يمين شارع ساوثبارك، عند الاتجاه غربًا فيه. ولكن هذه مجرد فرضيات؛ أما المعلومات المهمة حقًّا فهي مضرب الأرز ومطاحن الدقيق ومطاحن التوابل، التي يبدو أنها جميعًا تقودنا إلى دوكهيد.»

تساءلتُ: «هل توجد أي منازل خاصة في دوكهيد؟»

رد ثورندايك: «علينا أن نبحث في قائمة أسماء الشوارع. إن المفتاح الذي يحمل اسم ييل يشير إلى شقة يسكنها شخص واحد، كما تدل عادات صديقنا المجهول المحتملة على فرضية مماثلة.» تفقَّد القائمة سريعًا ثم التفت إليَّ واضعًا إصبعه على الصفحة.

«إذا افترضنا أن الحقائق التي استنبطناها، تلك السلسلة الفريدة من المعلومات المتوافقة مع الملابسات المفروضة، ليست سوى سلسلة من المصادفات، فإليك مصادفة أخرى. يوجد في جنوب دوكهيد مجمع شقق للحرفيين ملاصق لمطاحن التوابل ومقابل لمضارب «كاربوت» للأرز، يعرف باسم بنايات هانوفر، وتنطبق عليه المواصفات بدقة. إذا عُلِّق معطف في إحدى غرف تلك الشقق وتُركت النوافذ مفتوحة (وهو المتوقع في هذا الوقت من العام)، فسيتعرض هذا المعطف إلى الهواء المحمل بأتربة مطابقة تمامًا للأتربة التي وجدناها على المعطف. وبالطبع تسري الظروف نفسها على المساكن الأخرى في هذا الجزء من دوكهيد، ولكن الكفة الأرجح تصب في صالح هذه البنايات. وهذا كل ما يمكننا افتراضه دون الجزم به. فقد يكون في استدلالنا عوارٌ جوهري. ولكن يبدو من ظاهر الأمور أن وجود الباب الذي يفتحه المفتاح الموجود لدينا في دوكهيد مرجح بنسبة ألف إلى واحد، وأغلب الظن أنه في بنايات هانوفر. علينا أن نترك مهمة التحقق من ذلك لميلر.»

سألته: «ألن يكون من المفيد أن نتفقد تذكرة الترام؟»

صاح قائلًا: «يا إلهي، لقد نسيت التذكرة. نعم، بكل تأكيد.» وفتح الطرد، وأفرغ محتوياته على الطاولة، وأمسك بالورقة المتهالكة، ثم أعطاني إياها بعد نظرة سريعة إليها. كانت التذكرة لرحلة من شارع تولي إلى دوكهيد.

قال ثورندايك: «مصادفة أخرى، وها هو ميلر يطرق الباب في مصادفة إضافية.»

كان المفتش هو الطارق، وبينما كنا ندخله الغرفة، أعلن هدير محرك سيارة قادمة من شارع تيودور عن وصول السيدة تشاتر. انتظرناها عند الباب المفتوح، وعندما دخلت أشارت بيديها باندفاع.

صاحت قائلة: «تفضل يا دكتور ثورندايك، هل لديك ما تُخبرنا به؟»

رد ثورندايك: «لديَّ اقتراح. أعتقد أنه لو أخذ المفتش هذا المفتاح إلى بنايات هانوفر، الواقعة في دوكهيد، في بيرموندزي، فقد يجد بابًا يدخل فيه المفتاح.»

صاح ميلر متعجبًا: «يا إلهي! أستميحك عذرًا يا سيدتي، ولكني ظننتُ أنني فحصتُ المعطف بالكامل. ما الذي أغفلتُه يا سيدي؟ هل وجدتَ خطابًا مخبَّأً فيه؟»

قال ثورندايك: «لم تغفل سوى الأتربة العالقة به فحسب يا ميلر.»

صاح المفتش محدقًا بعينيه على اتساعهما في زميلي: «الأتربة!» ثم ضحك ضحكة خفيفة وقال: «حسنًا، قلت سابقًا إنني لستُ بساحر، بل شرطي فحسب.» ثم أخذ المفتاح وسأل: «هل ستأتي لترى نتيجة البحث يا سيدي؟»

قالت السيدة تشاتر: «بالطبع سيأتي، والدكتور جيرفيز كذلك، للتعرف على الرجل. بعد أن وصلنا إلى المجرم علينا ألا ندعَ له وسيلة للهرب.»

ابتسم ثورندايك بجفاء وقال: «سنأتي إذا كانت هذه رغبتك يا سيدة تشاتر، ولكن يجب ألا تعتبري بحثنا حقيقةً يقينية. فربما ارتكبنا خطأً في الاستدلال، وفي الحقيقة ينتابني فضول لمعرفة ما إذا كان استنتاجنا صحيحًا. ولكن حتى إذا أوقعنا بالرجل، فلا أرى لديك أيَّ أدلة ضده. أقصى ما يمكنك إثباته أنه كان في المنزل وأنه غادره مسرعًا.»

نظرت السيدة تشاتر إلى زميلي للحظة في صمت يشي بالازدراء، ثم لملمت أطراف تنورتها، وخرجت من الغرفة. إذا كان هناك شيء تكرهه المرأة العادية أكثر من أي شيء آخر، فهو الرجل المفرط في العقلانية.

أسرعت بنا السيارة الكبيرة عبر جسر بلاكفرايرز حتى وصلنا إلى منطقة الإقليم التي اتجهنا منها إلى شارع تولي في طريقنا إلى بيرموندزي.

ما إن أصبحت دوكهيد في مرمى أبصارنا حتى ترجلتُ أنا وثورندايك والمفتش وأكملنا طريقنا سيرًا على الأقدام، تاركين عميلتنا متلثمة في السيارة التي تبعتنا على مسافة قريبة. توقف ثورندايك قبالة رصيف ميناء سانت سافيور، ونظر من فوق السور، ولفت نظري إلى المسحوق الشبيه بالجليد الذي استقر على كل بروز في الجانب الخلفي من المباني العالية وعلى متن الصنادل النهرية التي كانت تُحمَّل بالدقيق والأرز المطحون. وبعد أن عبر الطريق أشار إلى المصباح الخشبي فوق سطح مصنع التوابل، وكانت فتحاته مغطاةً بأتربة برتقالية مائلة للون الرمادي.

قال ثورندايك بلهجة وعظ: «هكذا تخدم التجارة أهداف العدالة.» ثم أضاف سريعًا بينما اختفى ميلر داخل الطابق تحت الأرضي للبنايات: «أو هكذا نأمل على الأقل.»

التقينا بالمفتش أثناء عودته من مهمته ونحن ندخل المبنى.

قال لنا: «لا جدوى من الذهاب هناك. سنجرب الطابق التالي.»

كان هذا هو الطابق الأرضي، وربما يُعتبر الطابق الأول. على أي حال، لم يُفدنا بشيء مهم، وبعد نظرة سريعة إلى الأبواب المؤدية إلى بسطة الدرج، صعد الدرج الحجري

متحمسًا. لم يُفد الطابق التالي بشيء هو الآخر، إذ لم يُفشِ بحثنا المتحمس عن شيء سوى ملاحظتنا لثقوب المفاتيح الواسعة المتصلة بالنوع الشائع من المزاليج الليلية.

خرج عامل حرفي أغبر من إحدى الشقق وسألهم: «عمن تبحثون؟»

رد ميلر بسرعة بديهة لافتة: «ماجز.»

رد العامل: «لا أعرفه، أعتقد أنه في أحد الطوابق العليا.»

صعدنا إلى الطوابق العليا، فلم نجد إلا نفس ثقوب المفاتيح البسيطة ذات الشكل الرتيب المقبض تطلُّ علينا من الأبواب. بدأتُ في التململ، وعندما صعدنا إلى الطابق الرابع دون أن نجد نتيجة أفضل، زاد قلقي. ربما تكون الألغاز الزائفة مثارَ فضول كبير، لكنها لا تجلب أيَّ مجدٍ لمكتشفيها.

توقَّف ميلر يمسح العرق عن جبينه وقال: «أعتقد أنك لم ترتكب خطأً ما يا سيدي، صحيح؟»

رد ثورندايك في رباطة جأش: «ثمة احتمال كبير أن أكون قد أخطأت. لقد اقترحتُ هذا البحث كإجراء مبدئي لا يحمل أيَّ ضمانات، كما تعرف.»

زمجر المفتش. فقد كان معتادًا — وكذلك أنا — على التعامل مع «الاقتراحات المبدئية» لثورندايك معاملة الحقائق المؤكدة لدى غيره.

وبينما كنا نصعد إلى الطابق الأخير، قال المفتش متبرمًا: «ستُحبَط السيدة تشاتر بشدة إذا لم نجده في نهاية المطاف. فقد استبقت الأمور وفكَّرت فيما تريد أن يحدث عندما نُمسك به.» توقف في أعلى الدرج ووقف للحظات قليلة ينظر حول بسطة الدرج. وفجأة التفت متلهفًا، ووضع يده على ذراع ثورندايك، وأشار إلى باب في الركن الأقصى.

ثم همس متحمسًا: «قفل ييل!»

تبعناه صامتين وهو يختلس الخُطَى على أطراف أصابعه عبر بسطة الدرج، وشاهدناه يقف للحظة وهو يحمل المفتاح في يده وينظر إلى القفل النحاسي في تشفٍّ. تابعناه وهو يُدخل مقدمة الطرف المحزز للمفتاح برفق في الثقب المعوج للقفل، فدخل المفتاح في قلب القفل دون صوت. نظر المفتش وعلى وجهه ابتسامة انتصار، ثم سحب المفتاح بدون صوت وتراجع نحونا.

ثم همس: «أوقعتم به يا سيدي، ولكني لا أعتقد أنه في المنزل. لا يمكن أن يكون قد عاد بعد.»

سأل ثورندايك: «ولِمَ لا؟»

أشار ميلر بيده نحو الباب قائلًا: «لا يوجد أيُّ شيء غير طبيعي. فلا توجد أيُّ علامات على الطلاء. إن المفتاح الآن ليس بحوزته، ولا يمكنه فتحُ قفل من نوع ييل عنوةً. كان سيضطر لكسر الباب، وهو ما لم يحدث.»

خطا ثورندايك نحو الباب ودفع غطاء فتحة إدخال الخطابات، ونظر منها إلى داخل الشقة.

قال: «لا يوجد صندوقُ خطابات يا عزيزي ميلر، سأتولَّى فتح هذا الباب في خمس دقائق بقطعة من السلك وخيط راتينجي.»

هز ميلر رأسه وابتسم مجددًا وقال: «يُسعدني أنك لم تتجه إلى الإجرام يا سيدي، وإلا لأتعبتنا كثيرًا. هل ننادي السيدة؟»

خرجتُ إلى شرفة الطابق ونظرت إلى السيارة المنتظرة بالأسفل. كانت السيدة تشاتر تحدق باهتمام إلى البناية، وأخذ الحشد الصغير المجتمع حول السيارة ينظرون تارة إلى السيدة تشاتر وتارة إلى حيث كانت تنظر. مسحتُ وجهي بمنديلي — وهي الإشارة المتفق عليها — فقفزت من السيارة من فورها وما لبثت أن صارت أمامنا على بسطة الدرج، وقد اصطبغ وجهها بلون قرمزي وأخذت تلهث من فرط الإسراع، في حين تطاير شررُ العداء من عينيها.

قال ميلر: «وجدنا شقته يا سيدتي، وسندخلها.» ولما لاحظ ببعض القلق الشراسةَ المرتسمة على ملامحها أضاف قائلًا: «أتمنى ألا تكوني عازمة على أي عنف.»

ردت السيدة تشاتر: «بالطبع لا. في الولايات المتحدة لا تضطر السيدات للانتقام لإهانة لحقت بهن بأنفسهن. لو كنتم أنتم رجالًا أمريكيين لشنقتم المجرم على قائم سريره.»

رد المفتش بحزم وحدة: «لسنا رجالًا أمريكيين يا سيدتي. نحن رجال إنجليزيون نحترم القانون، ولا تنسي أننا جميعًا رجال قانون. هذان السيدان يعملان بالمحاماة وأنا ضابط شرطة.»

بعد هذا التحذير المبدئي، أدخَلَ المفتاح في ثقب الباب مجددًا، ثم أداره ودفع الباب فاتحًا إياه وتبعناه جميعًا إلى غرفة الجلوس.

قال ميلر وهو يُغلق الباب برفق: «قلت لك يا سيدي؛ لم يَعُد إلى المنزل بعد.»

كان محقًّا على ما يبدو. لم يكن في الشقة أحدٌ، على أي حال، ما دفعنا للبدء في تفتيشها بدون عائق. كان المشهد مزريًا، وبينما كنا نتنقل من غرفة قذرة إلى أخرى،

انتابني شعورٌ بالشفقة على البائس الجائع الذي اقتحمنا مسكنه، حتى خفَّت في نظري بشاعةُ جريمته. كان الفقر المدقع الطاحن يحدق في وجوهنا من كل ركن في الشقة. رأيناه صارخًا في غرفة الجلوس البائسة التي خلت أرضيتُها من السجاد ولم يكن فيها إلا كرسي واحد وطاولة متهالكة، وفي الجدران غير المطلية والنوافذ المجردة من الستائر. رأينا الجوع على الطاولة في قطعة من الجبن الهولندي كانت مجردَ قشرة كُحت منها الجبن حتى أصبحت رفيعةً كالورقة، ورأيناه رابضًا في خزانة الأواني الفارغة وطبق الخبز الخالي، وعلبة الشاي التي خلت إلا من بقايا تراب استقر في قاعها، وبرطمان المربى الذي مُسح تمامًا بكسرة خبز ولم يتبقَّ فيه إلا الفتات. لم يكن في الشقة كلِّها طعامٌ يكفي لوجبة واحدة لفأر صحيح البدن.

حكَتْ غرفةُ النوم حكاية البؤس نفسها بتفاصيل مغايرة مثيرة للفضول. كان أثاث الغرفة المزري يتكون من سرير مدولب بائس تعلوه مرتبةٌ من القش وملاءة من الخيش الرخيص، وصندوق برتقالي اللون يقف على الطرف يُستخدم كمنضدة زينة، وصندوق آخر يعلوه حوض غسيل من الصفيح. لكن البذلة المتدلية من مسمارين في الحائط كانت ذات تفصيلة جيدة ومسايرة للموضة رغم اهترائها، كما كانت على الأرض بذلة أخرى مطوية بإتقان ومغطاة بورق جريدة، وكان أغرب ما وجدناه بين كل ذلك علبة سجائر فضية قابعة على منضدة الزينة.

صحتُ متعجبًا: «لماذا يترك هذا الرجل نفسه للجوع يفتك به ولديه هذه العلبة الفضية التي يمكنه رهنُها؟»

قال ميلر: «ما كان ليُقدمَ على ذلك. فالمرء لا يرهن أدوات مهنته.»

أخذت السيدة تشاتر تُحدق حولها بالذهول الصامت الذي ينتاب سيدة اعتادت حياة السعة والثراء، ترى نفسها لأول مرة وجهًا لوجه أمام مشهد حيٍّ للفقر المدقع، ثم التفتت فجأة إلى المفتش وقالت: «لا يمكن أن يكون هذا هو الشخص المقصود! لا بد أنكم ارتكبتم خطأً ما. محال أن يتمكن هذا الفقير البائس من دخول منزل ويلوديل.»

رفع ثورندايك الجريدة، فوجد تحتها بذلة سهرة كاملة، وقد كويت جميع مكوناتها، من القميص والياقة ورابطة العنق، وطويت بعناية. فض ثورندايك طيات القميص وأشار إلى مقدمته المغضنة على نحو لافت. ثم فجأة قربه إلى عينيه، ثم سحب شعرةً واحدة من وراء زر من الألماس المقلد، وكانت شعرة امرأة.

قال ثورندايك وهو يمسك الشعرة بين سبابته وإبهامه: «هذا مهم نوعًا ما.» وبدت السيدة تشاتر مقتنعة بذلك أيضًا؛ إذ اختفت من وجهها فجأة تعابير الشفقة والتأثر، وتطاير شرر الانتقام مجددًا من عينيها.

صاحت في شراسة: «أتمنى أن يأتي. لن يكون السجن قاسيًا على من يعيش عيشته، ولكني أريد أن أراه في قفص الاتهام على أي حال.»

وافقها المحقق: «صحيح، لن يُضيرَه كثيرًا أن يعيش في سجن بورتلاند بدلًا من مسكنه هذا. اسمعوا!»

كان مفتاح يُدخَل في الباب الخارجي، فوقفنا جميعًا ساكنين كالتماثيل، ودخل رجل وأغلق الباب وراءه. مر بباب غرفة النوم بدون أن يرانا، وكان يسير بخُطًى متثاقلة تشي بالتعب والإحباط. وعلى الفور سمعناه يتوجه إلى المطبخ ويصب ماءً في وعاء ما، ثم عاد إلى غرفة الجلوس.

قال ميلر: «تعالوا!» وتقدم نحو الباب في صمت. تبعناه عن كثب، وبينما كان يفتح الباب، نظرنا إلى الداخل من فوق كتفيه.

كان الرجل جالسًا إلى الطاولة، وكان عليها قطعة من الخبز المنزلي على ورقة لفَّها بها، وكأس من الماء. عندما انفتح الباب همَّ بالوقوف نصف وقفة، وأخذ يُحدق في ميلر كمن تجمد من الخوف، وقد ارتسم على وجهه المكفهر تعبيرٌ نمَّ عن رعب شديد.

في هذه اللحظة شعرتُ بيدٍ تُمسك بذراعي، وتجاوزتني السيدة تشاتر مسرعةً إلى الغرفة. لكنها توقفت فجأة عند عتبة الباب، وتسلل إلى وجه الرجل المرتعب تغيُّرٌ غريب وملحوظ دفعني لتحويل نظري عنه إلى عميلتنا بدون تفكير. كان وجهها قد شحب تمامًا في لحظة وارتسم عليه تعبيرٌ متجمد من الهلع وهي لا تكاد تصدق عينَيها.

عمَّ صمت درامي، قطعه صوت المحقق الحازم.

«أنا ضابط شرطة، وسألقي القبض عليك بتهمة ...»

وعندئذٍ قطع كلامَه نوبةٌ من الضحك الهستيري من السيدة تشاتر، فنظر إليها مذهولًا. صاحت بصوت مرتجف: «توقف! توقف! أعتقد أننا ارتكبنا خطأً سخيفًا، هذا ليس الرجل المقصود. هذا السيد هو الكابتن رولاند، صديق قديم لي.»

قال ميلر: «يؤسفني ذلك؛ لأني سأطلب منك مواجهته أمام القضاء.»

ردت السيدة تشاتر: «اطلب ما تريد، لكني أقول لك إنه ليس الرجل المقصود.»

فرك المفتش أنفه ونظر إلى طريدته بتحفز، وسأل بحدة: «هل أفهم يا سيدتي أنك ترفضين مقاضاته؟»

قالت متعجبةً: «مقاضاته؟! أأقاضي أصدقائي على جرائم أعلم أنهم لم يرتكبوها؟ بالطبع أرفض ذلك.»

نظر المفتش إلى ثورندايك، ولكن ملامح زميلي كانت متحجرةً تمامًا وخلت من أي تعبير كوجه الساعة الهولندية.

قال ميلر وهو ينظر إلى ساعته في حدة: «حسنًا. إذن فقد بذلنا كل هذا المجهود بلا طائل. طاب مساؤك يا سيدتي.»

قالت السيدة تشاتر: «أعتذر عن إزعاجكم.»

رد عليها المفتش باقتضاب: «يؤسفني ذلك.» ثم ألقى بالمفتاح على الطاولة، وخرج من الغرفة.

بعد أن أغلق الباب الخارجي بعنف، جلس الرجل متحيرًا، ثم فجأة مدَّ ذراعيه على الطاولة، ووضع رأسه عليهما، وانفجر في نوبة بكاء مرير.

كان الموقف محرجًا للغاية. هممتُ أنا وثورندايك بالمغادرة في الوقت نفسه، ولكن السيدة تشاتر أشارت إلينا بالبقاء. توجهتْ نحو الرجل، ولمست ذراعه بحنوٍّ.

سألته بنبرة تأنيب رقيق: «لماذا فعلتها؟»

رفع الرجل رأسه وانتصب في مقعده ولوح بإحدى ذراعيه مشيرًا إلى الغرفة البائسة وخزانة الأواني الفارغة.

ثم قال: «كانت لحظةَ ضعف. كنتُ مفلسًا، وتلألأت في عيني تلك الألماسات اللعينة؛ وجدتها غنيمة سهلة. كانت لوثة جنون على ما أعتقد.»

سألتْه: «ولكن لِمَ لم تأخذها؟ لماذا؟»

رد: «لا أعرف. لقد مرت لحظة الجنون، وعندما رأيتك راقدة هناك ... يا إلهي! لِمَ لا تسلمينني للشرطة؟» وضع رأسه على الطاولة وعاد للبكاء من جديد.

مالت السيدة تشاتر عليه وقد ترقرقت الدموع في عينيها الرماديتين الجميلتين وقالت: «لكن أخبرني، لِمَ لمْ تأخذ الألماسات؟ كان بمقدورك ذلك لو أردت، حسبما أعتقد.»

رد منفعلًا: «وما نفعي بها؟ ما أهمية أي شيء لي؟ لقد ظننتك توفيت.»

قالت بابتسامة دامعة: «لكني لم أمت، كما ترى. أنا في أفضل حال يمكن أن تتوقعه امرأة في عمري. وأريد عنوانك لأكتب إليك بعض النصائح الجيدة.»

انتصب الرجل في مقعده وأخرج من جيبه علبة بطاقات مهترئة، وأخذ منها عددًا من البطاقات وفردها على الطاولة كورق اللعب، وحينئذٍ لمحتُ التماعة في عين ثورندايك.

قال الرجل: «اسمي أوجستس بايلي.» واختار البطاقة المناسبة، وكتب عنوانه مسرعًا عليها بقلم رصاص صغير، ثم عاد إلى وضعيته السابقة.

قالت السيدة تشاتر: «شكرًا لك.» ومكثت عند الطاولة للحظة ثم تابعت: «سنغادر الآن، إلى اللقاء يا سيد بايلي. سأكتب إليك في الغد، وعليك أن تستمع لنصيحة صديقتك القديمة بجدية.»

فتحتُ لها الباب وأمسكتُه حتى مرت، ثم التفتُّ إلى الخلف قبل أن أتبعها. لم يزل بايلي جالسًا يبكي في صمت ورأسه مستند على ذراعيه، وكان على زاوية الطاولة كومة صغيرة من القطع الذهبية.

قالت السيدة تشاتر وثورندايك يأخذ بيدها لدخول السيارة: «أتوقع يا دكتور أنك اعتبرتني حمقاء عاطفية.»

رمقها ثورندايك بنظرة هادئة لم يعتدها وجهه الحاد وأجاب في هدوء: «طوبى للرحماء.»

السجين القديم

الجزء الأول

تغيير الثوابت

من بين مُتَع الحياة الصغيرة والمادية البحتة، أعشق على وجه الخصوص ذلك الإحساس بالراحة الجسدية الذي يختبره المرءُ عند الهروب من ظلام ليلة شتوية مطيرة بالخارج للاحتماء بجدران مكان تنتشر البهجةُ في أرجائه بمصباح يُرسل نوره المبهج الخفيف، ومدفأة متأججة نيرانُها تبعث فيه الدفء. وهكذا تلذذتُ بهذا الإحساس الفريد في تلك الليلة الرتيبة من شهر نوفمبر، عندما دخلتُ منزلنا في تيمبل ووجدتُ صديقي يدخن غليونه مسترخيًا بجانب نيران المدفأة المتأججة، ومنتعلًا خفَّين مريحين، وأمامه كرسيٌّ ذو ذراعين بدا مجهزًا لي.

خلعتُ معطفي الذي بلله المطر، ونظرتُ إلى زميلي نظرة تساؤل وفضول؛ إذ كان يُمسك في يده خطابًا مفتوحًا، وبدت عليه ملامحُ التأمل والتفكير، وهو ما يدل عادةً على قضية جديدة.

رد على نظرتي الاستفهامية قائلًا: «كنتُ فقط أفكر ما إذا كنتُ بصدد التستر على جريمة. اقرأ هذا وأعطني رأيك.»

أعطاني الخطاب، وقرأته بصوت عالٍ:

سيدي العزيز

أنا في خطر داهم وكرب شديد. فقد صدرتْ بحقي مذكرةُ اعتقال في جريمة أنا بريء منها تمامًا. هل لي أن ألتقيَ بك؟ وهل ستتركني أغادر في أمان إن قبلتَ؟ سينتظر حامل الخطاب ردَّك.

قال ثورندايك: «أجبتُ بالقبول بالطبع، فلم يسعني شيء آخر. ولكن إذا تركته يغادر كما وعدت، فسأكون شبهَ متواطئ في هروبه.»

أجبتُه: «نعم، تلك مجازفة. متى سيأتي؟»

«كان من المفترض أن يكون هنا منذ خمس دقائق، وأعتقد أنه … ها قد وصل.»

كان هناك صوت خُطًى مسترقة على بسطة الدرج المقابلة لباب المنزل تَبِعها طرقٌ خفيف على الباب الخارجي.

نهض ثورندايك وفتح الباب الداخلي، ثم فتح الباب الخشبي الضخم.

سأل الطارق بصوت مرتعد وأنفاس متقطعة: «دكتور ثورندايك؟»

رد ثورندايك: «نعم، تفضل بالدخول. أرسلتَ رسولًا يحمل خطابًا لي؟»

رد الطارق: «نعم يا سيدي.» ثم دخل، ولكن لما رآني توقف فجأة.

قال ثورندايك: «هذا زميلي الدكتور جيرفيز، لا داعي لأن تـ…»

قاطعه الزائر بنبرة ارتياح: «نعم، أتذكره. لقد رأيتكما من قبل، ورأيتماني أيضًا.» ثم أضاف بابتسامة مريرة: «لكني لا أعتقد أنكما تتذكراني.»

سأل ثورندايك مبتسمًا أيضًا: «فرانك بيلفيلد؟»

فغر الزائر فاه من وقع المفاجأة وحدق في زميلي في ارتباك مفاجئ.

تابع ثورندايك: «وإذا سمحت لي، بالنظر إلى وضعك الخطير، أنت تضع نفسك في أخطار أنت في غنًى عنها. فهذا الشعر المستعار واللحية الزائفة والنظارة التي من الواضح أنها تعوق رؤيتك، كل ذلك كفيل بجعل قوة الشرطة بأكملها تُطاردك. ليس من الحكمة أن يتنكر رجل تطارده الشرطة وكأنه ممثل خرج لتوه من أحد عروض الأوبرا الكوميدية.»

جلس السيد بيلفيلد وهو يزفر، وخلع نظارته، وأخذ ينقِّل نظره بيننا في ارتباك.

قال ثورندايك: «والآن أخبرنا بمشكلتك. تقول إنك بريء؟»

رد بيلفيلد: «أقسم لك على ذلك يا دكتور.» ثم أضاف بجدية شديدة: «وتأكد يا سيدي أني لو لم أكن بريئًا لما جئت إلى هنا. فأنت من أدنتني في المرة السابقة عندما كنتُ أظن أنني في مأمن؛ لذا فإن معرفتي بأساليبك أكبر من أن أحاول خداعك.»

رد ثورندايك: «إذا كنت بريئًا، فسأفعل كلَّ ما بوسعي لمساعدتك؛ أما لو لم تكن كذلك، فسيكون من الحكمة أن تبتعد عني.»

رد بيلفيلد: «أعرف ذلك جيدًا، وكل ما أخشاه فقط ألا تصدق ما سأخبرك به.»

رد ثورندايك: «سأصغي لكلامك بذهن متفتح على أي حال.»

زفر بيلفيلد وقال: «إذا كنت ستفعل ذلك حقًّا، فسيكون لديَّ فرصةٌ للنجاة وإثبات براءتي رغم أنف الجميع. أنت تعلم يا سيدي أن لي سوابقَ في الإجرام، ولكني دفعت ثمن

جرائمي وثُبْتُ إلى جادة الصواب. كانت العملية التي أوقعْتَ بي فيها آخر جريمة قمتُ بها، وأقسم لك على ذلك؛ لذا أريد منك المساعدة. تغيرتُ على يد امرأة؛ أفضل وأصدق امرأة على الأرض. قالت إنها توافق على الزواج مني عند خروجي من السجن إذا تعهدتُ بالاستقامة وعيش حياة شريفة. وأوفتْ بعهدها كما أوفيت أنا بعهدي. عثرتْ لي على وظيفة موظف في مخزن والتزمتُ بعملي منذ ذلك الحين، فدرَّ عليَّ أجرًا كريمًا وجعل مني رجلًا شريفًا مجتهدًا. وظننت أن كل شيء يسير على ما يُرام وأن حياتي قد استقرت للأبد، حتى طلع صباح يوم ما تداعى فيه كلُّ شيء من حولي فجأة كقلعة من رمال.»

سأل ثورندايك: «وماذا حدث في هذا الصباح؟»

رد بيلفيلد: «كنت في طريقي إلى العمل، عندما مررت بمخفر الشرطة فلاحظت لافتة مكتوبًا عليها «مطلوب للعدالة» وصورة شخص. توقفت للحظة للنظر إليها، ويمكنك أن تتخيل ما شعرتُ به عندما وجدتُها صورتي أنا — كانت قد التقطت لي في هولوواي — وقرأتُ على اللافتة اسمي وأوصافي. لم أتوقف لما يكفي لقراءة اللافتة بالكامل، بل هرعتُ عائدًا إلى المنزل لإخبار زوجتي، فهرعتْ بدورها إلى المخفر وقرأت اللافتة جيدًا. يا إلهي! هل تتخيل يا سيدي لماذا أنا مطلوب للعدالة؟» وتوقف للحظة، وأجاب على سؤاله بأنفاس متقطعة: «جريمة قتل كامبرويل!»

أطلق ثورندايك صافرة بصوت خفيض.

تابع بيلفيلد: «زوجتي تعلم أني لم أفعلها؛ لأنني كنت في المنزل طوال المساء إلى الليل في ذلك اليوم، ولكن هل يؤخذ بشهادة زوجة باعتبارها حجة غياب لزوجها؟»

رد ثورندايك: «لا أعتقد، مع الأسف. أليس لديك شاهد آخر؟»

قال بيلفيلد: «لا أحد. لقد كنا بمفردنا طوال تلك الأمسية.»

قال ثورندايك: «ومع ذلك، إذا كنت بريئًا — كما أعتقد — فلا بد أن كل الأدلة التي تدينك ظرفية، وحينها قد تكون حجة غيابك كافية تمامًا. هل لديك فكرة عن أسباب الاشتباه بك؟»

رد بيلفيلد: «ليس لديَّ أيُّ فكرة. تقول الصحف إن لدى الشرطة دليلًا دامغًا، ولكنها لم تذكر ما هو ذلك الدليل. أغلب الظن أن أحدهم أدلى بمعلومات مغلوطة بخصو...»

وبينما كان يُدلي بتفسيره للأمر جاء طرقٌ حادٌّ على الباب الخارجي ليقطع حديثنا، فهبَّ زائرُنا واقفًا يرتعد من الذعر، وتفصَّد وجهه الشاحب المكفهر عرقًا.

قال ثورندايك: «يُستحسن أن تدخل المكتب يا بيلفيلد ريثما نرى من الطارق. ستجد المفتاح في الداخل.»

لم يعارض الهارب ولم يتردد، ولكنه أسرع إلى الغرفة الفارغة، وبينما كان يغلق الباب سمعنا صوت المفتاح يدور في ثقبه.

فتح ثورندايك الباب الخارجي، ثم نظر إليَّ نظرة ذات مغزًى من فوق كتفه، ففهمتُ قصده عندما دخل الوافد الجديد الغرفة؛ إذ كان القادم هو المفتش ميلر من سكوتلاند يارد.

قال المفتش بطريقته الحيوية المبهجة: «جئتُ فقط لأطلب منك أن تُسديَ إليَّ معروفًا. طاب مساؤك يا دكتور جيرفيز. سمعتُ أنك تدرس للانضمام إلى نقابة المحامين. ستكون مستشارًا عالمًا عما قريب، أليس كذلك؟ أو خبيرًا في الطب الجنائي. سترتدي عباءة الدكتور ثورندايك، أليس كذلك؟»

أجبتُه: «أتمنى أن تظل عباءة الدكتور ثورندايك على هيئته المهيبة لسنوات طوال، ولكنه سيساعدني بكرمه في تجنُّب أي مشاق أو أزمات. لكن، ما هذا الذي تحمله؟» كان المفتش خلال هذا الحوار، يفتح طردًا مغلفًا بورقٍ بُنِّيٍّ، أخرج منه الآن قميصًا من الكتان كان لونه أبيض يومًا ما، أما الآن فقد أصبح رماديًّا باهتًا.

قال ميلر وهو يُشير إلى بقعة لونها أحمر يميل إلى البُنِّيِّ على أحد كمَّي القميص: «أريد منك أن تُحدِّدَ ماهية هذه البقعة. انظر إليها، يا سيدي، وأخبرني ما إذا كانت بقعة دم، وإذا كانت كذلك، فهل هو دم بشري؟»

قال ثورندايك مبتسمًا: «تلك مجاملة منك حقًّا يا ميلر؛ لكني لستُ كحكيمة بغداد التي يمكنها أن تُخبرَك بعدد درجات السلم التي سقط عليها المريض بمجرد النظر إلى لسانه. لا بد أن أفحص القميص بعناية بالغة. متى تريد معرفة النتيجة؟»

رد المفتش: «أود أن أعرفها الليلة.»

سأل ثورندايك: «هل يمكنني قصُّ قطعة منه لفحصها تحت الميكروسكوب؟»

رد المفتش: «يُستحسن ألا تفعل.»

قال ثورندايك: «حسنًا، ستكون المعلومات جاهزة في غضون ساعة تقريبًا.»

قال المفتش: «هذا كرمٌ جمٌّ منك يا دكتور.» واعتمر قبعته استعدادًا للمغادرة، فإذا بثورندايك يقول فجأة:

«بالمناسبة، ثمة أمرٌ كنت أودُّ الحديث معك بشأنه. إنه يتعلق بجريمة قتل كامبرويل. أعلم أن لديكم دليلًا على هوية القاتل، صحيح؟»

قال المفتش في تهكم: «دليل؟! لقد حددنا هوية القاتل بالفعل، ليس علينا الآن إلا الإمساك به، ولكنه لم يزل يراوغنا.»

سأل ثورندايك: «ومن هو؟»

نظر المفتش إلى ثورندايك بارتياب للحظات ثم قال في تردد ملحوظ: «أعتقد لا ضيرَ في أن أُخبرَك، خاصة أنك ربما تعرفه بالفعل.» وابتسم ابتسامة خبيثة ثم تابع: «إنه مجرم قديم يُدعى بيلفيلد.»

سأل ثورندايك: «وما أدلتكم ضده؟»

مرة أخرى رمقه المفتش بنظرة ارتياب وتردد مجددًا.

ثم قال: «القضية واضحة ك… كزجاجة الاسكوتش الباردة.» وتجسيدًا لهذا التشبيه، هنا أحضر ثورندايك زجاجة من الويسكي ومسكبة وكأسًا، ودفع غطاء الزجاجة في اتجاهه. تابع المفتش قائلًا: «لقد وضع الأحمق المغفل يده المتعرقة على النافذة، فوجدنا بصمةً واضحةً تمامًا بالأصابع الخمس، بالطبع قصصنا قطعة اللوح الزجاجي التي تحمل آثار الأصابع وأخذناها لقسم البصمات؛ وهناك راحوا يقلبون في ملفاتهم وأخرجوا سجل السيد بيلفيلد، يحوي بصماته وصوره.»

سأل ثورندايك: «وجاءت كلُّ البصمات الموجودة على لوح النافذة الزجاجي مطابقة لبصماته في ملفه في السجن، أليس كذلك؟»

«مطابقة تمامًا.»

فكر ثورندايك لوهلة، في حين راقبه المفتش بمكر من فوق حافة كأسه.

وبعد قليل قال المفتش: «أعتقد أنك مُكلَّف بالدفاع عن بيلفيلد.»

قال ثورندايك: «بل بالنظر في القضية بوجه عام.»

تابع المفتش: «وأتوقع أنك تعرف أين يختبئ هذا الشحاذ البائس.»

قال ثورندايك: «لم يصلني عنوان بيلفيلد بعد. سأتحرى عن القضية فحسب، وما من سبب يجعل أهدافنا متعارضنا يا ميلر. فكلانا يعمل على القضية؛ أنت ترغب في الحصول على إدانة وتريد إدانة المجرم الحقيقي.»

قال المفتش: «صحيح، وبيلفيلد هو المجرم الحقيقي، ولكن ماذا تريد منا يا دكتور؟»

قال ثورندايك: «أودُّ رؤية قطعة الزجاج التي وُجدت عليها البصمات، وكذلك الملف الموجود في السجن، وأخذ صورة فوتوغرافية لكليهما. كما أريد فحص الغرفة التي وقعت فيها الجريمة، أظنكم قد أغلقتموها، أليس كذلك؟»

رد المفتش: «نعم، لدينا المفاتيح. ليس من الطبيعي أن نُطلعَك على كل شيء، ومع ذلك، فقد كنتَ دائمًا أمينًا في تعاملك معنا؛ لذا قد نسمح بذلك كاستثناء. نعم، سأفعل.

سآتي بعد ساعة للاطلاع على نتيجة فحصك، وسأُحضر معي قطعة الزجاج وملف السجن. إنهما في عهدتي ولا يمكننا تبديدهما كما تعلم. سأنصرف الآن، شكرًا لك. لا تصبَّ لي المزيد من الويسكي.»

اعتمر المفتش قبعته وانصرف بخُطًى رشيقة، جسَّدتْ ما هو عليه من يقظة ذهنية وفورة جسمانية.

ولم يكد الباب ينغلق وراءه، حتى تحول هدوء ثورندايك الجامد في غمضة عين إلى فورة حماس وطاقة. فهرع إلى الجرس الكهربائي الذي انطلق في المختبرات الموجودة في الطابق الأعلى، وأعطاني تعليماته.

قال لي ثورندايك: «ألقِ نظرة على بقعة الدم تلك يا جيرفيز، ريثما أُنهي حديثي مع بيلفيلد. لا تُبللها، بل افركها في قطرة من محلول ملحي عادي دافئ.»

أسرعتُ بتجهيز الميكروسكوب على الطاولة بالإضافة إلى المعدات والكواشف الكيميائية اللازمة، وفي حين انهمكتُ أنا في ذلك، دار مفتاح في ثقب الباب الأمامي ودخل مساعدنا العزيز بولتون الغرفة بطريقته الصامتة الخفية المعتادة.

قال ثورندايك: «أعطني جهاز البصمات يا بولتون من فضلك، وجهِّز كاميرا النسخ قبل الساعة التاسعة. فأنا أنتظر قدوم السيد ميلر ومعه بعض الوثائق.»

وبعد أن انصرف مساعده المختبري، طرق ثورندايك باب المكتب.

قال ثورندايك: «الساحة خالية يا بيلفيلد، يمكنك الخروج.»

دار المفتاح في ثقبه، وخرج السجين في هيئة بائسة كئيبة بباروكته ولحيته المضحكتين.

قال ثورندايك: «سآخذ بصماتك لمضاهاتها بالبصمات التي وجدتها الشرطة على النافذة.»

صاح بيلفيلد في نبرة هلع: «بصمات! أيقولون إنهم وجدوا بصماتي في مسرح الجريمة يا سيدي؟»

رد ثورندايك وهو يُنعم النظر في الرجل: «نعم. لقد قارنوا البصمات التي عُثر عليها في مسرح الجريمة ببصماتك التي أُخذت عندما كنت في هولوواي، ويقولون إن البصمات متطابقة.»

تمتم بيلفيلد وهو يرتمي على كرسيٍّ شاحبًا مرتعدًا: «يا إلهي! لا بد أنهم ارتكبوا خطأً فادحًا. ولكن هل من مجال للخطأ في البصمات؟»

قال ثورندايك: «اسمع يا بيلفيلد. هل كنت في ذلك المنزل في تلك الليلة أم لا؟ لن يُفيدَك الكذب عليَّ.»

رد بيلفيلد: «لم أكن هناك يا سيدي؛ أقسم بالرب إنني لم أكن هناك.»

فقال ثورندايك: «إذن لا يمكن أن تكون البصمات بصماتك، هذا واضح.» وفي تلك اللحظة توجه نحو الباب لاستيقاف بولتون، وأخذ منه صندوقًا كبيرًا كان قد أحضره ووضعه على الطاولة.

تابع ثورندايك مخاطبًا بيلفيلد: «أخبرني بكل ما تعرف عن هذه القضية.» فيما أخذ يفرغ محتويات الصندوق على الطاولة.

رد بيلفيلد: «لا أعرف شيئًا عنها على الإطلاق، فيما عدا ...»

سأله ثورندايك: «فيما عدا ماذا؟» ونظر إليه بحدة وهو يضع نقطة من أنبوب حبر البصمات على لوح نحاسي ناعم.

رد بيلفيلد: «فيما عدا أن القتيل، كالدويل، كان تاجرًا سابقًا للسلع المسروقة.»

قال ثورندايك بنبرة اهتمام: «تاجر سلع مسروقة، حقًّا؟»

رد بيلفيلد: «نعم، وأشك أنه كان «مرشدًا للشرطة» كذلك. فقد كان يعرف أكثر مما ينبغي.»

سأل ثورندايك: «هل كان يعرف شيئًا عنك؟»

رد بيلفيلد: «نعم، ولكن لم يكن يعرف أكثر مما تعرفه الشرطة.»

وزع ثورندايك الحبر بأسطوانة توزيع صغيرة على لوح النحاس في طبقة رفيعة. بعد ذلك وضع بطاقة بيضاء ناعمة على حافة الطاولة، ثم أخذ يد بيلفيلد اليمنى وضغط سبابتها بثبات وبسرعة على اللوح المغطى بالحبر أولًا ثم على البطاقة، فظهرت على البطاقة بصمة واضحة لطرف الإصبع. وكرر هذه العملية مع الأصابع الأربعة المتبقية، ثم أخذ عدة بصمات إضافية لكل إصبع منفردًا.

أمسك ثورندايك بسبابة بيلفيلد وفحصها تحت الضوء وأخذ يفحص طرفه بدقة قائلًا: «يا لها من إصابة بالغة تلك التي لحقت بسبابتك. كيف حدثت؟»

رد بيلفيلد: «غُرست فيها فتاحة علب، والأسوأ أنها كانت متسخة أيضًا. لم أتعافَ منها إلا بعد أسابيع؛ كانت الإصابة بالغة لدرجة أن الدكتور سامبسون ظن أنه سيضطر لبتر الإصبع.»

سأل ثورندايك: «متى حدث ذلك؟»

رد بيلفيلد: «منذ سنة تقريبًا يا سيدي.»

كتب ثورندايك تاريخ الإصابة بجانب بصمة الإصبع، ثم جهز لوح تحبير الأصابع من جديد، ووضع على الطاولة عدة بطاقات أكبر حجمًا.

قال ثورندايك: «والآن سآخذ بصمات الأصابع الأربع والإبهام معًا في آن واحد.»

قال بيلفيلد: «في السجن أخذوا بصمة منفصلة للإبهام وحده وبصمات الأصابع الأربعة المتبقية معًا وحدها.»

رد ثورندايك: «أعرف ذلك، ولكني سآخذ البصمة كما تظهر على زجاج النافذة بالضبط.»

أخذ ثورندايك عدة بصمات، ثم نظر في ساعته، وبدأ في إعادة الجهاز إلى صندوقه. وفي تلك الأثناء أخذ يرمق المشتبه الجالس بنظرات تأملية فاحصة من وقت إلى آخر، فرأى فيه صورة حية للبؤس والرعب وهو يمسح الحبر اللزج بمنديله عن أصابعه المرتجفة.

وبعد فترة قال ثورندايك: «بيلفيلد، لقد أقسمتَ لي إنك بريء وإنك تحاول أن تعيش حياة شريفة. وأنا أصدقك؛ ولكن بعد دقائق قليلة سأتأكد من ذلك.»

قال بيلفيلد وقد تهلل وجهه: «أشكر الرب على ذلك يا سيدي.»

قال ثورندايك: «والآن يفضل أن تعود إلى غرفة المكتب؛ فأنا أنتظر المفتش ميلر، وقد يصل في أي لحظة.»

عاد بيلفيلد إلى المكتب مسرعًا وأغلق الباب وراءه، أما ثورندايك فقد أعاد الصندوق إلى المختبر ووضع البطاقات التي تحمل البصمات في أحد الأدراج، ثم جاء لفحص عملي. كنتُ قد تمكنت من فصل قطعة صغيرة للغاية من دم متجلط من القميص الملوث ببقعة الدم، وكنتُ حينئذٍ أفحصها في قطرة من محلول ملحي عادي تحت الميكروسكوب.

سألني زميلي: «ماذا وجدتَ يا جرفيز؟»

أجبتُه: «جسيمات بيضاوية ذات أنوية مميزة.»

قال ثورندايك: «ستكون هذه أخبار سارة لأحد الأشقياء البائسين. هل قِسْتَ أبعادها؟»

«نعم. القطر الطويل ١ / ٢١٠٠ من البوصة، والقطر القصير نحو ١ / ٣٤٠٠ من البوصة.»

أخذ ثورندايك دفترًا مفهرسًا من رف للمراجع وتفقد جدولًا لقياسات الأنسجة.

وقال: «يبدو أن هذا دم طائر التُّدْرُج إذن، أو — وهو الاحتمال الأرجح — دم طائر داجن عادي.» ووضع عينه على الميكروسكوب وضبط العدسة العينية الدقيقة للتحقق من

القياسات التي أخذتها. وبينما هو كذلك سمعنا طرقًا حادًّا على الباب الخارجي. فتوجه ثورندايك لفتح الباب وسمح للمفتش بالدخول.

قال المفتش وهو ينظر إلى الميكروسكوب: «أراك منهمكًا في العمل على مشكلتي الصغيرة يا دكتور، ماذا اكتشفت عن تلك البقعة؟»

رد ثورندايك: «إنه دم طائر، ربما طائر التُّدرُج، أو ربما دم طائر داجن عادي.»

ضرب المشرف فخذَه بيده وصاح متعجبًا: «يا للعجب! إنك لساحر يا دكتور؛ أنت كذلك حقًّا. فقد فسر الرجل البقعة بأنه كان يحمل طائر تُدرُج مصابًا، وها أنت قادر على تأكيد ذلك أو نفيه دون أدنى تلميح منا يساعدك. لقد نفذتَ لي مهمتي الصغيرة يا سيدي، وأنا ممتنٌّ لك غاية الامتنان؛ والآن سأنفذ الجانب الخاص بي من الاتفاق.» وفتح حقيبة يد وسحب منها إطارًا خشبيًّا ومظروفًا أزرق كبيرًا، ووضعهما على الطاولة بحرص بالغ.

أشار ميلر إلى الإطار وقال: «هاك يا سيدي، ستجد بصمات السيد بيلفيلد مأخوذة بدقة شديدة، وفي المظروف ستجد ورقة البصمات من ملفه لتقارن بينهما.»

أخذ ثورندايك الإطار لفحصه. كان يضم بداخله لوحَين من الزجاج، أحدهما ذلك الجزء من زجاج النافذة، والآخر غطاء زجاجيٌّ لحماية البصمات. وضع ثورندايك ورقةً بيضاء على الطاولة في أقوى المناطق إضاءة، ثم أمسك بالإطار فوقها وحدق في الزجاج في صمت، وبذلك البريق الخافت لوجهه الجامد الذي كنت أعرفه جيدًا وكان يعني لي الكثير. اقتربتُ ونظرتُ من فوق كتفه ورأيت على الزجاج بصماتٍ واضحةً ومميزة لأربع أصابع وإبهام؛ أطراف أصابع يد مفتوحة، على سبيل التحديد.

بعد النظر جيدًا إلى الإطار لبعض الوقت، أخرج ثورندايك من جيبه حقيبة صغيرة من جلد الشامواه، وأخرج منها عدسة مزدوجة قوية، وفحص بصمات الأصابع ثانية بها، وأطال النظر إلى بصمة السبابة على وجه الخصوص.

قال المفتش: «لا أعتقد أنك ستجد في تلك البصمات أي مشكلة يا دكتور؛ فهي واضحة كما لو كان قد تركها عن عمد.»

رد ثورندايك بابتسامة غامضة: «هذا ما حدث بالفعل، تمامًا كما لو كان قد تركها عن عمد. ويا لنظافة الزجاج! كما لو كان قد لمَّعه قبل ترك البصمات.»

رمق المفتش ثورندايك بنظرة ارتياب سريعة، فوجد ابتسامتَه قد اختفت ولم يحلَّ محلَّها أيُّ تعبير آخر يمكن استنباط شيء منه.

بعد فحص الزجاج على نحو كامل، أخرج ثورندايك نموذج البصمات من المظروف وتفحصها سريعًا، وظل ينقل نظره بين الورقة والزجاج. وفي النهاية وضعهما على الطاولة، والتفت إلى المفتش ونظر إلى وجهه بإمعان وثبات.

قال ثورندايك: «أعتقد يا ميلر أنه يمكنني أن أُفيدَك بشيء.»

رد ميلر: «حقًّا يا سيدي؟ وما عساه أن يكون هذا الشيء؟»

قال ثورندايك: «أنت تطارد الرجل الخطأ.»

أصدر المفتش ميلر صوتًا يدل على الاحتجاج، ولكن دون الخروج عند حدود اللباقة التي طالما ميزته عن غيره من الضباط. ولكنه سرعان ما أتبع ذلك الصوت الاحتجاجي بالكلمات.

«هل تعني أن البصمات الموجودة على الزجاج ليست بصمات فرانك بيلفيلد؟»

رد ثورندايك بحسم: «بل أعني أن فرانك بيلفيلد ليس من تركها.»

سأل ميلر: «هل تقرُّ يا سيدي بأن البصمات الموجودة في النموذج الرسمي هي بصماته؟»

رد ثورندايك: «لا شك عندي في ذلك.»

قال ميلر: «حسنًا، والسيد سنجلتون، بقسم البصمات، قارن البصمات الموجودة على الزجاج بالبصمات الموجودة في النموذج وأقرَّ بتطابقها، كما فحصتُها أنا بنفسي وأُقرُّ أيضًا بأنها متطابقة.»

قال ثورندايك: «بالضبط، وفحصتها أنا أيضًا بنفسي وأُقرُّ بأنها متطابقة؛ ولذا فالبصمات التي وُجدت على الزجاج لا يمكن أن يكون بيلفيلد من تركها.»

أصدر المفتش الصوت الاحتجاجي مجددًا، بنبرة أعلى قليلًا هذه المرة، وحدق في ثورندايك مقطبًا ما بين حاجبيه.

سأله ميلر ببعض الحدة: «أنت لا تمازحني يا سيدي، أليس كذلك؟»

أجاب ثورندايك وهو يبتسم ابتسامة رقيقة: «ما كنت لأمازحك في ذلك وأنا أعرفك جيدًا.»

رد المفتش الحائر: «لو لم أكن أعرفك يا سيدي، لظننتك تهذي بترهات لا معنى لها. ربما لا تمانع في أن توضح لي ما تعني؟»

قال ثورندايك: «لو افترضنا أنني أوضحتُ لك كيف أن بيلفيلد ليس من ترك البصمات على زجاج النافذة، فهل ستعتقله تنفيذًا للأمر الصادر بحقه رغم ذلك؟»

قال ميلر متعجبًا: «ماذا تعتقد أني سأفعل حينها؟ هل تفترض أن نجعله يَمثُل أمام المحكمة ثم ننتظر قدومك لدحض دفوعنا تمامًا كما فعلتَ في قضية هورنبي تلك؟ بالمناسبة، كانت تلك القضية أيضًا قضية بصمات، تذكرت الآن.» ثم انغمس المفتش في التفكير فجأة.

تابع ثورندايك: «كثيرًا ما اشتكيتَ من عدم إفصاحي عن المعلومات ثم مفاجأتي لك بأدلة غير متوقعة أثناء المحاكمة. أما الآن فسأمنحك ثقتي وأُفصح لك بما يثبت أن الدليل الذي لديك زائف، وحينها أتوقع منك أن تترك بيلفيلد المسكين يمضي في طريقه بسلام.»

زمجر المفتش دون أن ينبس بكلمة حتى لا يُلزمَ نفسه بشيء.

أخذ ثورندايك الإطار ثانية وأردف قائلًا: «هذه البصمات تُبرز عدة أمور مهمة، أحدها، على الأقل، لم يكن من المفترض أن يفوتك أنت والسيد سينجلتون كما هو واضح. فقط انظر إلى بصمة الإبهام.»

نظر المفتش إلى بصمة الإبهام، ثم حدق في الورقة الرسمية في تأمل.

وقال: «لا أرى فيها شيئًا غريبًا. إنها متطابقة تمامًا مع البصمة الموجودة على الورقة.»

قال ثورندايك: «بكل تأكيد، وهذا بالتحديد ما لا يُعقل. بصمة الإبهام الموجودة على الوثيقة أُخذت وحدها منفردة عن بصمات الأصابع الأخرى، لماذا؟ لاستحالة أخذها معها في الوقت نفسه. فوضعية الإبهام مختلفة عن وضعية الأصابع الأخرى، وعندما تُوضع يدٌ مبسوطة على أي سطح ما، كزجاج هذه النافذة مثلًا، تتلامس الأوجه الداخلية للأصابع معه، عدا الإبهام؛ إذ إن جانبه — وليس وجهه الداخلي — هو الذي يلامس السطح، ولكن في هذه الحالة» وطرق على قطعة الزجاج المؤطرة بإصبعه، ثم أردف قائلًا: «تُظهِر البصمات الأوجه الداخلية للأصابع الخمسة ملامسةً للسطح في الوقت نفسه، وهذا مستحيل. جرب بنفسك أن تضع إبهامك في هذه الوضعية وسترى أن ذلك مستحيل.»

بسط المفتش يده على الطاولة فأدرك على الفور صحة ما قاله صديقي.

ثم سأل: «وما الذي يُثبته ذلك؟»

رد ثورندايك: «يُثبت أن بصمة الإبهام التي وُجدت على النافذة لم تُترك في نفس وقت ترك بصمات الأصابع الأخرى، أي أنها أُضيفت وحدها، وهو ما يثبت على ما يبدو أن البصمات لم تُترك على سبيل المصادفة، بل تُركت هناك عمدًا مثلما اقترحت للتوِّ ببراعة وعبقرية.»

قال المفتش وهو يفرك مؤخرة رأسه بيده في حيرة: «لا أرى المغزى وراء هذا كله، كما أنك قلت منذ قليل إن البصمات التي وُجدت على زجاج النافذة لا يمكن أن تكون بصمات بيلفيلد لأنها متطابقة مع البصمات الموجودة في النموذج. يبدو هذا لي محض هراء، اعذرني في ذلك.»

رد ثورندايك: «ومع ذلك فهذه هي الحقيقة الفعلية، اسمع، هذه البصمات» وأخذ النموذج الرسمي وتابع: «أُخذت في هولوواي منذ ست سنوات، أما هذه» وأشار إلى الزجاج المؤطر، «فقد وضعت هذا الأسبوع. ومجموعتَا البصمات متطابقتان تمامًا في خطوطهما وانحناءاتهما، أليس كذلك؟»

قال المفتش موافقًا: «صحيح يا دكتور.»

قال ثورندايك: «رائع. والآن ماذا لو قلت لك إن شيئًا حدث لبيلفيلد خلال الاثني عشر شهرًا الماضية سبَّب اختلافًا ملحوظًا في شكل انحناءات وخطوط أحد أصابعه؟»

«لكن هل يمكن ذلك؟»

«ليس ممكنًا فحسب، بل حدث بالفعل. سأريك.»

وأخرج ثورندايك من الدرج البطاقات التي أخذ عليها بصمات بيلفيلد، ووضعها أمام المفتش.

قال ثورندايك وهو يشير إلى بصمات السبابة: «لاحظ بصمات السبابة؛ هناك اثنا عشر منها، ستلاحظ فيها جميعًا خطًّا أبيض يقطع خطوط البصمات ويفصل بينها. هذا الخط الأبيض ناتج عن ندبة في الإصبع أتلفت جزءًا من خطوط البصمات، وأصبحت جزءًا لا يتجزأ من بصمة بيلفيلد. ونظرًا لأن البصمة المأخوذة من فوق الزجاج ليس فيها هذا الخط الأبيض، بينما الخطوط الأخرى واضحة تمامًا فيها، فهذا يعني أن هذه البصمات أُحدثت قبل الإصابة، مما يعني أن هذه البصمة ليس مصدرها إصبع بيلفيلد.»

سأل المفتش: «هل من شك في هذه الإصابة؟»

رد ثورندايك: «لا شك فيها على الإطلاق. والندبة تُثبتها، ويمكنني الوصول إلى الجراح الذي عالج بيلفيلد حينذاك.»

فرك الضابط رأسه بشدة أكبر، ونظر إلى ثورندايك مقطبًا حاجبيه.

وقال ممتعضًا: «هذا محير بالفعل. فما تقوله يا سيدي يبدو صحيحًا تمامًا، ولكن البصمات موجودة على زجاج النافذة. ولا يمكن إحداث بصمات الأصابع إلا إذا كانت ثمة أصابع، أليس كذلك؟»

رد ثورندايك: «بل يمكن بلا شك.»

قال ميلر: «لا يمكنني أن أصدق ذلك، ولو كنت أنت قائله سيدي، حتى أرى بنفسي كيف يحدث.»

رد ثورندايك بهدوء: «سترى الآن كيف يحدث. يبدو أنك نسيت قضية هورنبي، قضية بصمة الإبهام الحمراء كما أطلقت عليها الصحف.»

رد ميلر: «سمعت جزءًا من ملابساتها فحسب، ولم أتابع أدلتها بالكامل.»

قال ثورندايك: «حسنًا، سأريك أثرًا من تلك القضية.» وفتح خزانة وأخذ صندوقًا صغيرًا مكتوبًا عليه «هورنبي» من أحد الأرفف، ثم فتحه، وكان فيه ورقة مطوية، وكتاب مستطيل صغير ذو غلاف أحمر، وشيء شبيه ببيدق كبير من خشب البقس.

تابع ثورندايك قائلًا: «هذا الكتاب الصغير يمكنك اعتباره ألبومًا لبصمات الأصابع، لا بد أنك تعرف شيئًا كهذا.»

أومأ المفتش وهو يرمق المجلد الصغير في ترفع.

تابع ثورندايك: «والآن سأذهب إلى المختبر سريعًا لإحضار لوح تحبير ريثما يعثر لنا الدكتور جيرفيز على البصمة التي نريد.»

وأعطاني الكتاب الصغير وغادر الغرفة، وأخذتُ أنا أقلِّب الصفحات — فيما عاودتني ذكريات استثارت عواطفي؛ إذ كان لهذا الكتاب الفضل في تعرفي بزوجتي للمرة الأولى، كما رويت في موضع آخر — وأُلقي نظراتٍ سريعةً إلى البصمات المختلفة فوق الأسماء المألوفة، وأتعجب من جديد من الأشكال اللانهائية التي ترسمها خطوط البصمات. وفي النهاية وصلتُ إلى بصمتَي إبهام كان يُقسم اليسرى منها خطٌّ أبيض طولي يبدو جليًّا أنه أثر لندبة، وكان تحت البصمتين توقيعٌ باسم «روبن هورنبي».

حينئذٍ دخل ثورندايك الغرفة مجددًا يحمل لوح التحبير، فوضعه على الطاولة وجلس بيني وبين المفتش موجهًا حديثه إلى الأخير.

«هاك يا ميلر، هاتان بصمتَا إبهام تركهما رجل يدعى روبن هورنبي. فقط انظر إلى اليسرى؛ فهي بصمة مميزة للغاية.»

قال ميلر موافقًا: «نعم، أعتقد أنه من الصعب أن يغادرا الذاكرة.»

تابع ثورندايك: «والآن انظر إلى هذا.» وأخذ الورقة من الصندوق وفضها وناولها للمفتش. كانت عليها كتابةٌ بالقلم الرصاص، وبقعتَا دم وبصمة إبهام واضحة للغاية طُبعت بالدم، وتابع: «ما رأيك في بصمة الإبهام تلك؟»

قال ميلر: «إنها هذه البصمة بالطبع؛ بصمة إبهام روبن هورنبي الأيسر.»

رد ثورندايك: «غير صحيح يا صديقي، بل صنعها عبقري يدعى والتر هورنبي (الذي تابعتموه من أولد بايلي وفقدتموه في لودجيت هيل)، ولكن ليس بإبهامه.»

سأل المفتش في ارتياب: «كيف إذن؟»

رد ثورندايك: «بالطريقة الآتية.» أخذ ثورندايك البيدق المصنوع من خشب البقس من وعائه وضغط قاعدته المسطحة على لوح التحبير، ثم رفعه عنه وطبع به على ظهر بطاقة زيارة، ثم رفعه عن البطاقة مرة أخرى فظهرت عليها بصمة إبهام واضحة.

صاح المفتش وهو يأخذ البطاقة ويحدق فيها في ارتباك: «يا إلهي! شيء مذهل يا سيدي. هذا يقضي تمامًا على فكرة تحديد الهوية ببصمة الإصبع. هل لي أن أسألك يا سيدي كيف صنعت أداة الطبع هذه؟ أعتقد أنك صنعتها بنفسك؟»

رد ثورندايك: «نعم صنعناها هنا، أما عن الطريقة التي اتبعناها فهي نفس طريقة الحفر الفوتوغرافي في صنع قوالب الخطوط الطباعية؛ أي قمنا بتصوير إحدى بصمات إبهام السيد هورنبي، وطبعناها على لوح من الكروم الجيلاتيني، وعالجنا اللوح بالماء الساخن، وهذا» ولمس السطح المحفور لأداة الطباعة «هو ما تبقَّى. لكن كان من الممكن أن نقوم بذلك بعدة طرق أخرى؛ على سبيل المثال، كان من الممكن أن نستخدم ورق الطباعة العادي ورسم طباعة حجريًّا؛ أؤكد لك يا ميلر أن لا شيء أسهل من تزوير بصمة إصبع، ويمكن أن تُزور بإتقان بالغ لدرجة تجعل المزور نفسه لا يستطيع التمييز بين البصمة الأصلية والمزورة حتى لو وضعتَا جنبًا إلى جنب.»

قال المفتش مزمجرًا: «يا للعجب! لقد أبهرتني حقًّا هذه المرة يا دكتور.» وقام متجهمًا استعدادًا للمغادرة، ثم أضاف: «أعتقد أن اهتمامك بهذه القضية قد انتهى الآن، بعد أن خرج منها بيلفيلد؟»

رد ثورندايك: «نعم، من الناحية المهنية، لكني أود متابعتها حتى النهاية لأشبع فضولي. فلدي فضول شديد كي أعرف من يكون صديقنا البارع هذا.»

تهلل وجه ميلر وقال: «سنساعدك بكل الطرق، كما تعرف، وهذا يذكرني بأن سينجلتون أرسل إليك هاتين الصورتين معي، واحدة لبصمات النموذج الرسمي والأخرى للبصمات الموجودة على الزجاج. هل يوجد شيء آخر يمكننا مساعدتك به؟»

رد ثورندايك: «أود أن ألقي نظرة على الغرفة التي وقعت فيها الجريمة.»

«لك ذلك يا دكتور؛ غدًا إذا أردت، سألقاك هناك في العاشرة صباحًا، إن كان هذا يناسبك.»

أكد له ثورندايك أن الموعد سيناسبه تمامًا، ثم انصرف المفتش وقد ارتفعت معنوياته من جديد.

لم نكد نغلق الباب حتى سمعنا طرقًا سريعًا وملحًّا، ففتحتُه مجددًا، فإذا بامرأة في زيٍّ غير لافت وحجاب سميك تقف على عتبة الباب ودخلت المنزل من جانبي بسرعة.

سألت المرأة وأنا أغلق الباب: «أين زوجي؟» وحينئذٍ وقعت عيناها على ثورندايك، فأسرعت إليه وقد علت وجهَها ملامحُ التهديد والرعب والغضب معًا.

تابعت: «ماذا فعلت بزوجي يا سيدي؟ هل خنته وأخلفت وعدك الذي قطعته له؟ لقد التقيت برجل يبدو ضابط شرطة على الدرج.»

رد ثورندايك: «زوجك هنا وفي أمان تام يا سيدة بيلفيلد. لقد أغلق هذه الغرفة على نفسه.» وأشار إلى المكتب.

أسرعت السيدة بيلفيلد وطرقت الباب بسرعة ونادت: «هل أنت بالداخل يا فرانك؟»

على الفور دار المفتاح في ثقب الباب، وفُتح الباب فخرج بيلفيلد شاحبًا ومنهكًا للغاية.

قال بيلفيلد: «لقد تركتني في الغرفة لوقت طويل يا سيدي.»

رد ثورندايك: «استغرقتُ وقتًا طويلًا لأثبت للمفتش ميلر أنه يطارد الرجل الخطأ. ولكني نجحت في ذلك، أنت حرٌّ الآن يا بيلفيلد. لقد أُسقطت التهمة عنك.»

وقف بيلفيلد لوهلة كالمُخدَّر، بينما همَّتْ زوجتُه، بعد لحظة ذهول صامت، بمعانقته وأجهشت بالبكاء. تساءل بيلفيلد في حيرة: «ولكن كيف عرفتَ أنني بريء يا سيدي؟»

رد ثورندايك: «كيف عرفتُ؟! لكلٍّ منا صنعته كما تعرف. أهنئك، عُدْ إلى بيتك الآن وتناول وجبة دسمة واحظَ بنوم عميق.»

ثم صافح عميلَيه وعبثًا حاول منع السيدة بيلفيلد من تقبيل يده، ووقف عند الباب المفتوح يتسمع لصوت خطاهما يخبو شيئًا فشيئًا حتى اختفى.

قال ثورندايك وهو يُغلق الباب: «إنها امرأة نبيلة يا جيرفيز، لو أطالت البقاء أكثر لانقضت عليَّ بضراوة لإجباري على الإيقاع بالمجرم الذي حاول إفسادَ سعادتها.»

الجزء الثاني

سفينة الصحراء

لطالما بدتْ لي القضية التي سأروي تفاصيلها في السطور التالية قضية ذات دلالة كبيرة؛ إذ تبرز قيمة وأهمية تلك القاعدة الأساسية التي أكَّد ثورندايك كثيرًا اتباعها عند إجراء التحقيقات، وهي أن كلَّ الحقائق المتعلقة بأي حال بقضية ما ينبغي جمعُها بحيادٍ وبصرف النظر عن أي فرضيات، وأن كلَّ حقيقة، مهما كانت تفاهتها أو عدم ارتباطها بالقضية في ظاهر الأمر، ينبغي تمحيصُها بعناية. ولكنْ، يتعين عليَّ ألا أستبقَ ملاحظات صديقي الجهبذ الموهوب عن هذه القضية التي سأروي أحداثها للتوِّ، بل سأخوض في الحديث عن القضية نفسها.

كنت قد خلدت للنوم في منزلنا في شارع كينجز بنش ووك، مثلما اعتدت أن أفعل ليومين أو ثلاثة في الأسبوع، وعندما نزلت إلى غرفة الجلوس، وجدت بولتون، مساعد ثورندايك، يضع اللمسات الأخيرة على مائدة الإفطار، في حين انكب ثورندايك على صورتين لبصمات أصابع، وبدا أنه يأخذ قياسات دقيقة لها بدبوس شعر. رحب بي بابتسامته الهادئة الودودة ووضع دبوس الشعر جانبًا، ثم اتخذ مقعده على مائدة الإفطار.

قال لي: «أظنك ستأتي معي هذا الصباح. جريمة قتل كامبرويل.»

«بكل تأكيد، إذا سمحتَ لي، ولكني لا أعرف شيئًا عن القضية. هلا أعطيتني فكرة عامة عن الوقائع المعروفة للقضية؟»

نظر لي ثورندايك بجدية، ولكن كانت في عينه التماعةُ لعوب.

قال: «ما نحن بصدده يُذكِّرني بقصة الثعلب والغراب القديمة، تُسمعني حلوَ الكلام، فأشنف أنا آذانَك بالغناء، فتسقط قطعةُ اللحم المشوي من فمي، وتأخذها أنت وتُطلق ساقَيك للريح. مكيدة مُحكمة يا أخي النابه.»

قلتُ له: «ذاك هو محصلة التعامل مع فئات المجرمين!»

رد بابتسامة خبيثة: «يؤسفني أن تكون هذه نظرتك إلى نفسك، أما بالنسبة إلى هذه القضية، فالحقائق بإيجاز كالتالي: كان القتيل كالدويل، الذي يبدو أنه كان فيما سبق يتاجر في المسروقات، وربما كان يعمل مرشدًا للشرطة كذلك، كان يعيش وحيدًا في منزل صغير خلا من البشر إلا امرأة عجوز تعتني به.

ذهبت العجوز منذ أسبوع لزيارة ابنةٍ متزوجة لها وقضت ليلتها معها، تاركةً كالدويل وحده في المنزل. وعندما عادت في صباح اليوم التالي وجدتْ سيدَها صريعًا على أرضية مكتبه وحوله بركة صغيرة من الدماء.

اكتشف الطبيب التابع للشرطة أنه مات منذ نحو اثنتي عشرة ساعة. قُتل بضربة واحدة من الخلف بأداة ثقيلة، ووُجدت بجانبه على الأرض عتلة تُطابق الجرح تمامًا. كان القتيل يرتدي رداء نوم بدون ياقة، وكان على الأرض شمعدان مقلوب، مع أن المنزل موصل بالغاز؛ ونظرًا لأن نافذة المكتب على ما يبدو فُتحت عنوة بالعتلة التي عُثر عليها، بالإضافة إلى وجود آثار أقدام مميزة على حوض الأزهار الكائن خارج النافذة، تعتقد الشرطة أن القتيل كان يتخفف من ملابسه استعدادًا للنوم عندما سمع صوت فتح النافذة، فنزل إلى المكتب وما إن دخله حتى أرداه اللصُّ الذي كان مختبئًا خلف الباب صريعًا. وجدت الشرطة على زجاج النافذة بصماتٍ لزجة ليدٍ يمنى مفتوحة، وكما تعرف فقد تبيَّن للخبراء تطابق البصمات المعثور عليها مع بصمات مجرم سابق يُدعى بيلفيلد. وكما تعلم أيضًا، فقد أثبتُّ أن تلك البصمات المعثور عليها ما هي إلا بصمات مزيفة في الحقيقة، أُحدثت بطبَّاعات جيلاتينية أو مطاطية. هذا هو ملخص القضية.»

ومع ختام هذا السرد فرغنا من تناول الإفطار، وبدأنا نستعد لزيارة مسرح الجريمة. وضع ثورندايك في جيبه زيَّه الغريب، الشبيه بزيِّ الجيولوجيين الميدانيين، ولملم الصور وخبَّأها، وانطلقنا من طريق إمبانكمنت.

سألتُه ونحن نتقدم بخُطًى مسرعة معًا: «أظن أن الشرطة ليس لديها أيُّ دليل يُمكِّنها من تحديد هوية القاتل، خاصة بعد ثبوت تزوير البصمات، صحيح؟»

ردَّ ثورندايك: «هذا ما أظن، وإن كان من الممكن أن يكونوا قد توصلوا إلى دليل إذا تفقدوا ما لديهم من مواد. لقد أوضحتُ نقطة مثيرة نوعًا ما هذا الصباح؛ وهي أن مَن ترك هذه البصمات الزائفة استخدم طبَّاعتين، واحدةً للإبهام، والأخرى للأصابع الأربع الأخرى، وهاتان الطبَّاعتان صُنعتَا باستخدام نموذج البصمات الرسمي.»

سألتُه: «وكيف اكتشفتَ ذلك؟»

أجابني: «كان ذلك سهلًا للغاية. تذكَّر أن السيد سنجلتون، بقسم البصمات، أرسل إليَّ مع المفتش ميلر صورتين، إحداهما للبصمات التي كانت على النافذة، والأخرى للنموذج الرسمي الذي يحمل بصمات بيلفيلد. فقمتُ بمضاهاتهما وأَخْذِ قياسات كلٍّ منهما بدقة بالغة، فتبيَّن لي تطابقهما. حتى العيوب الدقيقة في طباعة البصمات في النموذج — الناتجة عن عدم تحبير الأصابع بعناية كافية — وجدتُها مستنسخة بدقة على زجاج النافذة، ولكن وضعيات الأصابع بالنسبة إلى بعضها ظهرت متطابقة تمامًا في مجموعتَي البصمات. وبالطبع صُنعت بصمة الإبهام من خلال التقاط صورة لبصمة بيضاوية من البصمات المستديرة الموجودة على النموذج.»

قلتُ: «هل تفترض إذن أن هذه الجريمة ارتكبها شخص له صلة ما بقسم البصمات في سكوتلاند يارد؟»

رد ثورندايك: «ليس كذلك تحديدًا. ولكنه شخص يمكنه الوصول إلى هذه النماذج. لقد تسربت تلك النماذج من مكان ما.»

عندما وصلنا إلى المنزل الصغير المنعزل الذي كان القتيل يعيش فيه، فتحت سيدةٌ عجوزٌ الباب، ورحب بنا صديقُنا المفتش ميلر في صالة المنزل.

قال ميلر: «نحن جميعًا مستعدون لاستقبالك يا دكتور. لقد فحصنا كلَّ شيء مرة واحدة بالطبع، ولكننا نُجري الآن فحصًا آخر أكثر تدقيقًا.» وقادنا إلى المكتب الصغير الذي خلا تقريبًا من أيِّ أثاث إلا القليل، والذي وقعت فيه المأساة. دلَّت بُقعةٌ داكنة على السجادة وفتحة مربعة في إحدى النوافذ على ملابسات الجريمة ووقائعها، والتي اكتملت بتشكيلة غريبة من الأشياء وجدناها على الطاولة المغطاة بورق الجرائد. كان من بين هذه الأشياء ملاعق فضية صغيرة، ساعات يد، عدة قطع من الحُليِّ نُزعت منها فصوص الجواهر، رغم انعدام قيمتها، وعتلة بدائية الصنع.

قال المفتش: «لا أعلم لِمَ كان كالدويل يحتفظ بكل هذه الأشياء. توجد أشياء هنا يمكنني التعرف عليها، إذ ارتبطت بست جرائم سطو مختلفة لم يُدَن فيها أحد.»

نظر ثورندايك لمجموعة الأشياء باهتمام فاتر، وبدا عليه الإحباط من العبث الذي نال الغرفة.

سأل ثورندايك: «هل لديك فكرة عما سُرق؟»

رد ميلر: «ليس لديَّ أدنى فكرة بعد. لا نعلم حتى ما إذا كانت الخزينة قد فُتحت. لقد كانت المفاتيح على طاولة الكتابة، لذا أعتقد أن يكون الفاعل قد فتش كلَّ شيء، رغم أني لا أعرف لمَ ترك هذه الأشياء إن كان قد فعل. لقد وجدناها جميعًا في الخزينة.»

سأل ثورندايك: «هل رفعتم البصمات على العتلة؟»

احمرَّ وجه المفتش بشدة وقال مزمجرًا: «نعم، ولكن ستة تقريبًا من الحمقى الخُرق أمسكوا بها قبل أن أراها، كان الحمقى يجربونها على النافذة، لذا لم نتبيَّن عليها إلا بصمات أيديهم العابثة بالطبع.»

قال ثورندايك: «لم تُفتح النافذة عنوةً في الواقع، أليس كذلك؟»

رد ميلر وهو ينظر إلى زميلي متفاجئًا: «كلَّا، كانت تلك حيلة، وآثار الأقدام كذلك كانت حيلة. لا بد أن الفاعل انتعل إحدى أحذية كالدويل وخرج ليترك آثار الأقدام تلك، إلا إذا كان كالدويل هو من تركها بنفسه، وهذا غير وارد.»

سأل ثورندايك: «هل وجدتم أيَّ خطاب أو برقية؟»

رد ميلر: «وجدنا خطابًا يحدد موعدًا لمقابلة في التاسعة مساءً ليلة الجريمة، بدون توقيع أو عنوان، وبالطبع كان خطُّ اليد مفبركًا.»

سأل ثورندايك: «هل هناك أيُّ شيء آخر قد يعتبر دليلًا من أي نوع؟»

رد ميلر: «نعم يا سيدي. وجدنا هذا في الخزينة.» وأخرج طردًا صغيرًا وشرع في فتحه، وهو يرمق ثورندايك بنظرات غريبة نوعًا ما. كان الطرد يحوي العديد من قطع الحُليِّ الصغيرة، وكان هناك طردٌ أصغر حجمًا يتكون من منديل جيب مربوط بشريط، ففتحه المفتش هو الآخر، فظهرت به ستُّ ملاعق فضية عليها جميعًا نفس النقش، ومملحتان، وقلادة ذهبية تحمل حرفًا واحدًا. ووُجد كذلك نصف ورقة مكتوب عليها بخطٍّ يدويٍّ مقلَّد بوضوح: «هذه هي البضاعة التي أخبرتك بشأنها — إف بي.» ولكن ما جذب اهتمام ثورندايك واهتمامي أكثر من كل ذلك هو المنديل نفسه (الذي لم يكن نظيفًا للدرجة وكانت عليه بقعة أو بقعتان من الدم)؛ إذ كُتِب على أحد أطرافه اسم «إف بيلفيلد» مطبوع بخط واضح بحبر تأشير بواسطة طبَّاعة من المطاط.

نظر ثورندايك والمفتش كلٌّ منهما إلى الآخر وابتسمَا.

قال المفتش: «أعلم ما يدور في ذهنك يا سيدي.»

رد ثورندايك: «أنا متأكد من ذلك، ولا جدوى من تظاهرك بعدم موافقتي الرأي.»

قال ميلر بإصرار: «حسنًا، إذا كان المنديل قد دُسَّ هنا عمدًا، فعلى بيلفيلد إثبات ذلك يا دكتور.» وأضاف بلهجة مقنعة: «كما ترى يا دكتور، فالأمر لا يتعلق بهذه القضية وحدها. فهذه الملاعق، والملحتان، والقلادة كلُّها من مسروقات جريمة سطو وينشمور هيل، ونحن نريد الإيقاع بمن قام بهذا السطو، ونريده بشدة.»

رد ثورندايك: «لا شك في ذلك، ولكن هذا المنديل لن يُفيدَكم؛ فأيُّ محامٍ ذكيٍّ — كالسيد أنستي على سبيل المثال — سوف يُثبت عدم جدواه كدليل في خمس دقائق. أؤكد لك يا ميلر أن المنديل لا قيمة له كدليل على الإطلاق، بينما قد يكون أداةَ بحث لا تُقدَّر. أفضل ما بوسعك فعله هو أن تسلمه لي وتدعني أرى ما يمكن أن نعرفه منه.»

بدا الامتعاض واضحًا على المفتش، ولكنه في النهاية وافق على مضض على اقتراح ثورندايك.

وقال: «حسنًا يا دكتور، سأتركه لك ليوم أو يومين. هل تريد الملاعق والأغراض الأخرى كذلك؟»

رد ثورندايك: «كلَّا، المنديل فقط، والورقة التي كانت فيه.»

وهكذا تسلَّم ثورندايك المنديل والورقة، وأودعهما في علبة من القصدير اعتاد حملها في جيبه، وبعد بضع كلمات إضافية مع المفتش التعس غادرنا المكان.

كان تعليق ثورندايك بعدما غادرنا المنزل: «صباح مخيب جدًّا للآمال. كان من المفترض بالطبع أن يتولَّى خبيرٌ فحصَ الغرفة قبل أن يُرفع أيُّ شيء فيها من مكانه.»

سألتُه: «هل توصلت إلى أي معلومات جديدة؟»

رد ثورندايك: «القليل جدًّا، عدا تأكيد نظريتي الأولى. لقد كان كالدويل هذا تاجرًا للمسروقات، ومن الواضح أنه كان مرشدًا للشرطة. كان يزوِّد رجال الشرطة بمعلومات قيمة، وفي المقابل يمتنعون عن مساءلته. ولكن مَن يعمل جاسوسًا أو «مرشدًا» يمارس الابتزاز كذلك في أغلب الأحيان، والاحتمال الأرجح في هذه القضية أن أحد المجرمين، كان يتعرض لابتزاز وترهيب شديدَين من كالدويل، أرسل إليه يحدد موعدًا للزيارة بحيث يكون المنزل خاليًا إلا منه، ثم حضر وضرب كالدويل على رأسه. من الواضح أن هذه الجريمة كان وراءها تخطيطٌ مسبق، وأن القاتل جاء متأهبًا لضرب عدة عصافير بحجر واحد.، فجلب معه الطباعات التي استخدمها في دسِّ البصمات الزائفة على النافذة، ولا شك لديَّ أنه قد أحضر أيضًا هذا المنديل والفضيات والحُليَّ ذات الصلة بتلك السرقات الأخرى التي كان ميلر معنيًّا بها بشدة، ودسَّها جميعًا في الخزينة. هل لاحظت أن أيًّا من هذه الأغراض لم يكن ذا قيمة، ولكنها جميعًا يسهل التعرف عليها؟»

«نعم، لاحظتُ ذلك، يبدو أنه كان يريد إلصاق السرقات السابقة وجريمة القتل هذه ببيلفيلد المسكين.»

قال ثورندايك: «بالضبط. ويمكنك أن تلاحظ موقف ميلر؛ إنه يعتبر بيلفيلد عصفورًا في اليد، في حين أن الرجل الآخر — إن وُجد — عصفور لم يزل على الشجرة، فرأى أن

يلاحق بيلفيلد ويُدينه بالجرم إن أمكن. وإذا كان بريئًا، فهذا شأنه، وهو من عليه إثبات ذلك.»

سألته: «وماذا ستفعل الآن؟»

أجابني: «سأرسل برقية إلى بيلفيلد أطلب منه المجيء للقائنا هذا المساء. فربما يستطيع أن يخبرنا بشيء عن هذا المنديل من شأنه، حين نربط بينه وبين ما بيدنا من أدلة أخرى، أن يضعنا على المسار الصحيح. متى موعد عيادتك؟»

قلتُ: «الثانية عشرة والنصف، وها هي حافلتي قد وصلت. أراك على الغداء.» ركبتُ الحافلة، وعندما اتخذتُ مقعدي في أعلاها ونظرت إلى الخلف أراقب صديقي يمشي بخُطًى نشيطة، أدركتُ أنه كان مستغرقًا في التفكير، على الرغم من انتباهه التلقائي لكل ما يحدث من حوله.

فرغت من عيادتي — وكان معي حالة اختلال عقلي مهمة بعض الشيء — في وقت سمح لي بالعودة إلى منزلنا في موعد الغداء بالضبط، وما إن دخلتُ على ثورندايك حتى وجدتُ على ملامحه ما يشي بجديد، كان يبدو في حالة مؤكدة من النشوة والابتهاج تعلمتُ من خبرتي به أنهما يدلان على تقدُّمٍ أحرزه في قضية متشابكة ومحيرة. غير أنه لم يصرح لي بشيء، بل بدا راغبًا في أن يُنحِّيَ جانبًا كلَّ همومه وشواغله المهنية لبعض الوقت.

قال ثورندايك مبتهجًا: «هلَّا أخذنا إجازة من العمل هذا المساء يا جيرفيز؟ إنه يوم جميل والعمل متباطئ الآن. ما رأيك لو ذهبنا إلى حديقة الحيوان؟ لديهم شمبانزي مذهل، وعينات عديدة من الأسماك من فصيلة نطاط الطين المدهشة تلك. هلَّا ذهبنا؟»

أجبتُه: «بكل سرور، ويمكننا أن نركب الفيل إذا أردت، ونرمي بكِسر الخبز إلى الدب الرمادي، ونجدد شبابنا بوجه عام مثل النسور.»

ولكن حين وجدنا أنفسنا، بعد ساعة، في الحديقة، بدأ الشك يتنامى لديَّ إزاء وجود غرض خفي لدى صديقي من هذه النزهة، إذ لم يجذب انتباهَه الشمبانزي أو ذلك السمك المذهل. على العكس، فقد ظل يتسكع في محيط حيوانات اللاما والجِمال على نحوٍ لم تفتني ملاحظته، وحتى ونحن هناك لم يكن اهتمامُه بالحيوانات نفسها بقدر ما كان بحظائرها ومساكنها.

وبينما كان جمل مسرج يبدو عليه الوهن والمرض يُقتاد نحو مبركه قال لي ثورندايك: «انظر يا جيرفيز، انظر إلى سفينة الصحراء، والهودج العظيم الذي يعلوه وبداخله عدة مقصورات مُحكمة، ويبدو على مفصل فخذه الأيمن آثار التهاب المفاصل الروماتويدي.

لنذهب ونفحصه قبل أن ينيخ.» فذهبنا لاعتراض طريق الجمل إلى مبركه، وأخذ ثورندايك يتحدث بلهجة وعظية ونحن ماضيان في طريقنا.

«من المثير أن نلاحظ كيفية تطويع الإنسان للحيوانات المتخصصة، مثل الحصان والرنة والجمل، وكيفية تطويع سماتها الخاصة لتلبية احتياجاته. فكِّر مثلًا في الدور الذي لعبه الجمل في مسار التاريخ، وفي التجارة قديمًا وحديثًا أيضًا، وفي نشر الثقافة، وفي الدور الذي لعبه من حملة قمبيز على مصر، حتى حملة كيتشنر. نعم، الجمل حقًّا حيوان رائع، وإن كان لا بد لي من الاعتراف بأن هذا الجمل تحديدًا يبدو هزيلًا.»

وبينما كان الجمل يقترب، ابتسم في وجه ثورندايك ابتسامة شموخ وخيلاء، كما لو أنه فهم إساءة ثورندايك له، ثم أشاح برأسه بعيدًا.

نظر ثورندايك إلى الرجل الذي كان يقتاد الجمل وقال: «لقد تقدم جملك في السن.»

رد الرجل: «صحيح يا سيدي؛ إنه يهرم، هذه حقيقة. وهو أيضًا يُظهِر ذلك.»

توجه ثورندايك نحو مبرك الجمل بجانب الرجل وقال: «هذه الحيوانات تحتاج للكثير من الرعاية على ما أظن؟»

رد الرجل: «أصبت في ذلك يا سيدي، ومزاجها شديد التقلب.»

قال ثورندايك: «سمعت هذا، ولكنها مخلوقات مثيرة للاهتمام، الجمال وحيوانات اللاما. هل تعرف ما إذا كان من الممكن الحصول مجموعة كاملة من صورها هنا؟»

رد الرجل: «يمكنك الحصول على الكثير منها من غرفة الحارس يا سيدي، لكن ليست مجموعة كاملة على ما أظن. إذا أردت مجموعة كاملة، فستجد أحد زملائي في مبرك الجمل يمكنه أن يوفرها لك؛ إنه يلتقط الصور بنفسه، وهو بارع في ذلك للغاية. ولكنه لم يَصِل بعد.»

قال ثورندايك: «هلا أعطيتني اسمه لأتمكن من مراسلته؟»

رد الرجل: «نعم يا سيدي. اسمه وودثورب، جوزيف وودثورب. سيفعل أيَّ شيء تطلبه. شكرًا لك يا سيدي، طاب مساؤك.» وأعطاه ثورندايك بقشيشًا لم يتوقعه، وبعدها اقتاد الرجل الجمل إلى المبرك.

بدا اهتمام ثورندايك البالغ بالجمال وقد تلاشى فجأة، وسمح لي باصطحابه إلى أي مكان أريد في الحديقة، مبديًا اهتمامًا كبيرًا بكل سكان الحديقة من الحشرات إلى الأفيال، ومستمتعًا بنزهته المزعومة بابتهاج ونشاط تلميذ في المدرسة. ومع ذلك لم يفوِّتْ فرصةً لالتقاط شعرة من هنا أو ريشة من هناك، ولكنه كان يلتقطها بعناية ويلفُّ كلًّا منها

في ورقة منفصلة، ويكتب على كل ورقة وصفًا لمحتواها، ويضعها في العلبة القصدير الصغيرة التي يجمع فيها العينات.

وبينما كنا ننصرف عن السياج المحيط بالنعام، قال لي: «لا نعرف متى قد تكون مقارنة أيٍّ من هذه العينات بأخرى ذات أهمية حيوية. هذه مثلًا ريشة صغيرة لطائر الشبنم، وهذه شعرة لأيل الألكة. وقد يأتي يوم تساعدُنا معرفتنا بهذه أو تلك، في ظروف معينة، في كشف مُجرم أو إنقاذ حياة بريء. حدث ذلك كثيرًا، وقد يحدث في الغد القريب.»

قلت ونحن في طريقنا إلى المنزل: «لا بد أن في خزانتك مجموعةً ضخمة من الشعيرات.»

قال لي: «هذا صحيح، لعلها تكون أكبر مجموعة من نوعها في العالم. أما الأشياء المجهرية الأخرى التي قد تُفيد في الطب الجنائي كالأتربة والطين التي تأتي من مواقع متنوعة وتتخلف عن صناعات أو حِرَف خاصة، وكذا الأنسجة والمنتجات الغذائية والعقاقير، فلديَّ مجموعة فريدة منها.»

سألتُه: «وهل وجدتَها مفيدة لك في عملك؟»

أجابني: «دائمًا؛ كثيرًا ما توصلتُ إلى ما لا يخطر بالبال من الأدلة بالرجوع إلى تلك المجموعة، وكلما طالت ممارستي للطب الجنائي، زدتُ اقتناعًا بأن الميكروسكوب هو عصبُه.»

«بالمناسبة، قلت إنك تريد إرسال برقية إلى بيلفيلد. فهل فعلت؟»

«نعم. طلبتُ منه أن يأتيَ لزيارتي الليلة في الثامنة والنصف، وأن يُحضرَ معه زوجته إن أمكن. أريد أن أحلَّ لغز هذا المنديل.»

سألته: «ولكن هل تعتقد أنه سيخبرك الحقيقة بشأنه؟»

قال: «يستحيل الجزم بذلك، حمقٌ منه ألا يفعل. لكني أعتقد أنه سيقول الحقيقة، فهو يخافني ويخاف طرائقي وحيلي بشدة.»

ما إن فرغنا من العشاء ورُفعت الأطباق، أخرج ثورندايك علبة جمع العينات من جيبه وأخذ يُفرز غنيمة اليوم، ويصدر تعليماته الصارمة لبولتون حول كيفية التصرف في كل عينة. الشعيرات والريشات الصغيرة تُثبَت في مكان حفظ الأغراض المجهرية، بينما الريشات الكبيرة يُوضع كلٌّ منها في مظروف منفصل يُوضع عليه ملصق يصف محتواه ثم تجمع المظاريف معًا في العلبة المخصصة لذلك. وبينما تواترت التعليمات على بولتون، وقفتُ أحدِّق من النافذة في شرود، مواصلًا الإنصات في سبيل تعلم الكثير من الأساليب المفيدة في التحضير للعمل وحفظ العينات، وأبهرتني كثيرًا معرفةُ زميلي الواسعة بأدق

التفاصيل العملية، وأسلوبه المثالي في تدريب مساعده. وفجأة انتبهت لشخص مألوف المظهر قادم من مقر كراون أوفيس روو وكان واضحًا أنه متجه إلى منزلنا.

صحتُ: «يا إلهي، ثورندايك، استعد للورطة القادمة!»

نظر ثورندايك نحوي وقال في قلق: «ما الخطب؟»

أجبته: «المفتش ميلر قادم نحونا مباشرة، والساعة الآن الثامنة وعشرون دقيقة.»

ضحك ثورندايك وقال: «سيكون موقفًا غريبًا، وسيمثل صدمةً لبيلفيلد نوعًا ما. لكن لا بأس على أي حال؛ بل أعتقد أنني سعيد بمجيئه.»

وبعد لحظات سمعنا طرقات المفتش السريعة على الباب، وبعدما أدخله بولتون أجال نظره في الغرفة على استحياء بعض الشيء.

قال بلهجة اعتذار: «يؤسفني أن آتيَ وأُقلقك على هذا النحو يا سيدي.»

كان ثورندايك يضع ريشة الشبنم في مظروف على مهل ويكتب عليه من الخارج اسم الطائر وتاريخ ومكان أخذ العينة، فقال له وهو منهمك في ذلك: «لا عليك، أنا خادمك في هذه القضية.» ثم قال: «بولتون، كأس من الويسكي بالصودا للمفتش.»

واصل ميلر حديثه: «الأمر أن زملائي بدءوا يُثيرون ضجة بشأن هذه القضية، ويعترضون على منحي إياك المنديل والورقة؛ إذ من المفترض أن يُحرَّزا باعتبارهما من الأدلة.»

قال ثورندايك: «توقعتُ اعتراضهم.»

رد ميلر: «وأنا أيضًا يا سيدي، وهم معترضون بالفعل. وباختصار، يقولون إن عليَّ إعادة المنديل والورقة على الفور. أتمنى ألا يُزعجَك ذلك يا سيدي.»

قال ثورندايك: «على الإطلاق. لقد طلبت من بيلفيلد المجيء إلى هنا الليلة، وأتوقع حضوره خلال دقائق قليلة، وعندما أسمع ما لديه لن يكون لديَّ حاجة إلى المنديل.»

صاح المفتش في هلع: «إنك لن تريَه المنديل!»

رد ثورندايك: «بل سأريه إياه بالتأكيد.»

قال المفتش: «يجب ألَّا تفعل يا سيدي، لا يمكنني السماح بذلك، حقًّا لا يمكنني.»

قال ثورندايك وهو يُشير بسبابته في وجه المفتش: «اسمع يا ميلر، أنا أعمل لحسابك في هذه القضية، كما قلتُ لك. فلتدع الأمر لي. كُفَّ عن إثارة اعتراضات سخيفة. وقبل أن تنصرف من هنا الليلة لن يكون معك المنديل والورقة فحسب، بل ربما سيكون معك كذلك اسم وعنوان الرجل الذي ارتكب جريمة القتل هذه وجرائم السطو العديدة التي تهمُّك تلك.»

رد المفتش مشدوهًا: «حقًّا يا سيدي؟ يبدو أنك لم تُضِع وقتًا.» وحينئذٍ سُمع طرقٌ خفيف على الباب، فقال المفتش: «أظنه قد جاء.»

وكان الطارق بيلفيلد بالفعل، ومعه زوجتُه، وقد انزعجَا بشدة عندما وقعت عيونُهما على زائرنا.

قال ميلر بلطف شديد: «لا داعي للخوف مني، لستُ هنا في أثرك.» لم يكن ذلك صحيحًا تمامًا، ولكنه هدَّأ من روع السجين السابق.

قال ثورندايك: «لقد جاء المفتش بالصدفة، ولكن من الجيد أن يسمع ما سيدور بيننا. أريد منك أن تنظر إلى هذا المنديل وتُخبرني إن كان منديلك. لا تخشَ شيئًا، فقط قُلِ الحقيقة ببساطة.»

وأخرج المنديل من أحد الأدراج، وفرده على الطاولة، وحينها لاحظتُ أن مربعًا صغيرًا قد قُصَّ من إحدى بقع الدم.

أمسك بيلفيلد المنديل بيديه المرتجفتين، وشحب وجهه تمامًا حين وقعت عيناه على الاسم المكتوب في طرف المنديل.

قال بصوت متحشرج: «يبدو أنه منديلي، ما قولكِ يا ليز؟» وناول زوجتَه المنديل.

تفحصت السيدةُ بيلفيلد الاسم أولًا ثم طرف المنديل وقالت: «إنه منديلك بالتأكيد يا فرانك. إنه المنديل الذي تبدَّل في الغسيل.» وأردفتْ مخاطبةً ثورندايك: «لقد اشتريتُ له نصفَ دزينة مناديل جديدة منذ ستة أشهر تقريبًا، وكلَّفتُ أحدَهم بصنع طبَّاعة مطاطية واستخدمتُها في طباعة هذه العلامة على كل المناديل. وذات يوم بينما كنتُ أتفقد أشياءه، لاحظتُ أن أحد المناديل ليست عليه العلامة. سألت الغاسلة عن الأمر، لكنها لم تستطع أن تعطيَني تفسيرًا، ومن ثَم لم نتمكن من استعادة المنديل الصحيح قط؛ فوضعتُ العلامة على المنديل البديل الذي حصلنا عليه عوضًا عن الأصلي الذي ضاع.»

سأل ثورندايك: «ومتى حدث ذلك؟»

ردت: «لاحظتُ ذلك منذ شهرين تقريبًا.»

«ولا تعرفين شيئًا آخر عن الأمر.»

«لا شيء على الإطلاق سيدي. ولا أنت يا فرانك، أليس كذلك؟»

هزَّ زوجُها رأسَه واجمًا، وأعاد ثورندايك المنديل إلى الدرج.

ثم قال: «والآن سأسألك سؤالًا عن موضوع آخر. عندما كنتَ في هولوواي كان هناك سجَّان، أو مساعد سجان، اسمه وودثورب. هل تتذكره؟»

«نعم يا سيدي، أتذكره جيدًا جدًّا؛ في الحقيقة هو مَن ...»

قاطعه ثورندايك: «أعلم. هل التقيتَ به منذ غادرتَ هولوواي؟»

«نعم يا سيدي. رأيته اثنين الفصح الماضي. التقيتُ به في حديقة الحيوان؛ فهو يعمل هناك الآن حارسًا لبيت الجمل.» (وعندئذٍ اتضح لي أمرٌ ما فجأة وضحكتُ بصوتٍ عالٍ، وهو ما استغربه بيلفيلد كثيرًا) ثم تابع: «سمح لابني الصغير بجولة قصيرة على ظهر أحد الجمال وكان لطيفًا للغاية.»

سأل ثورندايك: «وهل تتذكر حدوثَ أيِّ شيء آخر؟»

«نعم يا سيدي، وقعت حادثة صغيرة للجمل؛ فقد توقف فجأة — إذ كان شكسًا حادَّ المزاج — واصطدمتْ ساقُه بعمود كان يبرز منه مسمار، وأحدث المسمار جرحًا صغيرًا في جلد الجمل. فأخرج وودثورب منديله لربط الجرح، ولما لم يكن منديله نظيفًا، قلت له: «لا تستخدم هذا المنديل يا وودثورب؛ خذ منديلي.» وكان نظيفًا تمامًا. فأخذه ولفَّ به ساق الجمل، وقال لي: «سأغسله ثم أرسله إليك، إذا أعطيتني عنوانك.» لكني أخبرته أن لا داعي لذلك، وأنني سأمر ببيت الجمل في طريق خروجي وآخذ المنديل، وبالفعل مررتُ ببيت الجمل في طريق خروجي بعد ساعة تقريبًا، فأعطاني وودثورب منديلي مطويًّا لكن غير نظيف.»

«وهل فحصت المنديل وتأكدت أنه منديلك؟»

«كلَّا يا سيدي. وضعتُه في جيبي على حاله فحسب.»

«وماذا حدث للمنديل بعد ذلك؟»

«ألقيتُ به في سلة الغسيل عندما عدتُ إلى المنزل.»

«أهذا كل ما تعرف عن المنديل؟»

«نعم سيدي، هذا كل ما أعرف.»

«حسنًا يا بيلفيلد، يكفي ذلك. الآن لا داعي للقلق. ستعرف قريبًا كلَّ تفاصيل جريمة قتل كامبرويل، هذا إذا كنت تقرأ الصحف.»

أزاحت هذه الطمأنات همًّا ثقيلًا عن قلب السجين السابق وزوجته، فغادرَا وقد انفرجت أساريرهما. وعندما غادرَا، أخرج ثورندايك المنديل، ونصف الورقة وأعطاهما المفتش، وقال:

«ما وصلنا إليه مرضٍ للغاية يا ميلر؛ يبدو أن تفاصيل القضية تتكشف بوضوح تام. منذ شهرين لاحظت الزوجة أولًا تبديل المنديل، وفي اثنين الفصح الماضي، أي منذ أكثر من شهرين بقليل، وقع هذا الحادث المهم للغاية في حديقة الحيوان.»

قال المفتش محتجًّا: «كلُّ ذلك رائع يا سيدي، لكن ليس معنا سوى أقوالهما كما تعلم.»

رد ثورندايك: «ليس ذلك صحيحًا، بل لدينا دليلٌ دامغ يعضد هذه الأقوال. هل لاحظتَ أني قصصتُ قطعة صغيرة من الجزء الملطخ بالدم من المنديل؟»

قال ميلر: «لاحظتُ ذلك، وأسفتُ لفعلتك هذه، فلن يقبلها زملاؤنا.»

فقال ثورندايك: «ها هي القطعة المجتزئة، وسنطلب من الدكتور جيرفيز إعطاءَنا رأيه بشأنها.»

أخرج من الدرج الذي كان المنديل مخبَّأً فيه شريحة ميكروسكوب، ووضع الميكروسكوب على الطاولة، ووضع الشريحة على منصة الفحص.

ثم قال: «والآن يا جيرفيز، أخبرنا بما ترى.»

فحصتُ حافة المربع الصغير المجتزأ من المنديل (وكان موضوعًا في مادة كاشفة سائلة) بعدسة شيئية ذات قدرة تكبير عالية، وظللتُ لوهلة متحيرًا قليلًا من مظهر الدم الذي التصق بقطعة النسيج.

بعد قليل قلتُ ببعض التردد: «يبدو كدم طائر، ولكني لا أجد أيَّ أنوية.» ألقيتُ نظرة أخرى، وفجأة صحتُ: «يا إلهي! وجدتها؛ بالطبع! إنه دمُ جمل!»

مال المفتش إلى الأمام متحمسًا وسأل: «أهذا صحيح يا دكتور؟»

رد ثورندايك: «أجل صحيح، اكتشفتُه بعدما عدتُ إلى المنزل هذا الصباح، لا يمكن أن تُخطئَه العين. تقول القاعدة إن كريات الدم دائرية في جميع الثدييات عدا في فصيلة الجمليات؛ إذ تكون بيضاوية.»

قال ميلر متعجبًا: «هذا يربط وودثورب بجريمة قتل كامبرويل على ما يبدو.»

قال ثورندايك: «بل يربطه بها على نحو قاطع. أنسيت البصمات؟»

بدا المفتش حائرًا وتساءل: «ماذا عنها؟»

رد ثورندايك: «لقد طُبِعت بطبَّاعات، تحديدًا طباعتان، صُنعتَا بعملية ضوئية من نموذج البصمات الرسمي. يمكنني إثبات ذلك بما لا يَدَعُ مجالًا للشك.»

قال المفتش: «حسنًا، لنفترض أن هذا صحيح. ماذا يعني ذلك؟»

فتح ثورندايك أحد الأدراج وأخرج صورة فوتوغرافية وأعطاها لميلر وقال: «هذه صورة لنموذج البصمات الرسمي الذي تكرمت بإحضاره إليَّ. هل ترى المكتوب في الأسفل؟» وأشار بإصبعه.

قرأ المفتش بصوت عالٍ: «أخذ البصمات جوزيف وودثورب، الرتبة: حارس، سجن هولوواي.» وحدَّق في الصورة للحظة ثم صاح:

«يا للعجب! حللتَ اللغز ببراعة يا دكتور، وبسرعة كذلك. سيكون اعتقال السيد وودثورب أول ما نفعل صباح الغد. لكن فعلها في اعتقادك؟»

رد ثورندايك: «كان من الممكن أن يأخذ بصماتِ السجين مرتين ويحتفظ بالنسخة الإضافية معه، ولم يكن السجناء ليعرفوا أن ثمة خطأً في الأمر، ولكنه لم يفعل ذلك في هذه الحالة. لا بد أنه خطَّط لالتقاط صورة فوتوغرافية للنموذج قبل حفظه، وهو الأمر الذي يستغرق من مصور بارع دقيقة أو دقيقتين فحسب، باستخدام كاميرا يدوية مناسبة تُوضع على طاولة على مسافة مناسبة من الحائط؛ وقد تأكدتُ بنفسي أنه مصور بارع. أغلب الظن أنكم ستجدون الكاميرا والطباعات كذلك إذا فتشتم مسكنه.»

قال ميلر: «حسنًا، حسنًا. إنك تُذهلنا بالمفاجآت يا دكتور. لكن عليَّ الانصراف الآن لاستصدار مذكرة الاعتقال. طابت ليلتُك يا سيدي، وشكرًا جزيلًا على المساعدة.»

عندما انصرف المفتش جلسنا لوهلة ينظر أحدُنا إلى الآخر في صمت. ثم تحدث ثورندايك قائلًا: «هذه القضية، رغم بساطتها، تُعلِّمنا درسًا قيِّمًا للغاية، درسًا ينبغي أن تَعيَه تمامًا، تظلُّ قيمةُ أيِّ حقيقة باعتبارها دليلًا مجهولةً حتى تخضع للفحص والتدقيق. قد يبدو ذلك من البديهيات، ولكنْ دائمًا ما يُغفَل عنه في التطبيق العملي، شأنُه شأنُ الكثير من البديهيات الأخرى. ففي هذه القضية مثلًا، عندما غادرت منزل كالدويل هذا الصباح كنتُ قد توصلت للحقائق التالية: (١) قاتل كالدويل كانت له صلة مباشرة أو غير مباشرة بقسم البصمات. (٢) كان من المؤكد أنه مصور ماهر. (٣) من المرجح أنه هو نفسه من ارتكب جريمة السطو في وينشمور هيل وجرائم السطو الأخرى. (٤) كان كالدويل يعرفه، وله معاملات معه على صعيد العمل، وربما كان كالدويل يبتزُّه. هذا كلُّ ما كان لديَّ، أدلة غامضة للغاية كما ترى.

وهناك وجدنا المنديل، الذي لم أشكَّ للحظة في أنه مدسوس، ولكن لم يكن بمقدوري إثباتُ ذلك؛ كان الاسم المطبوع عليه هو بيلفيلد، ولكنَّ أيَّ شخص يمكنه أن يحصلَ على طبَّاعة مطاطية. وكان ملطخًا بالدم، كالمعتاد مع المناديل، وهذا الدم قد يكون دمًا بشريًّا أو غير ذلك، ولم يبدُ مهمًّا على الإطلاق أن نتحقق من مصدر الدم. ومع ذلك، قلتُ لنفسي: لو كان دمًا بشريًّا أو على الأقل دمَ أحدِ الثدييات، فهذه حقيقة، أما إذا لم يكن كذلك، فتلك حقيقة مختلفة. كان عليَّ جَمْعُ الحقائق، ثم بعد ذلك أعرف قيمتها. فحصتُ البقعة

عند عودتي إلى المنزل، والمفاجأة أن الدم كان دمَ جملٍ، وإذا بهذه الحقيقة التافهة تتحول في الحال إلى دليل بالغ الأهمية. والباقي كان واضحًا. كنتُ قد رأيتُ اسمَ وودثورب على نموذج البصمات، وكنتُ أعرف عددًا من المسئولين الآخرين. كانت مهمتي هي زيارة كلِّ مكان في لندن فيه جمال، وجمْعُ أسماء كلِّ مَن لهم صلة بالجمال لأعرف ما إذا كان أحدهم يُجيد التصوير الفوتوغرافي. وكان من البداهة أن أزور حديقة الحيوان أولًا، ومع تلك المحاولة الأولى وصلتُ إلى جوزيف وودثورب. لذا أقولها مجددًا: لا تستهِنْ بأي حقيقة قبل أن تدقق فيها.»

لم يَرِد ذكر الأدلة المثيرة المذكورة أعلاه في المحاكمة، ولم يظهر اسم ثورندايك بين أسماء الشهود؛ فعندما فتَّشت الشرطة مسكن وودثورب، عُثر على الكثير من الأدوات التي تُثبت جرمه (وكان منها طباعتان لبصمات الأصابع تطابقتا مع وصف ثورندايك لهما تمامًا، وعددٌ من الصور الفوتوغرافية لنماذج البصمات)، فلم يكن ثمة شكٌّ في إدانته، وسرعان ما فُصد ذلك الدم الفاسد من جسم المجتمع.


هنداوي